الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة وهران

كلية العلوم الاجتماعية

قسم الفلسفة

مشروع

" الفلسفة الأنجلوساكسونية "

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة الموسومة " بـــ :

السيـــاســة و العـــلم عند كـــارل بـــوبر

دراسة تحليلية نقدية للمشروعين السياسي والابستمولوجي والعلاقة النسقية بينهما في فلسفة كارل بوبر

<u>أعضاء لجنة المناقشة</u> :

د : حمادي حميد ..... رئيسا

د : سواريت ابن عمر ..... مقررا

د : دراس شهرزاد ..... مناقشا

د: محمدي رياحي رشيدة..... مناقشا

إعداد الطالب : محمد بوحجلة

إشراف : الدكتور . سواريت ابن عمر

السنة الجامعية:2010 – 2011

الإهداء

أهدي هذا العمل المتواضع إلى والدي الكريمين

وإلى كافة أفراد أسرتي

كلمة شكر

نتقدم بالشكر إلى : أستاذنا الفاضل سواريت ابن عمر الذي تفضل بالإشراف على هذه المذكرة، وعلى ما بذله من جهد وما قدمه من ملاحظات وتوجيـــهات قيمة في متابعته لانجاز هذا العمل .

كما لا يفوتنا أن نستغل هذه الفرصة لنوجه تحية تقدير واحترام لكافة أفراد قسم الفلسفة بجامعة وهران إدارة وأساتذة ونتمنى لهم المزيد من النجاحات، ونتمنى كذلك أن نكون عند حسن ظنهم.

مقدمة

يجري الحديث في هذا البحث عن السياسة والعلم عند الفيلسوف الأنجلوساكسوني **كارل ريموند بوبر KARL Raimund POPPER (1902 في فيينا - 1994 في لندن)**، وذلك من خلال دراسة تحليلية نقدية : للمشروعين السياسي والابستمولوجي والعلاقة النسقية بينهما في فلسفته، وفي هذا الإطار يعد كارل بوبر واحدا من أهم فلاسفة العلم في القرن العشرين ومن أغزر المؤلفين إنتاجا في هذا المجال، ويعد كذلك واحدا من أهم فلاسفة العلوم الاجتماعية والسياسة، حيث كتب بشكل موسع في الفلسفة الاجتماعية والسياسية، و هذا يعني أن كارل بوبر تناول في مختلف أعماله موضوعين أساسيين هما : فلسفة العلم (الابستمولوجيا) من جهة والسياسة من جهة أخرى، ومبدئيا يبدوا أنه لا توجد علاقة بين هذا وذاك، ولكن بالنسبة لبوبر فإن هذين الموضوعين ليسا مستقلين عن بعضهما البعض بل هما في الحقيقة لو تعمقنا في الأمر جيدا موضوعان مترابطان ببعضهما البعض، ومن الصعب جدا- حسبه - أن نفصل منطقيا بين ماهو علمي وماهو سياسي، وهذا هو الذي يفسر لنا التكامل(العلاقة النسقية) في أعمال بوبر الفلسفية، لذلك سطرنا كسؤال محوري : ماهو الذي يجعل كل معارفنا العلمية تنسحب على الفكر السياسي عند كارل بوبر ؟

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المشروع الابستمولوجي لبوبر يندرج في إطار مساهمة هذا الفيلسوف في البحث عن مخرج للأزمة التي عرفها العلم المعاصر، والمقصود بالأزمة هنا كما يعرف ذلك جيدا كل باحث في الفلسفة هي أزمة العلوم الرياضية والفيزيائية التي أدت إلى تغيير جذري في المفاهيم العلمية والفلسفية، وفي هذا الصدد أصدر بوبر كتابه**(منطق الكشف العلمي)** سنة 1934 وهو العمل الذي عبر فيه عن موقفه الابستمولوجي اتجاه أهم القضايا التي طرحتها هذه الأزمة، بينما يندرج مشروعه السياسي في إطار البحث عن مخرج للأزمات المتتالية التي أصابت المجتمعات الليبرالية الغربية في النصف الأول من القرن العشرين، وفي هذا الصدد أصدر كتابه الشهير **(المجتمع المفتوح وأعداؤه)** سنة 1945، وهو العمل الذي عبر فيه عن موقفه النقدي السياسي وعن محاولته المساهمة في تقديم حل للأزمة الليبرالية الداخلية خصوصا مع تصاعد النازية والفاشية والمد الشيوعي آنذاك ، ونقطة التقاء هذين الموضوعين أي (المشروع السياسي والمشروع الابستمولوجي) - عند بوبر - هو العلوم الاجتماعية وذلك

باعتبار السياسة علما اجتماعيا، وهذا ما أوضحه في كتابه الثالث **(بؤس الإيديولوجيا)** الذي أصدره سنة 1957 .

وهذا يعني أن هذه الأعمال الثلاث هي الأعمال الأساسية التي تعبر عن فلسفة كارل بوبر، أما الأعمال التي صدرت بعدها فإنها كانت مجرد تأكيد وتوضيح وتحليل لما ورد في الأعمال السابقة الذكر، وانطلاقا من القراءة الأولية لهذه الأعمال الثلاث تبلورت لدينا إشكالية هذا البحث حول العلاقة بين السياسة والعلم في فلسفة بوبر والتي تمت صياغتها في سؤال محوري على الشكل الآتي :

- هل المشروع الفلسفي السياسي الليبرالي لكارل بوبر مستقل ومنفصل عن مشروعه الابستمولوجي العام أم يتأسس عليه ؟

ويتفرع عن هذه الإشكالية الأساسية مشكلات فرعية كثيرة من أبرزها مايلي :

- كيف انتقل كارل بوبر من الابستمولوجيا إلى السياسة ؟
- كيف نسطر سياسة بطريقة علمية ؟
- كيف يمكن اعتبار فلسفة كارل بوبر السياسية امتدادا لفلسفته العلمية ؟ وما هو النموذج الفكري الذي تتقاطع فيه السياسة مع الابستمولوجيا والعلم عند بوبر ؟
- وهل كان بوبر وفيا لأفكاره في مواقفه السياسية اتجاه القضايا الدولية التي عاصرها ؟ ....

ولاشك أن صيغة الإشكالية السابقة تحتمل الفرضيتين التاليتين:

1 – إما أن يكون المشروع السياسي الليبرالي لكارل بوبر مستقلا ومنفصلا عن مشروعه الابستمولوجي العام (وهدفنا هو تفنيد ونفي وإبطال هذه الفرضية) .

2 – وإما أن المشروع السياسي الليبرالي لكارل بوبر يتأسس على مشروعه الابستمولوجي العام، أي أن الفلسفة السياسية لبوبر هي امتداد لفلسفته العلمية (وهدفنا من هذا البحث هو إثبات هذه الفرضية والدفاع عنها) .

وسعيا لحل هذه الإشكالية وتحليل الفرضية التي نود إثباتها والدفاع عنها في هذا البحث ، رسمنا خطة استهدفنا من ورائها الوقوف عند أهم المحطات الرئيسية في فلسفة بوبر ، حيث تم تقسيم هذا البحث إلى مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة ، حاولنا من خلالها مراعاة الترابط والتسلسل المنطقي بين هذه العناصر قدر الإمكان ، وتتمثل هذه الخطة فيما يلي :

المقدمة: وتشتمل على العناصر التالية (تحديد موضوع البحث، تحديد الإشكالية والفرضيات، تحديد خطة البحث، تحديد المنهج، الدراسات السابقة، الصعوبات، وآفاق البحث، أسباب اختيار هذا الموضوع).

الفصل الأول: المشروع الابستمولوجي لكارل بوبر، والغرض منه معرفة الخصائص العامة للشق الابستمولوجي في فلسفة كارل بوبر، وذلك لأن الابستمولوجيا تمثل المدخل والعمود الفقري لفلسفته ، ويتكون من ثلاثة مباحث أساسية هي:

المبحث الأول : كارل بوبر والاتجاهات الفلسفية المواكبة له، والغرض منه محاولة معرفة موقع كارل بوبر في الفلسفة المعاصرة من أجل التأكيد على أن معالجة كارل بوبر لقضايا العلم تمت خارج الإطار المعرفي والمنهجي للفلسفة التحليلية والوضعية المنطقية وغيرها من المرجعيات الفكرية وذلك بإحداثه إبداعا جديدا في المفاهيم والمنهج .

المبحث الثاني : الابستمولوجيا العامة عند كارل بوبر، وذلك لأن الابستمولوجيا هي نقطة انطلاق تفكير بوبر والأساس الذي تبنى عليه فلسفته ، ولأن بوبر يزعم أن المفهوم الذي يقدمه للعلم والمنهـــج العلمي هو المفهوم الصحيح، واكتشاف عدم صحة ذلك يـؤدي إلى تداعـي عمارة هذه الفلسفة بشقيها الابستمولوجي والسياسي ، وسنبحث هنا في مبدأ القابلية للتكذيب كمعيار للتمييز بين العلم واللاعلم وفي موقف بوبر من الإستقراء .

المبحث الثالث : ابستمولوجيا العلوم الاجتماعية عند كارل بوبر، وذلك لأن هذه الأخيرة هي أساس الفكر السياسي عند بوبر، وسنبحث هنا في مفهوم العلوم الاجتماعية وأطروحة وحدة المنهج بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية عند بوبر.

الفصل الثاني : المشروع السياسي لكارل بوبر، ويتكون أيضا من ثلاثة مباحث أساسية هي :

المبحث الأول : المذهب التاريخي والمجتمع المغلق، والغرض منه معرفة الخلفية الفلسفية للمجتمع المغلق، وخصائص هذا النوع من المجتمع، وأهم الانتقادات التي وجهها بوبر إلى كل من أفلاطون وهيغل وماركس باعتبار أن تفكيرهم في رأيه هو الذي يؤدي إلى مجتمع مغلق ونظام سياسي شمولي .

المبحث الثاني: الفكر النقدي والمجتمع المفتوح، والغرض منه معرفة الخلفية الفلسفية للمجتمع المفتوح وخصائص هذا النوع من المجتمع، وسنركز فيه هنا على ثناء بوبر على بعض المفكرين على غرار بركليس وسقراط وطاليس وانسكمندريس الذين يسميهم الجيل العظيم باعتبار أن تفكيرهم في نظره هو الذي أدى إلى ميلاد المجتمع المفتوح.

المبحث الثالث : مفهوم الديمقراطية والحرية والمسؤولية والتسامح عند كارل بوبر، وهو تكملة لدراسة فكرة المجتمع المفتوح وأسس السياسة الليبرالية عند بوبر .

الفصل الثالث : العلاقة النسقية بين المشروع السياسي والمشروع الابستمولوجي، ويتكون من ثلاثة مباحث أساسية أيضا هي :

المبحث الأول : كارل بوبر من الابستمولوجيا إلى السياسة ، والغرض منه بيان أن المشروع السياسي لكارل بوبر يتأسس على مشروعه الابستمولوجي ، وذلك لأن الابستمولوجيا التكذيبية البوبرية هي التي تحدد شكل الارتباط بين العلم ومحاولة كارل بوبر الفلسفيـة لدراسة المجتمع المفتوح، وتم التركيز فيه خاصة على الهندسة الاجتماعيـة الجزئية باعتبارها تقنيـة سياسيـة لإصلاح المجتمع .

المبحث الثاني : قراءة نقدية في فلسفة كارل بوبر ، والغرض منه إبراز مدى تناقض المواقف السياسيـة لكارل بوبر اتجاه القضايا الدوليـة التي عاصرها مع الأفكار الابستمولوجية والسياسية التي كان يدعو إليها، أي عدم التزامه ووفائه بالأفكار التي كان يبشر بها.

المبحث الثالث : ما بعد فلسفة كارل بوبر، وهو محاولة لتجاوز فلسفة كارل بوبر، وقد وقع اختيارنا فيه على فلسفة العلم لدى بول فيرابند P. Feyerabend كنموذج لتجاوز فلسفة العلم

البوبرية، وعلى الفلسفة السياسة لدى نعوم تشومسكي N. CHOMSKY كنموذج لتجاوز فلسفة بوبر السياسية.

الخاتمة: وتتضمن خلاصة النتائج المتوصل إليها من خلال هذا العمل.

وتم رسم هذه الخطة بهذا الشكل لأنه تبين لنا بعد القراءة الأولية لأعمال بوبر أن فكره السياسي يتأسس على نظريته الابستمولوجية في العلوم الاجتماعية ، وهذه الأخيرة هي فرع من الابستمولوجيا العامة لديه ، لذلك سنتناول في الفصل الأول الشق الابستمولوجي ، وفي الفصل الثاني الشق السياسي ، وفي الفصل الثالث العلاقة النسقية بينهما مع قراءة نقدية لفلسفة بوبر ومحاولة تجاوزها .

ولتحقيق هذا الهدف سنعتمد في هذا البحث على المنهج **التحليلي النقدي** الذي يتناسب في رأينا مع طبيعة الموضوع والإشكالية المطروحة في هذه المذكرة ، وذلك لأن دراسة الفكر السياسي عند كارل بوبر مرتبط بدراسة فكره الابستمولوجي العام وفكره الابستمولوجي الخاص المتعلق بالعلوم الاجتماعية ، وهذا يتطلب استقصاء أفكار كارل بوبر من مصادرها الأصلية ثم تحليلها وتوضيحها والتعليق عليها بالاستعانة على ما ورد في المراجع والدراسات والمقاربات الفلسفية حول فكر كارل بوبر ، كما سنعتمد أحيانا على المنهج التحليلي التاريخي وخاصة في المبحث الأول من الفصل الأول ، ومنهج المقارنة أحيانا أخرى ، وذلك أيضا خاصة في المبحث الأول من الفصل الأول وفي المبحث الأخير من الفصل الثالث .

أما عن الدراسات السابقة حول كارل بوبر ، فإننا نلاحظ أن نجاح أعمال كارل بوبر في البلدان **الأنجلوساكسونية** يثير الدهشة والإعجاب ، ولكنها في المقابل بقيت مجهولة إلى حد ما في الثقافات الأخرى خاصة في فرنسا والوطن العربي وخاصة الجزائر ، ففي فرنسا وجب انتظار فترة نهاية السبعينات من القرن الماضي للتعرف أكثر على أعمال بوبر ودراسته في الجامعات الفرنسية وتعتبر الكاتبة الفرنسية روني بوفريس Renée Bouveresse من أهم الكتاب الفرنسيين المهتمين بكارل بوبر - والتي كانت أيضا صديقة له - حيث أصدرت حوله عدة أعمال من أهمها (العقلانية النقدية عند كارل بوبر) وهو مترجم إلى العربية من قبل الكاتب المغربي (سعيد بوخليط) ، والتي أرجعت عدم اهتمام الفرنسيين ببوبر إلى تقليد تاريخي في الثقافة

الفرنسية يتمثل في اهتمام الفرنسيين بالفكر الألماني قياسا للفكر **الأنجلوساكسوني** ، واهتمامهم أيضا – على حسب تعبير ريمون آرون – بالفلسفة الشيـــوعية Philo- Communisme حيث شكل باستمرار عشق الماركسية والشيوعية عائقا أمام احتضان ايجابي لبوبر في فرنسا ، وحين بدأت روني بوفريس سنة 1976 مشروعها عن بوبر لم يكن آنذاك قد ترجم إلى الفرنسية سوى كتابيه منطق الكشف العلمي (La logique de la découverte scientifique) وبؤس الايديولوجيا (Misère de l'historicisme) أما عمله الآخر المعنون بالمجتمع المفتوح وأعداؤه (La société ouverte et ses ennemis) فإنه لم يترجم إلا سنة 1979 عن دار النشر (Seuil) ، وبعدها توالت ترجمة أعمال بوبر في فرنسا حيث ترجم كل من مشال إيرين Michelle Irène ومارك دولوني Marc de lonnay كتاب آخر لبوبر وهو حدوس وتفنيدات (Conjectures et réfutations) وترجم جان جاك روزلRosal كتاب المعرفة الموضوعية (Connaissance objective)، أما عن المقاربات الفلسفية حول بوبر في فرنسا فهي كثيرة من أشهرها تلك الدراسات التي قامت بها رونيه بوفريس وكذلك المفكر الماركسي وأستاذ الفلسفة السياسية جان بودوان (Jean Baudouin).

أما في الوطن العربي فيعود الفضل إلى الدكتورة يمنى طريف الخولي التي كانت من الأوائل الذين عرفوا القارئ العربي بكارل بوبر من خلال رسالتها الجامعية (فلسفة العلوم الطبيعية عند كارل بوبر) وغيرها من الأعمال مثل كتابها (فلسفة كارل بوبر) وكتابها الآخر (فلسفة العلم في القرن العشرين) الذي أفردت فيه حيزا كبيـــرا لكارل بوبر ، كما ترجمت أحد أهم أعمالـه الأخيـرة (أسطورة الإطار : في دفاع عن العلم والعقلانية) ، وقد تمت ترجمة عدة مؤلفات لبوبر إلى اللغة العربية وهي في حدود معلوماتي سبعة أعمال هي : منطـق الكشـف العلـمي، المجتمـع المفتـوح وأعداؤه (الجزء الأول) ، بؤس الايديولوجيا (عقم المذهب التاريخي) ، أسطورة الإطار ، الحياة بأسرها حلول لمشاكل ، نحو عالم أفضل ، خلاصة القرن ، ومع ذلك بقيت دراسات كثيرة لبوبر مكتفية بلغتها الأصلية ولم تأخذ بعد طريقها إلى اللغة العربية ، أما عن المقاربات الفلسفية حوله في العالم العربي فهي قليلة جدا وتناولت في معظمها فلسفة بوبر العلمية، ولعله من المستحسن أن نذكر بعض هذه الدراسات وهي : كارل بوبر مائة عام من التنوير لعادل مصطفى، وكارل بوبر : نظرية المعرفة في ضوء المنهج العلمي لمحمد قاسم محمد ، وفلسفة

كارل بوبر ليمنى طريف الخولي ، وهي الدراسات التي اطلعنا عليها وأفدنا منها في هذا البحث ، وهناك دراسات عربية أخرى حول بوبر تعذر علينا الاطلاع عليها والإفادة منها وتتمثل خاصة في : النزعة العلمية في فلسفة بوبر لحنان علي عواضة، وكارل بوبر فيلسوف العقلانية النقدية لكامل محمد عويضة .

وفي الجزائر يعتبر الأستاذ لخضر مذبوح أول كاتب جزائري تناول فكر كارل بوبر من خلال رسالته الجامعية (فكرة التفتح عند كارل بوبر)، ثم ترجم رفقة الزواوي بغورة أحد أعمال بوبر (خلاصة القرن)، وماعدا ذلك لا توجد أعمال جزائرية منشورة حول بوبر، أما عن المذكرات الجامعية حوله فهي قليلة جدا أيضا وتناولت على الخصوص الشق الابستمولوجي في فلسفة كارل بوبر وأهملت تماما الشق السياسي والعلاقة النسقية بينهما ، وتتمثل هذه المذكرات في مايلي :

1– موقف كارل بوبر من الميتافيزيقا من قبل الباحث روزي رابح و إشراف الأستاذ عبدالرحمن بوقاف بجامعة الجزائر سنة 2001 .

2 – مشكلة التمييز بين العلم واللاعلم عند كارل بوبر من قبل الباحثة عبة رشيدة و إشراف الأستاذ محمود يعقوبي بجامعة الجزائر سنة 2002 .

3 – المنهج النقدي عند كارل بوبر من قبل الباحث خوني ضيف الله وإشراف الأستاذ لخضر شريط بجامعة الجزائر سنة 2006 .

ولي شرف عظيم أن أكون مستقبلا ضمن قائمة من تناولوا فكر كارل بوبر ليس لتكرار الأبحاث السابـــقة ولكن لتسليـط الضـوء على الفكر السيـاسي لهذا الفيلسوف وعلاقتـه النسقيـة بفكـــره الابستمولوجي ، وهو موضوع لم تتناوله الأطروحات الجامعية السابقة في الجزائر .

ولا شك أن هذا البحث كغيره من الأبحاث الجـامعيـة عامــة والأبحـاث الفلسفيـة خاصــة لا يخلوا من صعوبات منها انعدام المصادر المتعلقة بكارل بوبر في المكتبات الجامعية وقلة المراجع بها أيضا ، وكان عزاؤنا الوحيد في ذلك هو شبكة ـ الانترنت – التي وجدنا بها بعض المصادر والمراجع باللغة العربية على شكل كتب اليكترونية ، كما وفر لنا مركز الوثائق

الاجتماعية بوهران مجموعة لا بأس بها من مؤلفات كارل بوبر المترجمة إلى اللغة الفرنسية ، ومن الصعوبات الهامة في هذا البحث أيضا هي الشبكة المفهومية الخاصة التي يستعملها كارل بوبر حيث واجهنا أحيانا تضاربا كبيرا في ترجمة هذه المفاهيم من لغتها الأصلية أي الانجليزية أو الألمانية إلى اللغة الفرنسية والى اللغة العربية على الخصوص ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر عدم تمييز بعض المترجمين والدارسين العرب بين مفهومي Falsification و Falsifiabilité وكذلك ترجمة مفهوم Historicisme منهم من يترجمه التاريخانية ومنهم من يترجمه التاريخي وبين هذا وذاك اختلاف في المدلول ، وحتى في اللغة الفرنسية نجد استخدام المترجمين لمصطلح نظرية المعرفة (La théorie de la connaissance) والابستمولوجيا (Epistémologie) وفلسفة العلوم (La philosophie des science) والميتودولوجيا (Méthodologie) بنفس المعنى أو بمعنى واحد (ميتودولوجيا العلم التجريبي) لأن لهذا المصطلح معناه الخاص لدى بوبر بينما تختلف معاني هذه المصطلحات عند البعض من أمثال لالاند Lalande ، وهذا يعكس الثقل المفهومي الخاص الذي تتميز به كتابات بوبر - خاصة الابستمولوجية منها - وهو أمر يتطلب تركيز ومتابعة دقيقة من أجل تجاوز هذا المشكل ، ومن جهة أخرى فإن كارل بوبر رغم أنه يكتب بأسلوب واضح وبسيط وتعبير دقيق ، ولكن وراء هذا الوضوح والبساطة تختبئ معان وحقائق كبيرة حول المشكلات التي تناولها بالبحث والدراسة والنقد ، وهذا الأمر يتطلب الحيطة والحذر في التعامل مع نصوص بوبر .

أما عن الآفاق من وراء هذا البحث فهي عديدة منها مايلي :

1 - المساهمة في التعريف بالعقلانية النقدية والمنهج النقدي ، وذلك نظرا لما للنقد - وهو خاصية من خصائص الروح العلمية - من أهمية في تصحيح أخطائنا وتجاوزها على المستوى العلمي أو السياسي والاجتماعي ، لأنه يسمح لنا بمراجعة مفاهيمنا و أعمالنا وإعادة النظر فيها من حيث موضوعها ومنهجها ونتائجها باعتبار أن الإنسان ليس معصوما من الخطأ .

2 - المساهمة في تسليط الضوء على الفكر السياسي لكارل بوبر والعلاقة الموجودة بين العلم والسياسة في فلسفته ، وذلك لأن بوبر يرى أن فلسفة العلم يجب أن تدافع عن المجتمع المفتوح

ويعتبر السياسة قضية من قضايا المعرفة أو كمقولة من مقولات نظرية المعرفة العلمية ، وهو أمر حسب ما أعتقد لم تنتبه له الأطروحات الجامعية السابقة حول بوبر في الجزائر .

3 - وليس هدفنا هو الدراسة الاستقصائية النظرية الأكاديمية الباردة فحسب ، وإنما هدفنا هو أن تتحول هذه المعارف إلى أدوات في الفعل والممارسة ، ولكي يتحقق ذلك لا بد من استثمارها واستخدامها ومحاولة تفسير الواقع من خلالها ، ولا شك أن نجاح الفكر البوبري في العالم **الأنجلوساكسوني** نظرا لجمعه بين العلم والسياسة هو دليل على مدى أهمية هذا الفكر ، وما أحوج العالم العربي على الخصوص إلى تسطير سياسة تقوم على العقلانية والمنهج النقدي والمعطيات العلمية والتكنولوجية والابتعاد عن العشوائية والارتجالية والمناسبتية والدوغمائية والعاطفة في رسم السياسات الاجتماعية التي أدت إلى فشل تلو الآخر ، وهنا يجب أن ننبه إلى أن اقتباسنا من أفكار بعض مفكري الغرب - مثل بوبر - لا يعني أننا نقبل كل أفكاره، ولكننا نؤمن أن الحكمة ضالة المؤمن و أن هؤلاء المفكرين كما زاغوا في أمور فإنهم أضافوا في أمور أخرى.

ويرجع اختيارنا كارل بوبر موضوعا للدراسة في هذه المذكرة لأسباب واعتبارات عديدة منها :

1 - إعجابنا بالنجاح الكبير لكارل بوبر في البلدان الأنجلوساكسونية أين لقيت أعماله رواجا كبيرا ، وفي المقابل لاحظنا أنه بقي مجهولا إلى حد ما في الثقافة الفرنسية والعربية والجزائرية حيث لا يدرّس في الجامعات إلا بصفة محدودة ومعظم الدراسات والمقاربات الفلسفية حوله اهتمت بالشق الابستمولوجي خاصة وأهملت الشق السياسي والاجتماعي في فلسفته ، لذلك استهدفنا في بحثنا هذا تسليط الضوء على أعمال كارل بوبر بالتركيز خاصة على أفكاره السياسية والاجتماعية أي الشق الثاني من فلسفته مع التأكيد على العلاقة النسقية بين فلسفته العلمية وفلسفته السياسية .

2 - وترجع أهمية اختيار كارل بوبر كذلك – موضوعا للدراسة – إلى أنه فيلسوف التزم المنهج النقدي في أعماله ، وعارض الفلسفات السابقة ووجه لها نقدا شديدا ، كما عارض أيضا الاتجاهات الفلسفية التي واكبها وخاصة الوضعية المنطقية والفلسفة التحليلية والنقدية الاجتماعية

والوجودية وغيرها ، وفضل أن يكون له منهجا ومذهبا خاصين يتميز بهما ألا وهما " المنهج النقدي والعقلانية النقدية " .

3 - ويمثل اختيار كارل بوبر أهمية خاصة أيضا نظرا لسعة ثقافته وتنوعها وكثرة انتقالاته (من النمسا إلى نيوزيلندة إلى العاصمة البريطانية لندن التي استقر فيها من 1945 إلى غاية وفاته سنة 1994 وزيارته للولايات المتحدة عدة مرات) مما مكنه من الاطلاع على كثير من الأفكار في مواطنها الأصلية وأحيانا من أصحابها أنفسهم ، حيث التقى وحاور برتراند راسل وكارناب وفايجل وفنتجشتاين وتارسكي وريشنباخ والعالم الشهير ألبرت أنشتا ين وغيرهم ، وكذلك عاصر بوبر ظهور الفلسفات التحليلية والوضعية المنطقية والبراغماتية والنقدية الاجتماعية وفلسفات الوجود والفينومنولوجيا وغيرها من الفلسفات والأفكار مما أكسبه ثقافة واطلاعاواسعين، وهو الأمر الذي جعله أحد المفكرين القلائل الذين اقتحموا كل حقول الفلسفة، وهذا ما يجعله أيضا جديرا بالاهتمام والدراسة.

الفصل الأول

I - الفصل الأول : المشروع الابستمولوجي لكارل بوبر

- مدخل

1 - المبحث الأول : كارل بوبر والاتجاهات الفلسفية المواكبة له

أ – المطلب الأول : أهم الاتجاهات الفلسفية المعاصرة والموقف النقدي لكارل بوبر منها

ب – المطلب الثاني : موقع كارل بوبر في الفلسفة المعاصرة وأهم عوامل تبلور ثقافته ومذهبه الفلسفي

2 – المبحث الثاني : الابستمولوجيا العامة عند كارل بوبر

أ – المطلب الأول : مشكلة التمييز بين العلم واللاعلم (مبدأ القابلية للتكذيب)

ب – المطلب الثاني: مشكلة الاستقراء

3 – المبحث الثالث : ابستمولوجيا العلوم الاجتماعية عند كارل بوبر

أ – المطلب الأول: تحديد مفهوم العلوم الاجتماعية

ب – المطلب الثاني: وحدة المنهج العلمي بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية

- خلاصة

I - المشروع الابستمولوجي لكارل بوبر

مدخل : إن المشروع العام لفلسفة كارل بوبر« العقلانية النقدية » rationalisme critique يتأسس على مجموعة من المفاهيم الابستمولوجية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية ، وقد تبين لنا من خلال القراءة الأولية لبعض أعمال كارل بوبر أن المفاهيم السياسية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالمفاهيم الابستمولوجية ،لذلك ارتأينا أن تكون نقطة انطلاقنا في هذا البحث هي تحليل بعض المفاهيم الابستمولوجية التي يقوم عليها هذا المشروع ، ولكن قبل ذلك يجب أن نحدد موقع كارل بوبر في الفلسفة المعاصرة وذلك انطلاقا من التساؤلات التالية : ماهي أهم التيارات الفكرية والفلسفية المعاصرة ؟ وما موقف كارل بوبر منها ؟ وهل كان تابعا لإحدى المرجعيات الفكرية التي عاصرها أم كانت له مرجعيته الخاصة ؟ وماهي عوامل تبلور ثقافته ومذهبه الفلسفي ؟

1 - المبحث الأول : كارل بوبر والاتجاهات الفلسفية المواكبة له

أ- المطلب الأول: أهم الاتجاهات الفلسفية المعاصرة والموقف النقدي لكارل بوبر منها

لا شك أن الفكر الفلسفي الحديث قد استطاع تجاوز النظرة السكولائية وسلطان الفكر التقليدي وأسس فلسفة قائمة على مرجعية جديدة تتمثل في مرجعية العقل والتجربة وفي هذا المجال يعتبر فرنسيس بيكون Francis Bacon (1561- 1626) ورونيه ديكارت R .Descartes (1596 - 1650) من أعظم العقليات الانقلابية في الفكر الغربي الحديث ، وهما وإن اختلفا في المنهج قد اتفقا في الهدف ، وقد ترتب على ذلك تأسيس تيارين فلسفيين سيطرا على الحياة الفكرية والفلسفية في العصر الحديث وهما التيار التجريبي (التجريبية الكلاسيكية) الذي هيمن هيمنة مطلقة تقريبا على الفلسفة الانجليزية ،هذا التيار الذي وضع أسسه الأولى فرنسيس بيكون الذي جمع بين السياسة والعلم (حلم أفلاطون) وأراد أن يجسد فكرة الملك الفيلسوف ، حيث تقلد عدة مناصب سياسية ، واعتبر الدراسة النظرية سخفا لأن غايتها في ذاتها وهاجم الفلسفة المدرسية التي تفرق بين العلم والتطبيق ودعا إلى فلسفة

تجريبية تنزع إلى النتائج العملية[1] ،أما التيار الثاني فأخذ بمرجعية العقل ويعرف بالعقلانية الكلاسيكية الذي وضع أسسه الأولى الفيلسوف الفرنسي ديكارت ، وهو التيار الذي سيطر على الفلسفة الفرنسية والألمانية ، ومادام موضوعنا يتعلق بالعلاقة بين السياسة والعلم فإنه يمكن الإشارة هنا إلى أن توماس هوبز T.Hobbes (1588 – 1679) يعتبر مؤسسا للفلسفة السياسية الحديثة لأنه تبنى منهجا حديثا ونظرية معرفة حديثة تتطابق مع التطور العلمي المتدفق في القرن السابع عشر في شتى المجالات ، ثم طبق هذا المنهج وهذه النظرية الحديثين على النظرية السياسية والاجتماعية ، أي أن هوبز حاول أن يدرس الدولة وهي مفهوم سياسي دراسة علمية ، وفي هذا التصور الجديد للدولة والعلم السياسي الجديد يظهر جليا أثر الفيزياء الميكانكية لغاليلي G.Gallilée (1569- 1642) ، وفي هذا الصدد يقول توماس هوبز في كتابه المواطن (Le citoyen) مايلي : « أما فيما يتعلق بالمنهج ... يظهر لي أنه لا يمكن أن نعرف شيئا معرفة أفضل إلا باعتبار الأجزاء التي يتكون منها لأنه مثل جهاز الساعة أو آلة أخرى ... ولا نستطيع أن نعرف وظيفة كل جزء إن لم نقم بتفكيك الآلة ... وكذلك فيما يتعلق بالبحث في الدولة »[2] .

وقد حاول الفيلسوف الألماني ايمانويل كانط E.Kant (1724 – 1804) التوفيق بين التيارين في تيار جديد عرف بالمذهب العقلاني النقدي ولكن المعطيات والمتغيرات العلمية الجديدة خاصة على مستوى العلوم الرياضية والفيزيائية والانفجار التقني والتكنولوجي الذي أعقب ذلك في مطلع القرن العشرين ، حيث انعكست آثار تلك التحولات التي طرأت في مجال العلم على المجال الفلسفي فتأسست فلسـفة معاصرة جديدة مختلفة نوعا ما عن الفلسفة السابقة بعدة مميزات أشار إلى بعضها عزمي إسلام في كتابه (اتجاهات في الفلسفة المعاصرة) حيث قال في هذا الموضوع مايلي :« نحن لانكاد نجد لدى أغلب الفلاسفة المعاصرين هذه الأنساق الفكرية الهائلة والمذاهب الفلسفية الضخمة التي نجدها في

[1]- ديورانت وول ، قصة الفلسفة ، ترجمة فتح الله محمد المشعشع ، مكتبة المعارف ، ط 5 ، بيروت ، 1985 ، ص 142 .

[2]- Hobbes thomas, Le citoyen, traduction de Samuel Sorbiére, Flammarion, Paris, 1982, p71.

الفلسفات التقليدية إنما نجد نزعات تحليلية يتوخى أصحابها الاهتمام بالمنهج ويحرصون حرصا شديدا على الوضوح في الفكر والمعنى وكذلك الدقة البالغة في استخدام اللغة وأساليب التعبير »[1] ، وتميزت كذلك حسب مؤرخ الفلسفة البولندي بوشينسكي Bochenski الذي يقول في كتابه (تاريخ الفلسفة المعاصرة في أوروبا) مايلي : « تميز انقضاء القرن التاسع عشر وحلول القرن العشرين بوقوع الفلسفة في أزمة »[2] ولذلك تعرف الفلسفة المعاصرة بفلسفة الأزمات والمقصود بالأزمات هنا أزمة العلوم الرياضية والفيزيائية وأدى هذا إلى البحث خاصة في المشكلات الفلسفية ذات الطابع العلمي التخصصي والمتمثلة في فلسفة العلوم الخاصة مثل فلسفة العلوم الطبيعية وفلسفة الرياضيات وفلسفة المنطـــق وفلسفة اللغة وفلسفة العلوم بصفة عامة وهي الفلسفات التي تتطلب الإلمام بموضوع ومنهج العـــــلم الذي تتخذه موضوعا للفكر الفلسفي النقدي ،ويؤكد هذا أيضا عزمي إسلام حين قال : « إننا لا نكاد نجد واحدا من الفلاسفة المعاصرين إلا وله اهتمام بالتفكير العلمي ولو اخترنا أي فيلسوف معاصر بصورة عشوائية فسوف نجده واحدا من اثنين : إما أنه عالم من العلماء ثم اتجه إلى الفلسفة أو أنه فيلسوف ذو اهتمامات موسعة جدا بالعلم ،فعلى سبيل المثال كل من راســـــل و وايتهيد و فينتجشتاين ... كان عالما في الرياضيات»[3] ،وتميزت الفلسفة المعاصرة أيضا بتعدد تياراتها واتجاهاتها ومن أشهر هذه التيارات الفلسفية المعاصرة ، التيار التحليلي وتيار الوضعية المنطقية والعقلانية التطبيقية والتيار البراجماتي والتيار الفينومنولوجي والتيار الوجودي وتيار التحليل النفسي ، كما عرف التيار الماركسي قوة واستمرارا خاصة مع مدرسة فرانكفورت ممثلة خاصة في أدرنو(1903 – 1969)Adorno و هابرماس Habermas (1929 – 2004) والتي تعرف بالمدرسة النقدية ، حيث قام فلاسفة هذه المدرسة بتحليل نقدي للمجتمع بالاستناد إلى النظرية الماركسية ، وسوف نقوم بعرض تحليلي مختصر لأهم هذه التيارات وسنركز فقط على تيار الفلسفة التحليلية وتيار الوضعية

[1]- إسلام عزمي، اتجاهات في الفلسفة المعاصرة، وكالة المطبوعات، الكويت، 1985، ص 17.

[2] - بوشينسكي أ.م ، تاريخ الفلسفة المعاصرة في أوروبا ترجمة عزت القرني ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت، 1992 ، ص33.

[3] - إسلام عزمي، اتجاهات في الفلسفة المعاصرة، ص24.

المنطقية نظرا لما بينها وبين فلسفة كارل بوبر من نقاط التقاء كثيرة تجعل البعض يعتبر بوبر واحدا من فلاسفة هذه التيارات ، وما يوجد بينها أيضا من نقاط اختلاف عديدة تجعل البعض يعتبر بوبر خصما رسميا لها ، أما التيارات الأخرى وخاصة تيار التحليل النفسي والماركسية والنظرية النقدية فسنعود إليها في المباحث والفصول المقبلة .

ونبدأ دراستنا لهذه التيارات الفلسفية المعاصرة التي واكبها كارل بوبر بتيار الفلسفة التحليلية La philosophie analytique الذي أسسه الانجليزي جورج ادوارد مور G.E.Moore (1873 – 1958) وأرسى دعائمه غوتلوب فريجه G.Frege (1848–1925)وبرتراند راسلB.Russell (1872–1970) ولدفينغ فنتجشتاين L.Wittgenstein (1889- 1951) ،ويقصد بالتحليل من الناحية اللغوية « فك كل ما هو مركب إلى عناصره البسيطة وفي هذا المعنى يقال حل أو حلل العقدة أي فكها فانفكت ويقابله التركيب »[1] ، أما من الناحية الفلسفية فالتحليل يعني رد الموضوع المركب إلى عناصره البسيطة سواء أكان الموضوع الذي نتناوله فكرة مجردة أو قضية من قضايا المنطق أو نظرية من النظريات العلمية أو واقعة من الوقائع الاجتماعية[2] ، ويعرف عبد الرحمن بدوي في موسوعته الفلسفية التيار التحليلي قائلا : « يقصد بهذا اللفظ شكلان من أشكال النزعة التجريبية هما تجريبية أكسفورد التي تدور أبحاثها حول تحليل اللغة العادية ، والوضعية المنطقية أو الوضعية الجديدة التي تهتم أساسا بتحليل اللغة العلمية ، وقد قامت تجريبية أكسفورد تحت تأثير فنتجشتاين ... الذي جعل الغرض من الفلسفة [ايضاح الفكر] وزعم أنه ليس للفلسفة موضوع خاص وإنما مهمتها أن تحقق في كل علم ...هل استعمل اللغة ورموزها استعمالا صحيحا »[3] ، ويبدوا من خلال هذا التعريف أن الأستاذ عبد الرحمن بدوي يعتبر الوضعية المنطقية فرعا من الفلسفة التحليلية ، أما بيتر كونزمان ورفاقه الذين شاركوه في تأليف

[1]- ابن منظور، لسان العرب (المحيط)، تقديم عبدالله العلا يلي ، إعداد وتصنيف يوسف خياط ، دار لبنان العرب ، بيروت ، المجلد الأول ، مادة حلل ، ص 702 .

[2] - صليبا جميل ، المعجم الفلسفي ، الجزء الأول ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1982 ، ص 254.

[3] - بدوي عبد الرحمن، الموسوعة الفلسفية، الجزء الثاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت 1984، ص، ص، 162، 163.

(أطلس الفلسفة) فنجده يقول عن الفلسفة التحليلية : « تتميز الفلسفة التحليلية بإجابتها عن أسئلة أو ردها من خلال إيضاحها للغة التي صيغت فيها هذه الأسئلة من أجل ذلك يصارالى تحليل العبارات المركبة وردها إلى عناصر أكثر سهولة وأكثر تأسيسا ... وتعتبر فلسفة اللغة مجال الفلسفة التحليلية أما أهميتها بالنسبة إلى العلوم الأخرى... فتقوم على تقويم اللغة والمقولات المستخدمة وعلى تحاشي سوء الفهم النابع من اللغة »[1] . ويفهم مما سبق أن الفلسفة التحليلية بصفة عامة هي فلسفة تبحث في العبارات والألفاظ التي يقولها الفلاسفة وتحليلها وهذا ما يعرف في تاريخ الفلسفة بالمنعرج اللساني ، أين حدث تحول حاسم في تاريخ الفكر الفلسفي المعاصر ، وفي طبيعة البحث الفلسفي ومجالاته ، أين كانت الفلسفة تبحث في الوجود والعدم والجوهر والعلل ، وبعدها انتقل مجال البحث في الفلسفة إلى البحث في العبارات وتحليلها ، أي البحث في اللغة وتحليلها باستعمال المنهج التحليلي الذي شاع استعماله بعد قيام الثورة الفلسفية التي جاءت بعد حدوث المنعرج اللغوي الذي أحدثه فلاسفة الفلسفة التحليلية، ولكن لماذا ظهر هذا المذهب الفلسفي ؟

يمكن القول أن هذا المذهب الذي أسسه ادوارد مور كان الغرض منه قطع الطريق أمام انتشار المذهب المثالي في بريطانيا وهذا ما يمكن استخلاصه من قول بوشينسكي : «قد هيأ للحركة الواقعية الجديدة جورج ادوارد مور الذي نشر في عام 1903 مقالته الشهيرة (تفنيد المثالية) وان تأثيره على الفلسفة الانجليزية في القرن العشرين ليبلغ حدا من الأهمية »[2] ، حيث وجه انتقادا شديدا للمثالية التي بدأت تنتشر في بريطانيا ابتداءا من القرن التاسع عشر على يد برادلي F.H.Bradley (1846 – 1924) والذي هو « من أتباع المثالية المطلقة »[3] ، وتنعت فلسفته بأنها « هيغيلية جديدة »[4] ، وانتشرت كذلك على يد الفلاسفة الرومانسيين وهذا ما أبرزهSerge Hutin في كتابه تاريخ الفلسفة الانجليزية

[1] - كونزمان بيتر وآخرون ، أطلس الفلسفة ، ترجمة جورج كتورة ، مكتبة الشرقية ، ط1 ، بيروت 2001 ، ص 219 .

[2]- بوشينسكي أ.م ، تاريخ الفلسفة المعاصرة في أوروبا ،ص71 .

[3]- بدوي عبد الرحمان، الموسوعة الفلسفية، الجزء الأول، ص319.

4-Hutin Serge, La philosophie Anglaise et Américaine, P.U.F. Paris, 1963, p 57.

والأمريـــكية حيـــن قال : « ازدهرت الفلسفة الرومانسية بدءا من القرن الثامن عشر حيث ظهر فلاسفة رومانسيون كثيرون ... وأشهرهم على الإطلاق صامويل تايلور كولردج Coleridge وتوماس كارليلCarlyle »[1] وعن تأثير كولردج (1772 – 1834) قال جون استيوارت ميل واصفا المشهد الثقافي والفلسفي الانجليزي في عصره قائلا : « إن كل انجليزي اليوم هو ضمنيا مشايع لبنثام أو لكولردج »[2] ، ومعنى ذلك أن كولردج كان له تأثير كبير على الثقافة الانجليزية ، فهو ليس شاعرا فحسب بل هو فيلسوف وعالم دين يكتب تحت التأثير الأفلاطوني لكمبردج وكانط وفي هذا يقول Serge Hutin: « نستطيع القول أن بسببه تبلورت الكانطية وأصبحت نقطة اهتمام المفكرين البريطانيين »[3] وهنا يمكننا القول إجمالا أنه ابتداءا من القرن الثامن عشر ارتسم رد فعل فكري عنيف ضد الفكر العقلاني والمادي في نفس الوقت ويمثله المفكرون الذين يتغنون بالحياة والروح والغيب وهو الأمر الذي دفع ادوارد مور وغيره من الفلاسفة التحليلين في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين إلى محاولة قطع الطريق أمام الاتجاه المثالي والرومانسي وإحياء الاتجاه التجريبي وضخ دماء جديدة في هذا التيار الفلسفي حتى تبقى الثقافة والفلسفة البريطانية محافظة على تقاليدها الفكرية وخصوصيتها التجريبية ، هذا فيما يخص الفلسفة التحليـــلية. « أما الوضعية الجديدة ويطلق عليها أيضا اسم [التجريبية المنطقية] فهي مذهب أطلقه ما يعرف بحلقة فيينا ، ومن ممثلي هذا التيار نشير إلى كل من أشليك وكارناب و فايجل ونويراث ... وهي تفهم الفلسفة على أنها تحليل للغة وترفض الماورائيات ... »[4] ، ونفهم من هذا التعريف أن الوضعية المنطقية Le positivisme logique أو التجريبية المنطقية Empirisme logique أو الوضعية الجديدة Néopositivisme كلها عبارات تدل على ذلك التيار الفلسفي الذي تأسس في فيينا في بداية القرن العشرين الذي كان يهدف إلى تصحيح

[1]-Hutin Serge, Op.cit, p44.

[2] - متس رودولف ، الفلسفة الانجليزية في مائة عام ، الجزء الأول ، ترجمة فؤاد زكريا ، دار النهضة العربية ، القاهرة ،2009، ص 61 .

[3]- Hutin Serge, Op.cit, P 44

[4] - كونزمان بيتر وآخرون ، أطلس الفلسفة ،ص 219 .

وإعادة بناء اللغة الفلسفية على أسس امبريقية ومنطقية وإعادة النظر في العلاقة بين العلم والميتافيزيقا والتمييز بينهما ، وقد تأسست الوضعية المنطقية سنة 1929 على يد الفيلسوف النمساوي موريس أشليك Moritz schlik (1827 – 1936) حيث يقول عبد الرحمان بدوي:«أشلك هو مؤسس دائرة فيينا »[1] ، وهذا ما أكده أيضا برتراند راسل في كتابه حكمة الغرب : « الوضعية المنطقية هي حركة جديدة كان محورها أشليك »[2] ، والذي أضاف قائلا في تعريفه لهذه الحركة الفلسفية الجديدة : « كان هذا المذهب كما يدل اسمه وضعيا في المقام الأول ، فهو يرى أن العلم هو الذي يزودنا بمجموع معارفنا ، وأن الميتافيزيقا بنمطها التقليدي هي ثرثرة لفظية فارغة ، فليس ثمة مايمكن معرفته وراء التجربة »[3] ، وكانت تهدف هذه المدرسة إلى تخليص الفلسفة نهائيا من كل أسباب اللبس والغموض والقضاء على المشكلات الزائفة والمفاهيم الخاوية عن طريق اصطناع منهج التحليل المنطقي ، ولا يكون هذا إلا باستبعاد الأحكام الميتافيزيقية من المعرفة البشرية ، « على أن الحركة الوضعية المنطقية التي بدأت في فيينا لم تستمر في المكان الذي ظهرت فيه ، فقد قتل أشليك في عام 1936 على يد واحد من طلبته ،ووجد بقية أعضاء المدرسة لزاما عليهم أن يستقروا في مكان آخر بسبب القيود التي فرضها الاحتلال النازي ، ولم يمضي وقت طويل حتى رحلوا جميعا إلى أمريكا أو انجلترا وهكذا فان كارناب قد توفي في لوس انجلوس عام 1970 وفايسمان في أكسفورد عام 1959 »[4] ، وإذا بحثنا عن الجذور الفلسفية لمدرسة فيينا ، فإنها تتمثل في أغلبها في المذاهب المعادية للميتافيزيقا ونذكر على رأسها التجريبية الكلاسيكية كما نلمس روح أفكارها في التيار التحليلي المعاصر الذي مثله فريجه وراسل ، أما التأثير الأكبر على مدرسة فيينا فهو الرسالة المنطقية الفلسفية Tractatus logico – philosophicus التي كتبها فنتجشتاين سنة 1921 حيث كانت الدعامة التي اعتمدت عليها

[1]- بدوي عبد الرحمان ، الموسوعة الفلسفية ، الجزء الأول ،ص151 .

[2]- راسل برتراند ، حكمة الغرب ، الجزء الثاني ، ترجمة فؤاد زكريا ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت 1983، ص 224 .

[3] - المرجع نفسه ، ص 224 .

[4] - المرجع نفسه ، ص224 .

في موقفها المناهض للميتافيزيقا ،وهذا ما يؤكده راسل حين قال : « هناك شخصية لها قدر من الأهمية بالنسبة إلى الوضعيين المنطقيين رغم أن صاحبها لم يكن عضوا في حلقة فيينا هي شخصية فنتجشتاين ، فقد كان لنظرياته المنطقية الأولى تأثير كبير على تفكير الوضعيين »[1] ، وذلك لأن فلاسفة الوضعية المنطقية من أمثال أشليك وفيزمان وكارناب انطلقوا في تأسيس الوضعية المنطقية انطلاقا من تدارسهم للرسالة المنطقيـة التي اعتبروها (البيان الوضعي) ، ولكن فنتجشتاين اتهمهم بالفهم الخاطئ للرسالة ودخل في صراع فكري حاد معهم ، وعلى ضوء ما سبق يتضح أن الوضـــعية المنــطقية هي تيار فلسفي أسهم في بلورة أفكاره عدد من الفلاسفة والرياضيين المناطقة وهو تيار يختلف عن العقلانية الكلاسيكية التي هي عقلانية ميتافيزيقية كما يختلف أيضا عن التجريبية الكلاسيكية التي هي تجريبية خالصة حيث يمكن القول أنها التجريبية المنطقية (عقلانية وتجريبية) من نوع خاص ، فهي عقلانية لأنها تستخدم أدوات المنطق والرياضيات وتجريبية لأنها تتأسس على الخبرة كمصدر لمعرفتنا للواقع ، فهي تتميز عن التجريبية الكلاسيكية باستعمالها لمنهج التحليل المنطقي وتدعيمه بالتجربة وتتميز عن العقلانية الكلاسيكية برفضها للميتافيزيقا ، والآن بعد أن تعرفنا على أهم التيارات الفلسفية الحديثة والمعاصرة نتساءل : ما موقف كارل بوبر من هذه التيارات الفلسفية ؟ وهل كان منتميا إلى أحد هذه التيارات ؟

إن تتبع المسار الفكري لكارل بوبر يبين أن بوبر لا ينتمي بأي حال من الأحوال إلى أحد هذه التيارات الفلسفية بل على العكس من ذلك كان ناقدا لها على طول الخط ،حيث مارس بوبر النقد على كل التوجهات العلمية والفلسفيـة والسيـاسيـة القائمـة في عصــره وقبله ،ولنبدأ بالبحث في موقف بوبر من التيارات الفلسفية الحديثة ، حيث ظل بوبر طوال مشواره الفكري رافضا لهذه الاتجاهات كما لاحظت ذلك رونيه بوفريس ، والتي رأت أن كارل بوبر يرى أن تاريخ المعرفة اقتسمه اتجاهان ،الاتجاه العقلاني الذي ارتبط بتيار فكري يمتد من أفلاطون إلى ديكارت واتجاه تجريبي سعى إلى الرهان على معطيـــات الحواس

[1] - راسل برتراند ، حكمة الغرب ، الجزء الثاني ، ص 226 .

والتجربة لصياغة المعرفة ،إلا أن التصورين معا تعرضا للإخفاق ووصلا إلى الباب المسدود ،لذلك لا يمكن إذن مطلقا الدفاع عن وجهة النظر العقلانية أو التجريبية [1] ، حيث يقوم المبدأ الأساسي لنظرية بوبر على التصور التالي : يجب أن نضع موضع اختبار كل ما لدينا من أفكار ، أي لايمكن تأكيد قيمة نظرية ما وتقريرها إلا بعد البرهنة عليها والتجربة سبيلنا لذلك ، وسواء كان الاختبار ايجابيا أو سلبيا فان استفادة الذات تكون مزدوجة وتكسب الرهان في الحالتين [2] : « إذا تم دحض نظريتي فان عدد النظريات التي لاتزال قائمة قد تقلص ، أما إذا صمدت أمام هذا الدحض ، فإنني أكسبتها نوعا من الصلابة »[3] ، أي أن قوة نظرية ما تتجلى أساسا في قابليتها للتكذيب والدحض وليس العكس أي صمودها أمام التجربة كما ظل الاعتقاد سائدا ، وعلى ضوء ما سبق يتضح لنا أنه لا يمكن اعتبار كارل بوبر فيلسوفا عقلانيا من الطراز الكلاسيكي أو فيلسوفا تجريبيا من النوع الكلاسيكي ، هذا عن موقف بوبر من الاتجاهين الرئيسين في الفلسفة الحديثة ، فما موقفه من أهم التيارات الفلسفية المعاصرة وبالتحديد من الاتجاه التحليلي والاتجاه الوضعي المنطقي ؟

هل هناك صلة حقيقية بين كارل بوبر ومدرسة الفلسفة التحليلية ؟

لمعرفة الحقيقة نترك بوبر يجيب عن هذا السؤال بنفسه ، حيث يقول في مقدمة الطبعة الانجليزية (1959) لكتابه منطق الكشف العلمي : « حاولت في مقدمة 1934 ... أن أطرح خوفي إزاء الاتجاه الفلسفي السائد آنذاك ، وأن أطرح وجهة نظري إزاء فلسفة اللغة ومدرسة التحليل اللغوي ، والرعيل الذي تبنى هذا الاتجاه ، وسأطرح عبر هذه المقدمة الجديدة موقفي إزاء الاتجاهين الأساسيين في مدرسة التحليل اللغوي وفق الموقف الراهن لهما ، على أن التحليليين اللغويين - كما كانوا بالأمس - موضع احترامي واهتمامي ، إن هؤلاء الخصوم أعدهم رفاقا وحلفاء ، باعتبارهم الخلف الوحيد الذي حفظ بعض تقاليد

[1] - بوفريس رونيه ، العقلانية النقدية عند كارل بوبر ، ترجمة سعيد بوخليط ، إفريقيا الشرق ، المغرب ، 2009 ، ص56 .

[2] - المرجع نفسه ، ص ، ص 57 ، 58 .

[3] - المرجع نفسه ، ص 58 .

الحكمة العقلية »[1] ، وربما يقصد بوبر بالاتجاه التحليلي الأول اتجاه فريجه و راسل الذي يمثل البعد المنطقي والرياضي في الفلسفة التحليلية ويقصد بالاتجاه الثاني فنتجشتاين الذي يمثل البعد الفلسفي واللغوي فيها ، ويصفهم بالخصوم والحلفاء في آن واحد ، هم خصوم لأنه يختلف معهم في الرأي وفي تحليل الكثير من القضايا الفلسفية ، وهم حلفاء لأنهم يشاركونه نفس الاهتمامات الفلسفية والفكرية ، وهنا نلاحظ مدى احترام بوبر لخصومه من الاتجاه التحليلي ، ويضيف قائلا : « يعتقد التحليليون اللغويون أن ليس هناك مشكلات فلسفية أصلية ، ولو كانت هناك مشكلات فهي جراء الاستخدام اللغوي والدلالات اللغوية ، بينما أعتقد على كل حال أن هناك مشكلة فلسفية واحدة على الأقل تثير اهتمام كل مفكر ، إنها المشكلة الكونية ، مشكلة معرفة العالم ، بما في ذلك معرفة أنفسنا »[2] ، وهنا يبدو الفرق واضحا بين بوبر والفلاسفة التحليليين في موقف كل منهما من الفلسفة ،فإذا كان الفلاسفة التحليليين وعلى رأسهم فنتجشتاين يرون أن التحليل المنطقي للغة يكشف لنا أن القضايا الفلسفية والميتافيزيقية إنما تنشأ عن سوء فهم منطق اللغة لذلك يجب أن يكون الغرض من الفلسفة - حسبهم - هو تحليل اللغة ، أما كارل بوبر فانه لايستبعد الميتافيزيقا بل يرد لها الاعتبار ، ولكنه ينزع عنها صفة العلمية بوضعه لمعيار يميزها عن العلم الامبريقي ، ويرى أن قضايا الفلسفة ليست قضايا خالية من المعنى ، وهذا ما يثبته في حديثه عن جملة من الفلاسفة أمثال طاليس وديكارت معتبرا أن أفكارهم هي التي أضاءت معالم طريق البحث ، ويستعين بتاريخ العلم للقول أن كثيرا من النظريات العلمية قد خرجت من رحم الميتافيزيقا « إن النظرية الذرية لديمقريطس كانت غير قابلة للاختبار و أقرب إلى الميتافيزيقا حتى سنة 1905 تقريبا »[3] ، ومن ثم تبدو الميتافيزيقا مفيدة للأبحاث العلمية اللاحقة لأنها تلعب دورا ايجابيا في البحث بل هي محرك البحث « الفلسفة قاضية زماننا »[4] ، ومن هنا

[1] - بوبر كارل ، منطق الكشف العلمي ، ترجمة ماهر عبد القادر محمد ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ص 51

[2] - المصدر نفسه ، ص51 .

[3] - Popper Karl, Conjectures et Réfutation, traduit de l'anglais par Michelle Irène et Marc de Launay, Payot, paris, 1985, p216.

[4] - بوبر كارل ، الحياة بأسرها حلول لمشاكل ، ترجمة بهاء درويش ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ص167 .

يتضح حسب بوبر ضرورة بقائها في نسيج معرفتنا . وهناك نقاط اختلاف أخرى مع فلاسفة التحليل حيث يضيف بوبر قائلا: « يحسب رجال مدرسة التحليل اللغوي أنهم يستخدمون منهجا ، وهو المنهج المتعين والوحيد للفلسفة إلا أنني أعتقد أنهم مخطئون وأن حسبانهم مجانب للصواب ، إن يد الفلاسفة حرة طليقة كغيرهم في طريق البحث عن الحقيقة وليس هناك منهج واحد وفريد للفلسفة »[1] ، ونفهم من هذا أن بوبر يختلف عن فلاسفة التحليل في مسألة المنهج ، فهم يستعملون منهج التحليل اللغوي بينما يلح هو على المنـــــهج النقدي « هناك منهجا يمكن أن نسميه بأنه المنهج الوحيد للفلسفة ، لكنه ليس وقفا على الفلسفة وحدها ، بل هو أيضا المنهج الوحيد لكل درس عقلي ، هو منهج العلوم الطبيعية ، كما هو منهج الفلسفة كذلك ، والمنهج الذي أتوفر عليه هو : وضع المشكلة بوضوح وفحص حلولها المتنوعة نقديا »[2] ، ومن خلال ما سبق يتضح أن علاقة كارل بوبر بالاتجاه التحليلي هي علاقة صداقة وحوار واحترام متبادل خاصة مع راسل وليست علاقة انتماء ، مع الإشارة هنا إلى أن علاقته مع فنتجشتاين كانت متوترة نوعا ما لأسباب لا داعي إلى الخوض فيها في هذا البحث.

هل توجد صلة حقيقية بين كارل بوبر والوضعية المنطقية ؟

لقد حاول بعض الدارسين ومنهم فيكتور كرافت Victor Kraft (وهو من أقطاب الوضعية المنطقية) تصنيف كارل بوبر ضمن التيار الوضعي المنطقي حيث يقول : « لا يمكن النظر إلى كارل بوبر على أنه من خارج حلقة فيينا »[3] ، ويبرر موقفه هذا بأن بوبر نشـــر كتابـه الأســاسـي (منطق الكشف العلمي) ضمن حلقـة فيينا [4] ، ولأن كارل بوبر قرأ جيدا كتاب كارناب Carnap (الإعراب المنطقي واللغة) وعلق عليه بقوله « من وجهة

[1] - بوبر كارل ، منطق الكشف العلمي ، ص52 .

[2] -المصدر نفسه ، ص 52.

[3] - المصدر نفسه ، ص17.

[4] - المصدر نفسه ، ص17.

النظر الفلسفية اعتبر هذا المؤلف بداية لثورة حقيقية »[1] ، وكذلك لأن كارل بوبر في مؤلفه (تخمينات وتفنيدات) conjectures et réfutations يثبت العلاقة بينه وبين حلقة فيينا بذكرها عدة مرات في مواضع متعددة إلى حد أن جعل عنوان فصله الثاني (التمييز بين العلم والميتافيزيقا) [2] ،وهي من أهم القضايا الفلسفية التي اهتمت بها الوضعية المنطقية ، وكذلك لأن بوبر كان على صلة شخصية بالعديد من أعضاء حلقة فيينا خاصة كارناب وفايجل وفيسمان وجودل وكرافت نفسه ، وقضى صيف 1932 مع كارناب وفايجل في منطقة Otz Vally ودارت بينهم مناقشات طويلة [3] ، كما أنه شارك في الكثير من المؤتمرات الفلسفية التي نظمتها حلقة فيينا [4] ، ولكن يبدو أن هذه الفكرة التي يعرضها كرافت عن كارل بوبر خاطئة تماما ، وذلك نظرا لنقاط الاختلاف الكثيرة بين بوبر وأعضاء حلقة فيينا خاصة حول معيار التمييز بين العلم و اللاعلم والموقف من الميتافيزيقا والموقف من الاستقراء وغيرها من المشكلات الفلسفية ، ولأن بوبر نفسه نفى نفيا قاطعا انتماءه إلى هذه المدرسة وصرح بأنه لم يكن أبدا عضوا من أعضاء (حلقة فيينا) وإنما كان ناقدا ومعارضا لمختلف أطروحاتها ، وعلى هذا الأساس كان نيورات Neurath Otto يلقبه بالمعارض الرسمي للمدرسة[5] ، وفي هذا يقول بوبر : « جادلت ضد كل صور الوضعية في فيينا وفي عام 1934 نشرت كتابي منطق الكشف العلمي ، وكان هذا الكتاب نقدا للوضعية ... وأنا أبعد ما أكون عن الوضعية »[6] ، ويقول أيضا : « محاربة الوضعية المنطقية كان بلا جدال أحد اهتماماتي الأساسية »[7] ، ولاشك أن هؤلاء هم الذين قصدهم بوبر أيضا في مقدمة الطبعة

---

[1] **بوبر كارل ،منطق الكشف العلمي ،المصدر السابق، ص 18.**

[2] **- المصدر نفسه، ص18.**

[3] **- المصدر نفسه، ص18.**

[4] **-المصدر نفسه، ص 18.**

5 - Popper Karl , conjectures et réfutations , la croissance du savoir scientifique ;traduit de l'anglais par Michelle – Irène et Marc B de Launay , Payot , paris , 1985 , p396 .

[6] **- بوبر كارل ، بحثا عن عالم أفضل ، ترجمة أحمد مستجير ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1999 ، ص 116.**

[7] **- Popper Karl, conjectures et réfutations, Op.cit, p 49**

الانجليزية لكتابه منطق الكشف العلمي سنة 1959 عندما قال : « أولئك الذين يريدون دراسة لغة العلم وتبنوا منهجا فلسفيا هو صياغة لغة مثالية اصطناعية وسعوا إلى صب تصوراتهم عن لغة العلم في نماذج مثالية مصطنعة ... واختاروا [تحليل لغة العلم] موضوعا لتحليلهم اللغوي... ولكن لسوء الحظ ليست هناك لغة للعلم ، ومن هنا اضطروا إلى صياغة لغة من عندهم ... هذه النظرية من وجهة نظري توفرت على سلبيات كثيرة ... لأنهم أغفلوا الإشكـــــاليات الأكثر إثارة في نظـــرية المعرفة »[1] ،وهكذا يبدوا أن كارل بوبر أراد أن يتجاوز المنعطف اللغوي للوضعية المنطقية لأنه يرى أن وظيفة الفلسفة ليست هي توضيح الألفاظ والعبارات ودراسة لغة العلم « أنا لأرى أن الفلسفة هي الألغاز اللغوية ... ولا يجوز أن يكون هدفنا هو تحليل المعاني وإنما البحث عن حقائق مثيرة وهامة أي عن نظريات حقيقية »[2] ، وهذا ما دفع بالباحث الجزائري بغورة الزواوي إلى القول : « إن فلسفة كارل بوبر في مجملها ، سواء تلك المتعلقة بفلســـفة العلوم أو بفلسفة اللغة ، هي فلسفة نقدية ومناهضة للتيار الوضعي والتحليلي على السواء »[3] ، ومعنى ذلك أن فلسفة بوبر بخصائصها النقدية شكلت أحد الملامح الأساسية في نقد المنعطف اللغوي في شكله الوضعي المنطقي والتحليلي الفلسفي وكان لها الأثر الكبير في تجاوز الأطروحات الوضعية حول اللغة والفلسفة ، وعلى هذا الأساس يمكن القول أن علاقة كارل بوبر بالوضعية المنطقية هي علاقة تأثير وتأثر وصداقة لا انتماء .

وعلى ضوء ما سبق نستنتج أن كارل بوبر لا ينتمي إلى العقلانية الكلاسيكية ولا إلى التجريبية الكلاسيكية أو التجريبية المعاصرة (الوضعية المنطقية والاتجاه التحليلي) ، وإنما حاول أن يتجاوز الجميع ، فإلى أي حد يمكن اعتباره فيلسوفا مجددا في المجال الابستمولوجي والمجال السياسي ؟ .

---

[1] - بوبر كارل ، منطق الكشف العلمي ،ص، ص 57 ، 58 .

[2] - بوبر كارل ، بحثا عن عالم أفضل ،ص،ص 216، 217 .

[3] - بغورة الزواوي ، الفلسفة واللغة : نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ،ط1 ، 2005 ، ص 92 .

ب – المطلب الثاني : موقع كارل بوبر في الفلسفة المعاصرة وأهم عوامل تبلور ثقافته ومذهبه الفلسفي

لقد سعى بوبر في فلسفته إلى التخلص من المرجعية الكلاسيكية سواء أكانت عقلانية أو تجريبية وحاول إحداث قطيعة كبرى معها ، لأن هذه المرجعية أخفقت في مهمتها وأسس مرجعية جديدة (العقلانية النقدية) ، وهي عقلانية لأنها مثل الفلسفة الكانطية تعطي للعقل دورا لا محدودا في الوصول إلى المعرفة وتبريرها ، وبالنسبة لبوبر كما بالنسبة لكانط فان العقل يمثل الوحدة الأساسية للإنسانية وفي هذا يقول بوبر : « لست على الإطلاق رائدا لطريق جديد ، أو مناد باتجاه جديد في الفلسفة كغيري من زملائي الفلاسفة ولكني على العكس تماما فيلسوف يحمل اتجاها قديما تماما ، فيلسوف يعتقد في فلسفة قديمة ومسبوقة ، فلسفة عصر مضى عصر العقلانية والتنوير ،فمن حيث أنني أمثل آخر فلاسفة العقلانية والتنوير ... مثل كانط آخر فلاسفة التنوير العظام »[1] ،ونلاحظ هنا أن بوبر يعتبر نفسه فيلسوفا تنويريا ،ونفهم كذلك أن مشروع فلسفة بوبر (العقلانية النقدية) هو امتداد وإتمام للفلسفة الكانطية ، ويعرف كارل بوبر هذه العقلانية قائلا : « عندما أتحدث عن العقلانية ، لا أعني بها نظرية فلسفية مثل نظرية ديكارت أو الاعتقاد اللامعقول بأن الإنسان جوهر عقلي محض ، ما أعنيه عندما أتحدث عن العقل أو العقلانية سوى الاقتناع بأننا نستطيع التعلم عن طريق نقد أخطائنا ، بصفة خاصة نقد الغير لنا ونقدنا لأنفسنا ... فما نؤكد عليه هنا هو فكرة النقد أو بالتحديد المناقشة النقدية »[2] ، وهنا نلاحظ أن بوبر لايعرف العقلانية على أنها نقيض للتجريبية كما قد يتوهم البعض ، بل هو يستخدم مصطلح العقلانية كنقيض لمصطلح اللاعقلانية اللانقدية المنغلقة والدوغمائية ، ومن أشهر أشكال اللاعقلانية الحركة الرومانسية التي وقف ضدها ووجه لها نقدا شديدا «أرى في فلسفة الحركة الرومانسية وبصفة خاصة في فلسفة الرواد الثلاث الكبار للمثالية الألمانية فخته وشلينج وهيغل سوى أنها كارثة أخلاقية

[1] - بوبر كارل ، الحياة بأسرها حلول لمشاكل،ص 166 .

[2] -المصدر نفسه ، ص168.

وفكرية ابتلي بها العقل الألماني والأوروبي »[1] وهو هنا ينتقد الحركة الرومانسية ويعتبرها لا عقلانية لأنها كانت ترى في التنوير رمزا للقمامة ، ويضيف بوبر قائلا في توضيح عقلانيته : « يمكن التعبير عن وجهة النظر العقلانية على النحو التالي : قد لأكون على حق ، وقد تكون على حق ، ولكن يمكننا معا أن نأمل في الوصول – بعد مناقشة تقوم بيننا – إلى توضيح للأمر أكثر مما كان عليه قبل المناقشة »[2] ، وهنا يعطي بوبر لعقلانيته ميزة خاصة هي الاعتراف بالتنوع والاختلاف وانفتاح العقل على الحوار و النقد والتسامح ، وهي عقلانية نقدية لأنه بالنسبة لبوبر لا يوجد أي مصدر حاسم للمعرفة ، انه فقط باكتشاف وإقصاء الأخطاء تصبح المعرفة ممكنة ، وهذا ما أشارت إليه رونيه بوفريس في تحليلها لفلسفة كارل بوبر قائلة : « إن مهمة فلسفة العلوم عند بوبر هي تجاوز مختلف أشكال الدوغمائية والسعي إلى معالجة الإشكال الكانطي : كيف يمكننا تمييز الخطاب العلمي عن آخر غير علمي »[3] ، ومن مميزات العقلانية لبوبر رفض الماهوية التي يعتقد بوبر أن أصولها النظرية ترتبط أساسا بفكر أرسطو ، وفي هذا يقول بيتر كونزمان : « اشتهر بوبر بشكل خاص بفضل أعماله على نظرية العلم ، ... وهو يرفض بالمقابل التصور الذي يعتقد أن على العلم أن يدرك ماهيات معينة في الأشياء ، ويرى أن الفلسفة الماهوية هي المسؤولة عن التأخر الذي أصاب العلوم الاجتماعية بالقياس مع العلوم الفيزيائية »[4] ، ومن خصائص الخطاب الفلسفي العقلاني النقدي أيضا رفض بوبر للاستقراء ، حيث اعتبره أسطورة ولا يمكن أن يكون محققا وفي هذا يقول كونزمان أيضا : « في كتابه منطق الكشف العلمي ، عالج بوبر مسألة الاستقراء رافضا مع هيوم إمكانية استنتاج قانون ما حتى ولو تم الانطلاق من عدد مرتفع من الحالات الخاصة فالاستنتاج الاستقرائي ليس ملزما من الناحية

[1] - بوبر كارل ،الحياة بأسرها حلول لمشاكل ،ص 167.

[2] - المصدر نفسه، ص 169.

[3] - بوفريس رونيه ، العقلانية النقدية عند كارل بوبر ،ص 76 .

[4] - كونزمان بيتر وآخرون ، أطلس الفلسفة ، ص 235 .

المنطـقيـة »[1] ، واشتهر كارل بوبر في نظريته للمعرفة بفكرة العوالم الثلاث التي لخصها كونزمان في قوله : « يميز بوبر بين عوالم ثلاث يتكون الأول من الواقع الفيزيائي أما الثاني فهو عالم وعينا ، أما مركبات العالم الثالث الأساسية فهي المسائل والنظريات »[2] ، كما دافع كارل بوبر في مختلف كتاباته عن المجتمع المفتوح ، لأنه هو الإطار المناسب الذي يمكن أن ينتعش ويزدهر فيه الفكر النقدي لانتفاء شروط الاستبداد السياسي فيه ولأنه يوفر الشروط الحضارية والتاريخية والمعرفية التي تسمح بتطور المعرفة ، أما الاستبداد فهو المناخ المضاد لذلك لأن المستبدين يحطمون العلم ويعيقون تطوره، وهذا ما لاحظه كونزمان أيضا وقال بشأنه : « أما الفضاء الذي بداخله يجري الفحص النقدي لكل هذه الافتراضات فليس له من مجال معطى بحسب بوبر إلا المجتمع المفتوح ، والمجتمع هذا هو ديمقراطية تضمن الأمان والحرية على حد سواء ، وتتهدد بالنزعات الكليانية التي رأى بوبر أنها تتجسد بأنبياء كذبة أمثال هيغل وماركس وأفـــلاطون ، أما بالنـسبة للمجتمع المفتـوح فان بوبر يذكرنا ببيركليس »[3] ،كما تميزت فلسفة كارل بوبر بالموسوعية لذلك كان برنامجه الفلسفي متنوعا من ميتودولوجيا العلوم إلى فلسفة المعرفة وفلسفة العلوم الاجتماعية والفيزياء والبيولوجيا وتاريخ الفلسفة والسياسة والأخلاق والفن ، حيث كان يتحرك على أرضية فكرية وثقافية واسعة ومتينة مجادلا أفلاطون وهيغل وماركس وفنتجشتاين وهيوم وكانط وغيرهم مفندا لأفكارهم ومحاولا تجاوز الجميع لتأسيس مدرسة فلسفية جديدة ، هذا عن الخصائص العامة لفلسفة كارل بوبر وعقلانيته النقدية التي تحدد موقعه في خارطة الفلسفة المعاصرة ، فماذا عن عوامل تبلور ثقافته ومذهبه الفلسفي ؟

بدأ المسار الفكري والسياسي لكارل بوبر خريف 1919 حين كان عضوا في أحد الأحزاب اليسارية في النمسا ، حيث وقع في فخ الاشتراكية ، ويعتبر هذا التاريخ نقطة تحول كبرى في تطور ثقافة هذا الفيلسوف الشاب ، حيث تعتبر التجربة السياسية الاشتراكية التي

[1] - كونزمان بيتر ،أطلس الفلسفة ، ص 235.

[2] - المرجع نفسه، ص 235.

[3] - المرجع نفسه، ص235.

مر بها إضافة إلى الثورة العلمية التي أحدثها ألبرت أنشطـــــاين Einstein الأساس الذي بنيت عليه فلسفته (تجربة سياسية + ثورة علمية) وفي هذا يقول بوبر : « إن الحادث الذي جعلني انقلب ضد الاشتراكية وأنفر منها تماما ، وهو أمر هام جدا في حياتي ، لقد كان ذلك بعد عيد ميلادي 17 ، حين اندلعت في فيينا أحداث ومظاهرات تم خلالها إطلاق النار على شباب ماركسي غير مسلح مدفوع من طرف الشيوعيين ، حاول خلالها مساعدة بعض المحتجزين الشيوعيين في محافظة الشرطة بفيينا ، حيث قتل عدة شباب وعمال اشتراكيين وشيوعيين ، لقد أرعبت وصدمت بوحشية الشرطة ، وبدا لي بالنسبة لي أيضا باعتباري كنت ماركسيا أتحمل جزءا من المسؤولية في هذه التراجيديا »[1] وهنا يلفت كارل بوبر انتباهنا إلى أنه استخلص من هذا الحادث نتيجتين هما : إن هــذا الحــادث جعله على وعــي بمـا حــدث « الشيوعية اعتقاد خطير لا يقبل النقد ودوغمائي »[2] ، ومن جهة أخرى « وعيه القول بأن العلم لا يبرر نظرية تعطي الأولوية للوسائل على حساب الغايات »[3] ، وهو هنا يقصد ما يسمى بالاشتراكية العلمية ، أما عن الأثر الذي أحدثته الثورة العلمية لأنشطاين في تفكير كارل بوبر - كما يرى جان بودوان – حيث كان لظهور الفكر الانشطايني ونظرية النسبية أثره الكبير على بوبر لأنه جعل منه النموذج النظري والموضوعي المقابل لماركس حيث نقل بودوان عن بوبر في كتابه La quête inachevée قوله : « كان لفكر أنشطاين تأثير كبير على تفكيري الخاص لمدة طويلة أكثر التأثيرات أهمية »[4] ، حيث اكتشف بوبر موقفا يختلف تماما عن دوغمائية ماركس وفرويد وآدلر وأتباعهم ، إن أنشطاين وأبحاثه الحاسمة والنتـائج التي توصل إليـها في نظـريـاته تتنــاقض تماما مع ما يدعيه هـؤلاء [5] ،

[1]- Popper Karl, La quête inachevée, autobiographie intellectuelle, Payot, paris p52- 53.

[2]- Ibid, p 53.

[3]-Ibid, p 59 .

[4]-Baudouin Jean, Karl Popper, que sais -je, PUF, paris, 1989, p 7.

[5]-Ibid, p8.

« وبذلك خرجت في نهاية سنة 1919 بنتيجة مفادها أن الموقف العلمي هو موقف نقدي »[1] ، ومن هنا جند بوبر نفسه لنقد الماركسية والفاشية والاهتمام بفلسفة العلم ، هذا العلم الذي يتوافق بدرجة عالية مع العقلانية ، ومن هنا بدأ بوبر مناقشته لأعضاء حلقة فيينا (الوضعية المنطقية) والتي كانت حافزا له لتأسيس مشروع ابستمولوجي جديد يختلف تماما عن المشروع الابستمولوجي للوضعية المنطقية ، حيث بحث في المسائل المنطقية و السيكولوجية للاستقراء التي أثارها هيوم ، وأكد بوبر على الاختلاف الأساسي الموجود بين مبدأ التحقق ومبدأ التكذيب ووصل إلى اعتقاد مفاده أن مبدأ التكذيب وحده هو أساس تطور المعرفة وتنوعها وتأكيدها [2] ، وقد عرض بوبر الأطروحة الأساسية للابستمولوجيا التكذيبية في كتابه الرئيسي (منطق الكشف العلمي) ، حيث عبر فيه عن موقفه الابستمولوجي الأولي المختلف تماما عن موقف الوضعية المنطقية ، كما أخذ بوبر عن ألفرد تارسكي Tarski مفهوم الحقيقة ، والذي رأى أنه لايمكن إطلاقا الوصول إلى الحقيقة على أساس اليقين ، لأن اليقين الوحيد هو الخطأ[3] ، وبإلمام وتأثر من داروين Darwin يرى بوبر أن النشاط المعرفي هو عملية من طراز بيولوجي ، هذه العملية تعمل دائما وفق مبدأ المحاولة والخطأ ، وبتعبير آخر إن اختيار النظريات العلمية يتم وفق طريقة الانتخاب الطبيعي في الأنواع الحية (البقاء للأصلح)[4] ، ويقصد بذلك الصراع بين النظريات ، وهنا نلاحظ أن بوبر رغم أنه لا يعترف بعلمية التفسير الداروينى لتطور الكائنات الحية باعتباره نظرية غير قابلة للتكذيب إلا أنه يوظف منهجيتها في تفسير تطور العملية المعرفية [5] ، وبذلك يمكن القول أن كارل بوبر هو مؤسس (ابستمولوجيا الانتخاب الطبيعي) ، كما تأثر بوبر بالتراث اليوناني القديم حيث أشاد بشكل مستمر بسقراط ولا أدريته ومقولته المشهورة

[1]- **Boudouin jean, Op.Cit, p8.**

[2]- **Ibid, p 8.**

[3]- **Ibid, p 9.**

[4]- **Ibid, p 10.**

[5]- **Ruellend jacques g, de l'épistémologie à la politique puf, paris, 1 édition, 1991, p 114.**

« أعرف أني لا أعرف شيئا » حيث جعلها شعارا اختزل وبسط به مفهومه للمعرفة واعتبره – أي سقراط - رائدا ومبشرا للعقلانية النقدية ، كما كان بوبر يميل إلى المدارس اليونانية التي تدعوا إلى التغيير والديمقراطية مثل المدرسة الأيونية التي أسسها طاليس المالطي لأنها تقوم على التقاليد النقدية ، وفي هذا يحدد بوبر ظهور أول علامات للاتجاه النقدي الذي يعكس حرية الفكر بانتقادات أنكسمندريس Anaximandre التي وجهها إلى أستاذه طاليس Thalès وهو حكيم مشهور ، وقد أشاد بوبر بهذا الموقف التاريخي متصورا طاليس أول معلم في التاريخ يقول لتلميذه (هذا هو مذهبي ، وعلى هذا النحو أرى الأمر حاول أن تطور ما أقول)[1] ، ولذلك كان شعار بوبر « من خلال المناقشة النقدية ينشأ العلم »[2] ، وكان بوبر على العكس من ذلك يمقت المدارس اليونانية التي تدعوا إلى الثبات والانغلاق مثل المدرسة الفيثاغورية ، وفي هذا يقول : « إن فيثاغورس هو الجد الأكبر لكل الدجالين »[3] ، وهكذا نرى مدى ميل بوبر إلى الاتجاهات الفلسفية النقدية ومعارضته للاتجاهات الفلسفية الدوغمائية ، وهذا يبين ما للنقد – في نظر بوبر – من أهمية في تطور المعرفة والعلم و الإنسان والمجتمع ، وبالتالي يعتقد بوبر أن أفكارنا ماهي إلا مجموعة من الحوارات النقدية التي تعتمد على اللغة التي يعتبرها أداة ضرورية تعبر عن أصالة الإنسان وتميزه عن الحيوان ، ويتمثل هذا التميز في قدرته على التعبير لذلك يرى بوبر أن اللغة هي أهم المميزات والإبداعات الإنسانية ، لأن وجود هذه اللغة الوصفية والتصورية هو الذي أدى إلى وجود العلم واللغة هي التي تسمح لنل بنقد العنف والتعبير عن السلام وغيرهما ، وفي هذا يقول : « إن ابتكار اللغة البشرية ... قد مكننا من خطوة أخرى إلى الأمام من ابتـكار جديد : ابتكار النقد ... وليس ثمة معرفة دون نقد عقلي »[4] ، وتعليقا على ذلك يقول الزواوي بغورة : « نستطيع أن نميز في نظرية بوبر اللغوية جانبين أساسيين ، جانب نقدي موجه بطريقة

---

[1] - بوبر كارل ، الحياة بأسرها حلول لمشاكل ، ص 174 .

[2] - المصدر نفسه ، ص 44 .

[3] - بوبر كارل ، المجتمع المفتوح وأعداؤه ، ترجمة السيد نفادي ، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ، ط1 ، 1998 ، ص25

[4] - بوبر كارل ، بحثا عن عالم أفضل ، ص 35 .

مباشرة أو غير مباشرة للوضعية المنطقية والفلسفة التحليلية ، وجانب بنائي يتعلق بنظريته في اللغة اعتبرها بمثابة البديل لحل المشكلات اللغوية التي طرحها المنعطف اللغوي التحليلي »[1] .

هذه إذن هي أهم العوامل التي ساهمت في تبلور ثقافة ومذهب كارل بوبر الفلسفي (العقلانية النقدية) ، وبالتالي يمكن القول إن المشروع العام للفلسفة البوبرية هو مشروع فلسفي جديد تأثر بالمسار الأنشطايني والثورة العلمية الجديدة والتيارات الفلسفية النقدية القديمة والحديثة وخاصة نقدية كانط ، ومن جهة أخرى تأثر بالظروف السياسية التي عرفها العالم خاصة في النصف الأول من القرن العشرين ، حيث عاصر بوبر حربين عالميتين وبعدهما الحرب الباردة وما جرى خلالها من أحداث جعلته فيلسوف يجمع بين العلم والسياسة ، وسنرى من خلال المباحث والفصول المقبلة كيف أراد كارل بوبر أن يطبق مبادئه العلمية والابستمولوجية على الفكر والنشاط السياسي ؟

[1] - بغورة الزواوي ، نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة ، ص 95 .

2 – المبحث الثاني : الابستمولوجيا العامة عند كارل بوبر

أ – المطلب الأول : مشكلة التمييز بين العلم واللاعلم (مبدأ القابلية للتكذيب)

متى تكون نظرية ما علمية ؟ يجيب الفلاسفة التجريبيون وفلاسفة التحليل والوضعية المنطقية جوابا بديهيا عن هذا السؤال : عندما تطابق الواقع ، ويتم التحقق منها بواسطة التجربة ، وهو جواب صحيح إلى حد بعيد مادام الواقع الذي يحاوره العلم من خلال التجريب هو موضوع وهدف النظريات العلمية ، ومعنى ذلك أن صلاحية النظرية العلمية تكمن في اجتيازها الناجح لاختبار التحقق التجريبي ، ولكن بأي معنى يتم التحقق من النظريات العلمية ؟ وهل هذا التحقق ممكن في جميع الأحوال ؟ وماهي حدود التحقق إذا سلمنا أن التعميم الذي يميز القوانين التي توحدها النظرية قائم على استـــقراءات ناقصة ؟

كرونولوجيا ، تعتبر مشكلة إمكانية التمييز بين النظريات العلمية وغيرها ، أي البحث عن معيار للتمييز أول مشكلة ابستمولوجية كانت محل اهتمام كارل بوبر ، هذه المسألة يعتبرها بوبر مسألة أساسية في مشروعه الابستمولوجي « بدأ عملي في الفلسفة منذ خريف 1919 حينما كان أول صراع لي مع المشكلة التالية : متى تصنف النظرية على أنها علمية ؟ وهل هناك معيار يحدد الطبيعة أو المنزلة العلمية لنظرية ما ؟ ولم تكن مسألة متى تكون النظرية صادقة قد أقلقتني آنذاك ؟ ولا متى تكون مقبولة ؟ كانت مشكلتي شأنا مخالفا إذ أردت أن أميز بين العلم والعلم الزائف (شبه العلم) وأنا على تمام الإدراك أن العلم يخطئ كثيرا »[1] ، ومن هنا نفهم أن مشكلة التمييز كانت من بين الاهتمامات الأساسية التي كرس لها كارل بوبر فكره ، وذلك نتيجة التطورات والتعديلات التي شهدها العلم مع بداية مطلع القرن العشرين ، إذ ظهرت نظريات جديدة أثير حولها الكثير من الجدل مثل نظرية النسبية لأنشطاين في الفيزياء والنظرية الماركسية في التاريخ ، ونظرية فرويد وآدلر في التحليل النفسي ونظرية داروين حول تطور الكائنات الحية وغيرها ، وقد درس بوبر هذه النظريات في مرحلة مبكرة من حياته وحاول أن يقارن بينها من أجل التمييز بين النظريات العلمية

[1]- Popper Karl, Conjectures et réfutations, Op.Cit, p, p, 59, 60.

والنظريات اللاعلمية ، ولكن ماهو المعيار الذي اعتمد عليه بوبر في التمييز بين العلم واللاعلم ؟

يعتقد كارل بوبر أن ما يميز النظرية العلمية التجريبية عن غيرها من النظريات غير العلمية هو قابليتها للتكذيب والتفنيد ، أي أن المعيار الذي اعتمده بوبر واعتبره فيصلا بين العلم واللاعلم هو معيار أو مبدأ القابلية للتكذيب ، فماذا يعني بوبر بهذا المعيار ؟

يستعمل بوبر مصطلحين متداخلين إلى حد ما لا بد من توضيح الفرق الأساسي بينهما وهما التكذيب (في الفرنسية : Falsification ، وفي الانجليزية : Falsification) وإمكان التكذيب (في الفرنسية : Falsifiabilite ، وفي الانجليزية : Falsifiability) وفي هذا يقول بوبر : « يجب علينا أن نميز بوضوح بين قابلية التكذيب والتكذيب ، لقد سبق أن قدمنا قابلية التكذيب كمعيار للخاصية الامبريقية لنسق من القضايا ، أما بالنسبة للتكذيب يجب علينا أن نقدم قواعد خاصة تحدد لنا تحت أي الشروط ننظر للنسق على أنه مكذب »[1] ، وهذا ما أراد أن يوضحه لخضر مذبوح في قوله : « يستعمل بوبر مصطلح القابلية للتكذيب كمعيار يشير إلى الخاصية الامبريقية لنسق من القضايا العلمية أو لقضية واحدة ، ويستعمل مصطلح التكذيب عند الإشارة للقواعد التي يجب اتخاذها لتعيين شروط تكذيب هذا النسق »[2] ، ومعنى ذلك أن بوبر يستعمل مصطلح التكذيب كمنهج للعلم وإمكان التكذيب كمعيار للعلم ، فالتكذيب يشير إلى القواعد الواجب الالتزام بها لتحديد شروط تأسيس النظرية العلمية ، أما إمكان التكذيب فهو معيار يميز الخاصية التجريبية للقضايا العلمية ، وتسمي رونيه بوفريس معيار القابلية للتكذيب بمعيار القابلية للخطأ[3] ، وما يهمنا في هذا الموضوع هو إمكان التكذيب كمعيار للتمييز بين العلم والعلم الزائف ،حيث يرى بوبر أن معيار علمية النظرية هو قابليتها للتكذيب أو التفنيد ، ويرى بوبر أنه يمكن أن نطلق على معيار القابلية

[1] - كارل بوبر ، منطق الكشف العلمي ،ص 125 .

[2] - بغورة الزواوي وآخرون ، مدخل جديد إلى فلسفة العلوم ،(مقالة : كارل بوبر ومشكلة المعرفة الاستقرائية ، مذبوح لخضر) ، مطبوعات جامعة منتوري ، قسنطينة ، ص 134 .

[3] - بوفريس رونيه ، العقلانية النقدية عند كارل بوبر ، ص 87 .

للتكذيب أيضا معيار القابلية للاختبار ،لأن قابلية النظرية للتكذيب معناه أنه يمكن اختبارها بشكل دائم من أجل تجاوز العيوب الموجودة فيها ، وهذا يدل على انفتاح النظرية العلمية ونسبيتها أما النظرية التي تدعي أنها يقينية وقطعية ولا عيوب فيها فهي مبدئيا غير قابلة للاختبار،« لن أستطيع الزعم بأن نظريتي لها خاصية النظرية التجريبية ، إلا إذا كنت أستطيع أن أقول كيف يمكن تفنيد نظريتي أو تكذيبها ، وهذا المعيار للتمييز ... قد أطلقت عليه معيار القابلية للتكذيب أو معيار القابلية للتفنيد ، وليس معنى هذا أن النظريات غير القابلة للتفنيد كاذبة ولا أنها فارغة من المعنى ،غير أنه يتضمن أن نظرية معينة تعد خارج مجال العلم التجريبي عندما لا أستطيع وصف كيف يمكن تفنيد نظريتي ، ومعيار القابلية للتكذيب يمكن أيضا أن نطلق عليه معيار القابلية للاختبار »[1] ، وهنا يتضح الفرق بين الهدف الذي كانت تسعى إليه الوضعية المنطقية في تمييزها بين العلم واللاعلم والذي يتمثل في التمييز بين العلم والميتافيزيقا ، بينما يهدف بوبر من وراء ذلك إلى تمييز العلم عن أشباه العلم مثل الماركسية والتحليل النفسي ، وهنا نلاحظ أيضا أن بوبر قلب معادلة التجربة والنظرية ، فبعدما كانت التجربة تستعمل من أجل التحقق من النظرية وصدقها فإنها أصبحت تستعمل للتفنيد والتكذيب باعتبار أن توفير ألف حالة لا يثبت النظرية ويمكن بالمقابل حالة نفي واحدة تحسم في القول بكذب النظرية ، وبهذا يكون بوبر قد استبدل مبدأ التحقق بمبدأ القابلية للتكذيب والتفنيد والدحض ، أي أن النظريات العلمية تعرف عن طريق إمكانية تكذيبها تجريبيا حيث يقول بوبر : « تكمن صلاحية النظرية العلمية في قابليتها للتكذيب »[2]، ولكن إذا كانت خاصية النظريات العلمية هو قابليتها للتكذيب ، فإننا نتساءل ماهو الأساس والمبرر الذي بنى عليه بوبر معياره للتمييز بين العلم والعلم الزائف ؟ لقد أسس بوبر معياره هذا على أساس و مبرر منطقي وآخر ابستمولوجي :

[1] - بوبر كارل ، أسطورة الإطار : في دفاع عن العلم والعقلانية ، ترجمة يمنى طرف الخولي ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت 2003 ، ص ، ص ، 115 ، 116 .

[2]- Popper Karl, Conjectures et réfutations, Op.Cit, p 294.

- **الأساس والمبرر المنطقي:** يتلخص مبدأ القابلية للتكذيب عند بوبر في أن كل تعميم علمي (تجريبي) فرضا كان أو نظرية أو نسقا يعتمد استقراءات ناقصة وغير تامة ، فيكون قابلا للتكذيب من حيث المبدأ ، طالما أنه من الممكن منطقيا وجود قضية أو عدة قضايا تجريبية تشذ عن ذلك التعميم أو لا تكون متوافقة معه ، بحيث لو صدقت لاستلزم ذلك كذب التعميم ، وهكذا فعبارة (كل البجع أبيض) الصادقة في حالات كثيرة لا تستبعد منطقيا إمكانية العثور على بجعة سوداء تزيف ذلك التعميم ، وطالما أن النظريات العلمية هي من قبيل التعميمات الكلية ، فلا يمكن منطقيا البرهنة على صحتها ، ولكن يمكن فقط إظهار أنها كاذبة ، وهذا معناه أن كارل بوبر يربط بين مشكلة معيار القابلية للتكذيب ومشكلة أساس الاستقراء ، علما أن بوبر يرفض الاستقراء ، وهي المشكلة التي سنعود إليها في المطلب الموالي .

- **الأساس والمبرر الابستمولوجي :** يبدوا معيار الاختبارية أو التحقق التجريبي الذي اعتمدته التجريبية الكلاسيكية والوضعية المنطقية معيارا مقبولا لولا أن تاريخ العلم يشهد دوما عكس ذلك كما يقول بوبر « إن اختبار النظرية تماما كاختبار جزء من آلة ميكانيكية يعني محاولة تبيين العيب فيها ، وبالتالي فان النظرية التي تعرف مقدما على أنه لا يمكن تبيان العيب فيها أو تفنيدها هي نظرية غير قابلة للاختبار وينبغي أن نتبين بجلاء أن هناك أمثلة عديدة في تاريخ العلم لنظريات تكون غير قابلة للاختبار في مراحل معينة من تطـــــــور العلم لكنها تغدوا قابلة للاختبار في مرحلة لاحقة ، والنظرية الذرية مثال واضح على هذا »[1] ، ونفهم من هذا النص أن تمييز بوبر بين العلم واللاعلم ليس تمييزا منطقيا خالصا يتعلق بتحليل البنية المنطقية لقضايا العلم وقضايا اللاعلم ، بل هو تمييز منهجي ، وهنا نلاحظ الفرق الأساسي بين الهدف الابستمولوجي الذي تطمح إليه الوضعية المنطقية والذي يتمثل في تحديد مفهوم الفلسفة على أنها مجرد تحليل منطقي للغة العلم ، والهدف الابستمولوجي الذي يطمح إليه بوبر من خلال تحديده وتمييزه للعلم التجريبي على أساس تحليل منهجه لا تحليل بنيته المنطقية فقط ، أي أن معيار بوبر هو معيار منهجي أيضا

[1] - بوبركارل ، أسطورة الإطار : في دفاع عن العلم والعقلانية ، ص 116 .

وبالتالي تصبح معه الفلسفة ميتودولوجيا أو منهج للعلم التجريبي ، أي أن وظيفة ومهمة الفلسفة حسب بوبر هي التمييز بين العلم واللاعلم من خلال تحليل المنهج الذي نتعامل به مع النظرية العلمية وليس من خلال بناءها المنطقي فقط ، ولأن معيار بوبر منهجي بالأساس فانه يؤدي إلى حل الكثير من المشكلات الابستمولوجية المتعلقة بالمنهج ، وهنا يرسم بوبر خطا آخر يفصل بين معياره للتمييز ومعيار الوضعية المنطقية الذي هو معيار يهتم بالتحليل المنطقي للنظرية العلمية ، وعلى هذا الأساس لايمكن اعتبار أي نسق نظري نسقا علميا إلا إذا كان قابلا للخضوع لاختبارات تجريبية ، غير أن قابلية التكذيب أو التفنيد وليس قابلية تحقق النسق هي التي ينبغي أن نتخذها معيارا للفصل بين ماهو علمي وما ليس علميا ، وفي هذا يقول بوبر : « الاتفاق بين النظرية والملاحظة لا يعد شيئا ما لم تكن النظرية قابلة للاختبار وما لم يكن الاتفاق قد تم التوصل إليه كنتيجة لمحاولات جادة لاختبار النظرية ، على أن اختبار النظرية يعني محاولة إيجاد نقاط الضعف فيها ، انه يعني محاولة تفنيدها ، وتكون النظرية قابلة للاختبار إذا كانت من حيث المبدأ قابلة للتفنيد »[1] .

وعلى أساس معيار القابلية للتكذيب نفى كارل بوبر صفة العلمية على نظريتي التحليل النفسي والماركسية واعتبرهما نسقين تأويليين ودوغمائيين غير قابلين للتكذيب ، وانطلاقا من هذا المعيار أيضا اعتبر بوبر نظرية النسبية لأنشطاين نظرية علمية مستوفية لشرط القابلية للتكذيب « في صيف عام 1919 بدأ يداخلني شعور بعدم الارتياح لهذه النظريات حول ادعاءها للمنزلة العلمية ، وبدأت أتساءل : لماذا تبدوا هذه النظريات [يقصد التحليل النفسي والماركسية] مختلفة عن النظريات الفيزيائية مثل نظرية نيوتن وبالأخص عن نظرية النسبية ؟ »[2] ، وبعد البحث والدراسة اكتشف بوبر أن هذه النظريات « تشبه الأساطير البدائية أكثر مما تشبه العلم ، وتشبه التنجيم أكثر مما تشبه علم الفلك »[3] ، ومن هنا بدأت رحلة بوبر في ثورته على العلم الزائف خاصة بعدما تأكد من الفرق الواضح بين

[1] - بوبر كارل ، أسطورة الإطار : في دفاع عن العلم والعقلانية ،ص 117.

[2] - Popper Karl , Conjectures et réfutations, Op.Cit, p 61.

[3] -Ibid, p 61.

التحليل النفسي والماركسية من جهة ونظرية انشطاين من جهة أخرى ، وهنا نتساءل كيف يبرر كارل بوبر قوله بأن التحليل النفسي والماركسية ليسا علما ؟ وكيف يبرر قوله بأن نظرية النسبية لأنشطاين علما ؟

يرى بوبر أنه لا يمكن اعتبار نظرية التحليل النفسي لفرو يد Freud وآدلر Adler علما لأنها نظرية غير قابلة للتكذيب إطلاقا ولا تستبعد أية حالة علاجية ، وفي هذا يروي لنا بوبر حادثة وقعت له شخصيا مع آدلر[**مع العلم أنه عمل مساعدا لآدلر]** ، إذ قدم بوبر لآدلر حالة كان يعتقد من خلالها بوبر أن آدلر غير قادر على تحليلها على ضوء نظريته التي ترتكز على تفسير السلوك الإنساني بعقدة النقص ،إلا أن آدلر لم يجد أي صعوبة في تحليلها رغم أنه لم يشاهد الطفل المصاب بهذه الحالة ، فسأله بوبر مندهشا « من أين لك بهذه الثقة وأنت لم تر الطفل ، فأجاب آدلر : لأن لي ألف تجربة بهذا الأمر »[1] ، وهنا لم يتمالك بوبر نفسه وقال لآدلر : « وبهذه الحالة الجديدة إن تجاربك صارت ألف وواحدة »[2] ، وهنا توصل كارل بوبر إلى أن التحليل النفسي علم زائف أو (شبه علم) وليس علما حقيقيا لأنه يؤول السلوك الإنساني وفقا لمصطلحات ومفاهيم ثابتة لا تتطور وللتوضيح أكثر يضرب كارل بوبر مثالا آخر عن سلوكين مختلفين يفسرهما فرويد وآدلر بنفس السهولة « الأول سلوك رجل يدفع بطفل إلى الماء قصد إغراقه والثاني سلوك رجل يضحي بحياته في محاولة لإنقاذ الطفل ، وتبعا لنظرية فرويد يعاني الرجل الأول من الكبت ، بينما الثاني حقق نوعا من التسامي أو الإعلاء ، وكلا الحالتين هي دوافع لا شعورية ، وطبقا لنظرية آدلر فان الرجل الأول يعاني من عقدة النقص التي دفعته إلى إثبات أن لديه الجرأة والشجاعة على ارتكاب جريمة بينما الرجل الثاني يعاني أيضا من نفس العقدة وأراد أن يثبت أن لديه الجرأة والشجاعة على إنقاذ الطفل » [3] ، وهكذا نلاحظ أن النظرية التحليلية النفسية يمكن تطبيقها وتأكيدها دائما ، وهذا يتناقض مع مبدأ القابلية للتكذيب الذي يتأسس عليه العلم حسب

[1]-**Popper Karl, conjectures et réfutation, Op.Cit, p 62.**

[2]-**Ibid, p 62**.

[3] **- مصطفى عادل ، كارل بوبر : مائة عام من التنوير ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط1 ، 2002 ، ص، ص ، 77، 78 .**

بوبر ، وهي نظرية تفسر السلوك الإنساني بإرجاعه إلى الدوافع اللاشعورية ولا تميز بين الشخصيات السوية وغير السوية وتعتقد أن كل الناس يعانون من عقدة أوديب المكبوته في اللاشعور[1] ، وبذلك تصبح هذه النظرية غير قابلة للاختبار وغير قابلة للتكذيب وبالتالي لا يمكن اعتبارها - بأي حال من الأحوال – نظرية علمية ، بل هي علم زائف أو شبه علم ، ولكن مع ذلك لا ينكر كارل بوبر قيمة بعض الأطروحات التحليلية النفسية التي جاء بها فرويد وآدلر مؤكدا خصوصا على وجود اللاوعي ، وهذا قد يلعب دورا كبيرا في تأسيس وصياغة علم سيكولوجي قابل للاختبار والتكذيب[2] ، ولكن بقاء هذه النظرية بالصورة المطروحة يفقدها السمة العلمية[3] . أما بالنسبة للنظرية الماركسية فوضعها مختلف لأن بوبر يعترف بقيمة التحليل الذي قدمه ماركس Marx للمجتمع في القرن التاسع عشر ، أي أن الماركسية كما قدمها ماركس هي نظرية علمية مادامت تترتب عليها تنبؤات قابلة للاختبار التجريبي والتكذيب ، ووقائع التاريخ فندت وكذبت كل تنبؤات ماركس ، ولكن المغرمين بها رفضوا الاعتراف بهذا التكذيب – كما يقتضي ذلك منطق العلم – وبالتالي أصبحت الماركسية على أيدي أنصارها غير قابلة للتكذيب وغير علمية ، وأصبحت عقيدة دوغمائية، لأن أنصارها صمموا على إبقائها واعتبارها التفسير العلمي الوحيد للتاريخ[4] ، وعلى الرغم من اعتراف بوبر بالطابع الإنساني للماركسية أيضا فانه استنكرها وأدانها بشدة واعتبرها خطاب غير علمي ومذهب شمولي ، فهي لا علمية وتشبه التحليل النفسي بكونها مجرد نظرية تأويلية ، وذلك لأن الماركسية نظام منغلق على نفسه ويرفض التعرض للنقد ، وقد وجه كارل بوبر انتقادات شديدة للماركسية في مختلف أعماله انطلاقا من المجتمع المفتوح وأعداؤه إلى بؤس الايديولوجيا وخلاصة القرن والكتاب الخاص بسيرته الذاتية وغيرها ، حيث ظل كارل بوبر يهاجم الماركسية حتى أتت نهايات القرن بتعزيز لموقفه أي بسقوط

[1] - الخولي يمنى طريف ، فلسفة العلم في القرن العشرين ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، 1990 ، ص ، ص ، 365 ، 366 .

[2] - بوفريس رونيه ، العقلانية النقدية عند كارل بوبر ، ص 99 .

[3] - الخولي يمنى طريف ، فلسفة العلم في القرن العشرين ، ص 366 .

[4] - المرجع نفسه ، ص 366 .

وانحلال أكبر دولة اشتراكية فأعفاه ذلك من مواصلة الحرب ضدها[1] ، وسنركز في هذا المقام على نقد كارل بوبر للماركسية في بعدها العلمي فقط أما نقده لها في بعدها السياسي [سنعود إليه عند دراستنا للأساس الفكري للمجتمع المغلق] ، ويتأسس موقف بوبر في نقده للماركسية في بعدها العلمي ومنه الاقتصادي على الخصوص على مايلي : وفقا لنظرية ماركس فان الاشتراكية ستقوم على أنقاذ الرأسمالية ، أي أن ماركس كان ينتظر قيام الثورة في البلدان الصناعية آنذاك ، ولكن التاريخ كذب ذلك لأن الاشتراكية قامت في مجتمعات زراعية كروسيا والصين وكوبا وغيرها من دول العالم الثالث ، وهذا خطأ في تنبؤات ماركس [2] ، وهذا يشكل دحضا لنظرية تدعي أنها علمية ، لأن الاشتراكية لم تقم في مجتمع رأسمالي أو أن الاشتراكية التي تحدث عنها ماركس لم تقم بعد ، حيث كان من المتوقع حسب ماركس هو أن تشهد بريطانيا [وهي أكبر دولة صناعية في القرن التاسع عشر] استفحال الفقر والتوتر الطبقي الذي لا يزول إلا باندلاع الثورة البروليتارية اندلاعا عاجلا غير آجل ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث[3]، هذا عن النظريات اللاعلمية ، فماذا عن النظريات العلمية حسب معيار القابلية للتكذيب الذي يميز بواسطته بوبر بين العلم واللاعلم ؟

نتيجة لهذا المعيار توصل بوبر إلى اعتبار نظريات كبلر ونيوتن وأينشتاين نظريات علمية ، وهنا يرى بوبر أن نظرية أنشتاين هي أفضل النظريات العلمية الحالية ، واعترف بأنها هي التي أوحت له بفلسفته العلمية [كما أشرنا إلى ذلك سابقا] ، واعتبرها من جهة أخرى نظرية نموذجية في تطبيق أطروحاته العلمية والميتودولوجية التي اقترحها ، وقد أجمل الدكتور محمد محمد قاسم أسباب اعتبار كارل بوبر لنظرية النسبية لأنشطاين أفضل نظرية علمية في مايلي :

---

[1] -الخولي يمنى طريف ،فلسفة العلم في القرن العشرين ، ص366.

[2] - عادل مصطفى ،كارل بوبر مائة عام من التنوير ونضرة العقل ، ص 169.

[3] - بوبر كارل ، خلاصة القرن ، ترجمة الزواوي بغورة ولخضر مذبوح ، المجلس الأعلى للثقافة ، مصر ، ط1 ، 2002 ، ص 36 .

1 - انها نظرية في غاية الجسارة ، لأنها تجاوزت نظرية نيوتن التي كانت تعتبر أفضل نظرية علمية آنذاك .

2 – ترى نظرية أنشطا ين نفس ما يراه بوبر ، حيث أن نظرية نيوتن كانت بمثابة اقتراب من الحقيقة رغم أنها كاذبة (وهذا ينطبق أيضا على نظرية نيوتن بالنسبة لنظريتي كبلر وغاليلو ، فهي أيضا اقتراب من الحقيقة رغم كذبها) ، وهذا يعني عند أنشطاين وبوبر معا أن صدق النظرية لا يقرر أنها أصبحت علمية تماما ، بل أن القابلية للتكذيب هي التي تقرر ذلك[1] .

وهكذا تبدوا نظرية انشطاين محققة لآمال بوبر في صدق موقفه عن بناء وتكوين النظرية العلمية ، وبالفعل نلاحظ هنا التقارب بين مفهوم كارل بوبر وأنشتاين للنظرية العلمية ، فإذا كان شعار بوبر (إن النظرية العلمية هي مجرد تقدير تقريبي للحقيقة) فإننا نجد أيضا كما يقول أحمد موساوي: « انه باختفاء الحتمية المطلقة وظهور نظرية النسبية الخاصة على يد ألبرت أنشطاين سنة 1905 والنسبية المعممة سنة 1916 ، تغيرت المفاهيم العلمية والفلسفية السابقة وتأكدت بذلك نسبية المعرفة العلمية ، أي أن كل مرحلة من تطور المعرفة محدودة بمستوى معين من تطور العلم ، وأن النظريات العلمية حتى في أدق العلوم إنما تقدم تفسيرا للمعرفة المبنية على الوسائل المتوفرة في عصرها ، ولا يمكن أن ترقى إلى مستـــوى الحقائق المطلقة »[2] . وخلاصة القول في هذه المسألة أن نظرية النسبية هي نظرية علمية لأنها صمدت أمام التكذيب لحد الآن رغم الاختبارات الكثيرة التي أجريت عليها بغرض تكذيبها ، وبالتالي فهي علمية حتى الآن ، أما الماركسية والفرويدية فإنها ليست علما لأنه لا يمكن إجراء تجارب لتكذيبها فهي محصنة ضد التكذيب بسبب غموضها وبسبب آلياتها المصممة للتملص من الأدلة المضادة لها ولذا فهي غير علمية ، والنظرية الأفضل في

[1]- قاسم محمد قاسم ، كارل بوبر : نظرية المعرفة في ضوء المنهج العلمي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1986 ، ص ، ص ، 206 ، 207 .

[2] - موساوي أحمد ، مكانة المنطق في الفلسفة التحليلية المعاصرة ، سلسلة دراسات منطقية ، الجزء الأول ، معهد المناهج ، الجزائر ، ص 157 .

نظر بوبر هي تلك التي تصمد في التنافس أمام النظريات الأخرى ، وهكذا يتضح التأثير الكبير لنظرية أنشطاين في الفكر البوبري – كما أشرنا إلى ذلك سابقا – ويتضح كذلك أن مبدأ القابلية للتكذيب هو أول وأهم أطروحات بوبر الفلسفية ومحور ومركز فلسفته العلمية حتى أطلق على فلسفته العلمية اسم (الابستمولوجيا التكذيبية) ، هذا عن معيار مشكلة التمييز التي أطلق عليها بوبر اسم (مشكلة كانط) ، فماذا عن مشكلة الاســـتقراء التي أطلق عليها بوبر اسم (مشكلة هيوم) ؟ .

ب – المطلب الثاني : مشكلة الاستقراء عند كارل بوبر

تعتبر مشكلة الاستقراء من أهم المشكلات الأساسية في فلسفة العلم عند كارل بوبر ، وقد أطلق عليها اسم (مشكلة هيوم) « نطلق على مشكلة الاستقراء مشكلة (هيوم) ونطلق على مشكلة التمييز مشكلة (كانط) »[1] ، فما معنى الاستقراء ؟ وما موقف كارل بوبر منه ؟

يعرف جميل صليبا الاستقراء في معجمه الفلسفي بقوله : « الاستقراء في اللغة : التتبع ، من استقرأ الأمر إذا تتبعه لمعرفة أحواله ، وعند المنطقيين هو الحكم على الكلي لثبوت ذلك الحكم في الجزئي »[2] ، وقد استدل صليبا في تعريفه هذا بتعريفات سابقة لبعض الفلاسفة والعلماء المسلمين ومنهم تعريف ابن سينا : « الاستقراء هو الحكم على كلي لوجود ذلك الحكم في جزئيات ذلك الكلي إما كلها وهو الاستقراء التام وإما أكثرها وهو الاستقراء المشهور »[3] ، ومعنى هذا أن الاستقراء نوعان ، استقراء تام واستقراء ناقص ، و يسمى الاستقراء الناقص بالاستقراء الموسع لأنه لاينحصر في الجزئيات التي استقرأت بل يتعداها إلى جزئيات لم تستقرأ ويسمى كذلك بالاستقراء العلمي لأنه هو المعتمد في البحث العلمي ، وهو الذي يعرفه لالاند بقوله : « هو عملية فكرية قوامها الانتقال من عدة قضايا معينة عموما فريدة أو خاصة ... إلى قضية أو عدد أصغر من قضايا أعم ... بحيث تتضمن كل

[1] - بوبر كارل ، منطق الكشف العلمي ، ص 71 .

[2] - صليبا جميل، المعجم الفلسفي، الجزء الأول، ص71.

[3] - المرجع نفسه ، ص ، ص ، 71 ، 72 .

القضايا الخاصة »[1] ، وخلاصة القول بشأن تعريف الاستقراء هو أنه « نوع من الاستدلال ننتقل فيه من مجموعة مقدمات جزئية تمثل حالات إلى قانون عام ، بحيث يصبح هذا القانون قاعدة تنطبق في المستقبل على تلك الحالات التي اختبرت في الماضي كما تنطبق على الحالات المماثلة والتي لم تختبر بعد »[2] ، وباختصار يمكننا القول إن الاستقراء هو الحكم على الكلي بما حكم به على جزئياته ، وهنا تطرح مشكلة عويصة في الفلسفة تعرف بمشكلة الاستقراء ، وتتمثل هذه المشكلة في مدى مشروعية الانتقال من الملاحظات التي تنصب على حالات جزئية محدودة تمت مشاهدتها في الطبيعة أو المخبر إلى قوانين تنطوي على حالات غير محدودة لم تتم ملاحظتها .

تبرير الاستقراء : يرى أنصار الاستقراء من الفلاسفة الكلاسيكيين أمثال بيكون و ج. س . ميل أن الاستقراء ضروري من الناحية المنطقية ويتصف بالكلية واليقين ، ويبررون موقفهم هذا بمبدأ السببية واطراد الحوادث في الطبيعة ، بحيث نلاحظ دائما وبصورة متكررة أن كل تغير في الظواهر الطبيعية لابد له من سبب أوعلة وأن العلة نفسها تحدث المعلول نفسه في الظواهر نفسها ، ومنه نعمم الحكم من ظواهر جزئية على مالم نلاحظه من الظواهر بحيث يمكننا التنبؤ مستقبلا بناءا على ملاحظات جزئية في الماضي والحاضر، وبعد طرح دافيد هيوم لمشكلة الاستقراء وتشكيكه في صحة نتائجه وقوله بعدم وجود ما يضمن أن الظواهر التي تعاقبت على شكل معين في الماضي والحاضر سوف تتتابع على الشكل نفسه بحيث يمكن التنبؤ بها بدقة[3] ،حاول التجريبيون المعاصرون من أتباع الفلسفة التحليلية والوضعية المنطقية تأسيس الاستقراء على فكرة الاحتمال وفي هذا يقول هانز ريشنباخ Hans Reichenbach (1891 – 1953) وهو من أتباع الوضعية المنطقية في كتابه نشأة

[1] - لا لاند أندري ، موسوعة لا لند الفلسفية ، الجزء الثاني ، تعريب خليل أحمد خليل ، منشورات عويدات ، بيروت وباريس ، ط2 ، 2001 ، ص ، ص ، 666 ، 667 .

[2] - تأليف جماعي ، فلسفة النقد ونقد الفلسفة في الفكر العربي والغربي ،(، مقالة : منهج البحث النقدي عند بوبر ، الجالي زكريا منشاوي) ، الجمعية الفلسفية المصرية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط1 ، مايو 2005 . ص 176 .

3 -**Hume David ; enquête sur l'entendement humain, traductions françaises de Philippe folliot, 2002, p, p ,52 ; 53.**

الفلسفة العلمية : « تنتمي دراسة الاستدلال الاستقرائي إلى نظرية الاحتمالات ، وأن كل ما تستطيع الوقائع الملاحظة أن تفعله هو أن تجعل النظرية محتملة أو مرجحة ، ولكنها لا تجعلها ذات يقين مطلق أبدا »[1] ، وكذلك رأى رودولف كارناب وهو من أبرز فلاسفة الوضعية المنطقية أنه لايمكن أبدا أن نعتبر نتيجة الاستقراء يقينية حيث يقول : « لا يتعين أبدا صدق نتيجة استقرائية ... وأقصى ما يمكن قوله هو أنه طبقا للمقدمات المفترضة تكون درجة معينة من الاحتمال »[2] ، وهكذا نجد أن الوضعية المنطقية حاولت إقامة منطق استقرائي احتمالي يتأسس على الانتقال من قضايا خاصة إلى قضايا عامة انتقالا احتماليا وليس انتقالا يقينيا، إذا كان هذا هو مفهوم الاستقراء وموقف الفلاسفة التجريبين في العصر الحديث والمعاصر منه ، فماهو موقف كارل بوبر ؟

موقف كارل بوبر من الاستقراء : إذا كان كارل بوبر قد توصل إلى حل مشكلة التمييز سنة 1919 ، فانه لم يتوصل إلى حل مشكلة الاستقراء إلا سنة 1927 ،هذا ما صرح به في كتابه المعرفة الموضوعية[3] ، ويختلف مدخل بوبر في معالجة نظرية الاستقراء عن المداخل الأخرى التي يتخذها الفلاسفة والمناطقة ، ويتمثل هذا الاختلاف في أن بوبر يضع نقطة انطلاق أساسية يتخذها مدخلا حيويا للموضوع فهو أولا يشير إلى المشكلة ثم يقدم صياغة لها ، ومن خلال تحديد المشكلة وصياغتها يقوم بتحليلها من كافة الجوانب بصورة نقدية ، ثم يستبعدها واحدا تلو الآخر ليتبقى حلا واحدا وتكون المشكلة من خلاله قد اتضحت بكل أبعادها ، وبالفعل بدأ بوبر دراسته لمشكلة الاستقراء سواء في كتابه (منطق الكشف العلمي) أو في كتابه(المعرفة الموضوعية) بتحديد مفهوم الاستـــقراء ، حيث عرفه كمـــايلي : « نسمي الاستدلال استقراءا إذا انتقل من قضايا شخصية (جزئية) تجاه القضايا الكلية »[4] ،

[1] - ريشنباخ هانز ، نشأة الفلسفة العلمية ، ترجمة فؤاد زكريا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط2 ، 1979 ، ص204 .

[2] - كارناب رودولف ، الأسس الفلسفية للفيزياء ، ترجمة السيد نفادي ، دار الثقافة الجديدة ، 2003 ، ص 38 .

3 -Popper Karl, La connaissance objective, traduction de l'anglais par Jean-Jacques Rosat, centre national des lettres, 1991, p76.

[4] - بوبر كارل ، منطق الكشف العلمي ، ص ، ص ، 63 ، 64 .

ثم انتقل بعد ذلك إلى مسألة تبرير الاستدلال الاستقرائي « تبرير استدلال القضايا الكلية من القضايا الشخصية غير لازم من الوجهة المنطقية ، وذلك لأن أي نتيجة نحصل عليها بمقتضى هذه الطريقة قد تصبح كاذبة مثل : مهما كان عدد حالات البجع الأبيض (التي سبق أن لاحظناها) فان ذلك لايبرر النتيجة القائلة (كل البجع أبيض) »[1] ، ثم قام بعد ذلك بصياغة مشكلة الاستقراء في السؤال التالي : « كيف يمكن تأسيس صدق القضايا الكلية ؟... وهل هناك استدلالات يمكن تبريرها منطقيا ؟ »[2] ، ثم يحاول الجواب عن هذا التساؤل متحاورا في ذلك مع دافيد هيوم باعتباره أول فيلسوف في العصر الحديث أثار مشكلة الاستقراء من جهة ، ومع هانز ريشنباخ وهو أحد أتباع الوضعية المنطقية القائلة بفكرة احتمال صدق القضية الكلية انطلاقا من صدق بعض القضايا الجزئية من جهة أخرى ، وهنا نجد أن كارل بوبر يتفق ويختلف مع دافيد هيوم في آن واحد ، فهو يتفق معه في رفض التبرير المنطقي للاستقراء ، ولكن يختلف معه وينتقده بشدة في تحليله السيكولوجي للاستقراء ويرفض فكرة الاحتمال التي قال بها هانز ريشنباخ ، كيف ذلك ؟

من المعلوم أن دافيد هيوم هو أول من طرح مشكلة الاستقراء في الفكر الفلسفي الحديث ، حيث أوضح هيوم هذه المشكلة وأشار إلى أنه من الممكن تماما تصور عكس النتيجة الاستقرائية « مثال ذلك : أنه على الرغم من كل الغربان التي لوحظت حتى الآن سوداء ، ففي استطاعتنا أن نتصور على الأقل أن الغراب التالي الذي سنراه سيكون أبيض ، ونحن لا نؤمن أنه سيكون أبيض مادمنا نركن إلى الاستدلال الاستقرائي »[3] ، فكيف يمكننا تبرير الاستدلال الاستقرائي حسب هيوم ؟ ، يرى هيوم أنه لا يمكن تبرير الاستدلال الاستقرائي منطقيا « لأن الاستدلال الذي نود أن نبرر به الاستقراء هو ذاته استدلال استقرائي إذ أن القول أننا نؤمن بالاستقراء لأن الاستقراء كان ناجحا حتى الآن ، هذا القول

[1] -بوبر كارل ، منطق الكشف العلمي ، ص 64 .

[2] - المصدر نفسه ، ص 64 .

[3] - ريشنباخ هانز ، نشأة الفلسفة العلمية ، ص 86 .

ذاته هو استقراء من نوع (استقراء الغراب) ، وبذلك نكون دائرين في حلقة مفرغة »[1] ، ومعنى ذلك حسب هيوم ، أن التبرير المقدم للاستقراء تم عن طريق الاستقراء نفسه وهذا ما يعرف في المنطق بمغالطة الدور ، ونتيجة نقد هيوم للاستقراء هي القول باستحالة تبريره ، وبذلك فان الأداة التي نستخدمها في التنبؤ تنهار ولا يكون لدينا وسيلة لاستشراق المستقبل « رأينا حتى الآن أن الشمس تشرق كل صباح ، ونحن نعتقد أنها ستشرق غدا ، ولكن ليس لاعتقادنا هذا أساس ، وقد رأينا الماء ينحدر من أعلى إلى أسفل ، ونحن نعتقد أنه سينحدر دائما على هذا النحو ، ولكن ليس لدينا ما يثبت أنه سيفعل ذلك غدا ، ألا يجوز أن تبدأ الأنهار في الجريان من أسفل إلى أعلى غدا ؟ انك قد تقول: لست من الحمق بحيث أعتقد ذلك، ولكن لم كان في هذا الاعتقاد حمق ؟ ستجيب بأن السبب هو أنني لم أر أبدا ماء يجري من أسفل إلى أعلى، وأنني كنت أنجح دائما في تطبيق أمثال هذا الاستقراء من الماضي إلى المستقبل »[2] ، وهنا نقع في المغالطة التي كشفها هيوم ألا وهي إثبات الاستقراء باستخدام الاستدلال الاستقرائي ،« ولكن تحليل هيوم للاستقراء يؤدي إلى الانتقال من التجريبية إلى اللاأدرية »[3] ، لأنه يعلن بشأن المستقبل بفلســفة للجهل تقول : « إن كل ما أعرفه هو أنني لا أعرف أي شيء عن المستقبل »[4] ، ومع ذلك وعلى الرغم من أن هيوم يعلن هذه النتيجة صراحة ويسمي نفسه شكاكا[5] ، فانه حاول حل مشكلة الاستقراء بأن سمى الاعتقاد الاستقرائي عادة سيكولوجية ، ولا شك أن كارل بوبر كما لاحظت ذلك رونيه بوفريس « يقر بصحة القسم السلبي لنظرية هيوم : لا سلسلة متناهية من الملاحظات تمكنني من تأكيد كونية الظاهرة الملاحظة ، ولا يمكنني الانتقال من مثال (ن) (من الإوز أبيض) إلى كل الإوز

[1] - ريشنباخ هانز ، نشأة الفلسفة العلمية ، ص86 .

[2] - المرجع نفسه ، ص 87.

[3] - المرجع نفسه ،ص 87.

[4] - المرجع نفسه، ص 87.

[5] - المرجع نفسه، ص 87.

أبيض »[1] ، ولكنه « لم يقبل النتيجة الايجابية التي يستخلصها هيوم من ذلك : يرتكز الاستقراء على ظاهرة سيكولوجية »[2] ، والخلاصة العامة التي نصل إليها حسب بوبر « لا تصدر معرفتنا من الاستقراء انه مجرد أسطورة »[3] ، هذا عن حوار بوبر مع دافيد هيوم حول مشكلة الاستقراء ، فماذا عن حواره مع هانز ريشنباخ باعتباره ممثلا للوضعية المنطقية ؟ ، لقد كان من نتائج التحولات التي طرأت في المجال العلمي الشك في إمكانية تفسير الظواهر تفسيرا مطلقا لذلك رأى فلاسفة الوضعية المنطقية خاصة كارناب و ريشنباخ إمكانية تفسير الظواهر تفسيرا احتماليا وفي هذا يقول بوبر : « أصبحت قاعدة (الاحتمال) وجهة نظر ذائعة الانتشار رغم أنها ليست صحيحة تماما »[4] ، وهنا يرى بوبر أنه لايمكن حل مسألة الاستقراء بالرجوع إلى الاحتمال « لأنه إذا نسبت درجة معينة من الاحتمال للقضايا المستندة إلى الاستدلال الاستقرائي ، فانه لابد من تبريرها باستحداث مبدأ جديد للاستقراء وهذا المبدأ الجديد لابد من تبريره ، ولن نحصل على شيء إذا نظرنا إلى مبدأ الاستقراء ليس على أنه صادق وإنما على أنه محتمل فحسب ، والنتيجة أن منطق الاستدلال الاحتمالي أو منطق الاحتمال مثله في ذلك كأي صورة أخرى من المنطق الاستقرائي يفضي إلى ارتداد لا نهائي إلى الوراء »[5] ، ومعنى هذا أن بوبر انتهى إلى رفض الاستقراء ورفض ما يرتبط به من مفاهيم تقوم عليه منها (إمكان التحقق) ، ولم يكتف بالرفض فقط بل حاول إعادة صياغة مشكلة الاستقراء حتى يصبح حلها أمرا ممكنا ، حيث أنه بعدما كانت مشكلة الاستقراء تطرح بالصيغة التالية : هل يمكن تبرير صدق القضايا الكلية انطلاقا من صدق القضايا الجزئية ؟ أصبحت مع بوبر مطروحة على الشكل التالي: هل يمكن تبرير صدق أو كذب القضية الكلية انطلاقا من صدق بعض القضايا الجزئية ؟ ، ونفهم من هذا أن مسألة

[1] - بوفريس رونيه ، العقلانية النقدية عند كارل بوبر ، ص 114 .

[2] - المرجع نفسه ، ص 114 .

[3] - المرجع نفسه ، ص 114 .

[4] - بوبر كارل ، منطق الكشف العلمي، ص 66 .

[5] - المصدر نفسه ، ص 66 .

استئصال شأفة النزعة الاستقرائية من فلسفة العلم كانت هي المعركة الكبرى في فلسفة بوبر، وفي هذا الصدد تقول يمنى طريف الخولي في كتابها فلسفة العلم في القرن العشرين : « لو أردنا تلخيص فلسفة كارل بوبر في كلمة واحدة لكانت : ضد الاستقراء أو (اللااستقراء) ، فما من محاضرة يلقيها أو مقالة يكتبها إلا ويؤكد فيها أن الاستقراء خرافة »[1] ، وفي هذا الصدد أيضا يقول ماهر عبد القادر محمد علي في كتابه فلسفة العلوم (المشكلات المعرفية): « يرفض بوبر تأسيس صدق القضايا الكلية على أساس صدق القضايا الجزئية لأن هذا الاستقراء يتطلب منا أن نقوم باستـقراء تام لكل الجزئيات الموجودة في العالم ، وهذا مستحيل »[2] ،ويؤكد ذلك أيضا في كتابه الآخر مشكلات الفلسفة حيث يقول : « يذهب بوبر في اتجاهه الأساسي إلى تأكيد أمرين متصلين ، الأول أنه لايمكننا أن نتحدث عن نوع من التأييد الاستقرائي لفروض ونظريات العلوم الطبيعية ... والثاني إن الخطوات المتبعة في اختبار فروض العـلوم الطبيعية ينبغي تحليلها دون أن نلجأ لاستـــخدام تصـور قابلية التحقق »[3] ، وفي هذا الصدد أيضا يقول زكريا منشاوي الجالي في مقالة بعنوان (منهج البحث النقدي عند كارل بوبر) نشـرها في مجلة مركز الوحـدة العربـية : « يرى بوبر أن من يتحدثون عن مشكلة الاستقراء يخطئون ، إذ أن هذا الكلام غير صحيح وغير موضوعي، إذ أنه لا مشكلة للاستقراء »[4] ، ويردف قائلا : « يرى بوبر أن الاستقراء بمعنى صياغة اعتقاد ما عن طريق التكرار أو العادة عبارة عن محض خرافة »[5] ، ومما سبق نستنتج أن كارل بوبر يرفض الاستقراء شكلا ومضمونا ، أي كمبدأ أو كمنهج وانتقد كل محاولة للبحث عن تبرير للاستقراء ، سواء تلك التي قدمها هيوم الذي اتهمه بالوقوع في التناقض لأنه ادعى عدم وجود إمكانية منطقية لتبرير الاستقراء وفي الوقت نفسه حاول

[1] - الخولي يمنى طريف ، فلسفة العلم في القرن العشرين ، ص 333 .

[2] - علي ماهر عبدالقادر محمد ، فلسفة العلوم : المشكلات المعرفية ، دار النهضة العربية ،بيروت ، 1984 ، ص 43 .

[3] - علي ماهر عبد القادر محمد، مشكلات الفلسفة، دار النهضة العربية، بيروت، 1985، ص 119.

[4] - تأليف جماعي ،، فلسفة النقد ونقد الفلسفة في الفكر العربي والغربي ،(مقالة : منهج البحث النقدي عند كارل بوبر ،الجالي زكريا منشاوي) ، ص 188 .

[5]- المرجع نفسه ، ص 190

تبريره سيكولوجيا وهو بذلك جمع بين نقيضين (الشك والاعتقاد) ، ورفض كارل بوبر وانتقد كذلك محاولا ت الوضعية المنطقية ممثلة في ريشنباخ وكارناب، والتي أرادت تبرير الاستقراء على أساس منطق الاحتمال ، ولكن ماهي النتائج التي ترتبت على رفض بوبر للاستقراء ؟ وماهو البديل الذي يقترحه ؟ إجابة عن هذا السؤال يقول لخضر مذبوح في مقالة بعنوان (كارل بوبر ومشكلة المعرفة الاستقرائية) نشرها في كتاب من تأليف جماعي بعنوان (مدخل جديد إلى فلسفة العلوم) : « إن موقف كارل بوبر الرافض لمنهج الاستقراء قوبل في بداية الأمر بالسخرية والضحك أثناء المؤتمرات العلمية التي كان يحضرها ، كما قوبلت انتقاداته من قبل أعضاء جماعة فيينا بالرفض والعداء من قبل بعضهم وبالاهتمام والتفهم من قبل بعضهم الآخر ، فريشنباخ المدافع عن الاستقراء لم يكتف برفض أفكار بوبر حول الاستقراء بل وصل به الأمر إلى مقاطعته وعدم مصافحته والتحدث معه في مؤتمر براغ سنة 1934 ، أما كارناب فجمعه ببوبر نقاش حاد ومثمر ، وعلى هذا فإن كثير من آراء بوبر تدين لنقاشه مع كارناب ، كما أن كثير من أفــكار كارناب كانت من وحي انتــقادات واقتــراحات كارل بوبـر »[1] ، أما عن البديل الذي يقترحه بوبر كمنهج للمعرفة العلمية عوضا عن الاستقراء فانه كما يقول لخضر مذبوح : « استبدل بوبر منهج الاستقراء ... بمنهج فرضي استنباطي يتناول مشكلة المعرفة تناولا تطوريا ، ويسمى كذلك بمنهج المحاولة والخطأ »[2] ، وفي هذا الصــدد يقـول زكـريا منشاوي الجالي في مقالته المذكورة سابـقا : « بعدما قدم بوبر النقد للمنهج الاستقرائي شرع في تقديم الجانب البنائي ، وذلك الذي يشتمل على تصوره للمنهج العلمي ، والذي يمكن أن يسمى المنهج النقدي في البحث العلمي »[3] ، وقد صاغ بوبر حله لمشكلة الاستقراء في كتابه المعرفة الموضوعية في الصورة الرمزية التالية :

---

[1] - بغورة الزواوي ، مخل جديد إلى فلسفة العلوم (مقالة : كارل بوبر ومشكلة المعرفة الاستقرائية ، مذبوح لخضر) ، ص ، ص، 139 ، 140 .

[2] - المرجع نفسه ، ص 140 .

[3] - تأليف جماعي ، فلسفة النقد ونقد الفلسفة في الفكر العربي والغربي (مقالة : منهج البحث النقدي عند كارل بوبر ،الجالي زكريا منشاوي) ، ص192 .

$$P1 \rightarrow T\ T \rightarrow E\ E \rightarrow P2.$$[1]

والتي يمكن تعريبها كالتالي: م1 ← ح ← خ ← م2 والتي يمكن شرحها أيضا كالتالي:

P1 : Premier problème (مشكلة أولى)

T T : Une tentative Théorie (حل مؤقت)

E E : Elimination des erreurs (استبعاد الأخطاء)

P2 : Nouvelle problème (مشكلة جديدة)

وهذا يعني أن المشكلة رقم 01 تؤدي إلى نظرية مؤقتة ، وهي تؤدي بدورها إلى محاولة استبعاد الخطأ ، ثم للمشكلة رقم 02 ، والتي تتطلب الحل وهكذا ، وهذا معناه أيضا أن كل حل لمشكلة ما يؤدي بالضرورة إلى طرح مشكلة جديدة ، وبصفة عامة يشير هذا الرسم البياني إلى المنهج التطوري للمعرفة الذي يقترحه بوبر كبديل للاستقراء ، ونفهم من هذا الرسم البياني الذي وضعه بوبر للمنهج العلمي أن المعرفة لا تنطلق من الملاحظة بل من المشكلات سواء كانت مشكلات علمية أو عملية ، فمصدر الفرضية على هذا هو المشكلة وليس الملاحظة « تنشأ المشكلات من الحياة »[2] ، ونفهم كذلك من هذا الرسم البياني أن تصحيح الخطأ يشكل أهم عنصر في المنهج العلمي ، لأنه مهما كانت نتيجة الاختبار ، فلا بد أن العالم قد تعلم منها شيئا فإذا نجح الاختبار عرف الباحث الكثير ، عرف أن حله هو الأكثر ملائمة أما إذا نجح النقد وفند النظرية ، فانه يعرف لما أخطأ فيلم بالمشكلة أكثر .

وبعد هذه الجولة المنهجية والابستمولوجية مع كارل بوبر ننتقل الآن إلى تقديم دراسة ابستمولوجية لمشكلة العلوم الاجتماعية والتي تمثل أيضا إحدى المشكلات الأساسية في فلسفة كارل بوبر باعتبارها نقطة التقاء السياسة بالعلم .

---

[1]- **Popper Karl, La connaissance objective, Op.Cit, p 427.**

[2] **- بوبر كارل ، الحياة بأسرها حلول لمشاكل ، ص 267 .**

3– المبحث الثالث: ابستمولوجيا العلوم الاجتماعية

أ – المطلب الأول: مفهوم العلوم الاجتماعية والهدف منها

إذا كانت العلوم الاجتماعية هي نقطة الاتصال والالتقاء بين العلم والسياسة في فلسفة كارل بوبر [كما أشرنا إلى ذلك في المقدمة]، فإنها دون شك تحتل مكانة أساسية في النسق الفلسفي البوبري باعتبارها جزءا من المشكلة الابستمولوجية من جهة، وباعتبارها متعلقة بالمجال السياسي من جهة أخرى [وهو المجال الذي سنعود إليه في الفصل الموالي]، وسنكتفي في هذا المبحث بدراسة الشق الأول من هذه المشكلة أي الشق الابستمولوجي، والسؤال الأساسي الذي يطرح نفسه هنا هو : ما مدى علمية العلوم الاجتماعية ؟ ولكن هذا السؤال المحوري تترتب علية أسئلة فرعية كثيرة منها : ماهي العلوم الاجتماعية ؟ وماهو الهدف منها ؟ وماهي الخصوصيات التي تتميز بها ؟ وماهو المنهج المناسب لها ؟

إن أول مشكلة تصادفنا هنا هو ذلك الالتباس والتداخل الموجود بين مفهوم العلوم الاجتماعية (Sciences sociales) و مفهوم العلوم الإنسانية (Sciences humaines)، فمثلا نجد الفرنسي أندري لالاند يعرفهما بتعريفين مختلفين ، حيث يعرف العلوم الإنسانية قائلا : « هي علوم تختص بدراسة تصرف البشر وسلوكهم فرديا أو جماعيا »[1] ، بينما يعرف العلوم الاجتماعية بقوله « هو مصطلح واسع جدا لا يقال فقط على علم الاجتماع (Sociologie) بل يقال على كل العلوم المتعلقة بالمجتمع كالاقتصاد والتاريخ والجغرافيا البشرية ...الخ »[2] ، ويفهم من هذا أن العلوم الإنسانية والاجتماعية هي مجموع العلوم التي تدرس الإنسان داخل المجتمع ، بحيث لا يمكن تصور إنسان لوحده ولا مجتمع دون بشر، و أن مصطلح العلوم الاجتماعية يطلق على أي نوع من الدراسة تهتم بالإنسان والمجتمع .

[1] - لالاند أندري ، موسوعة لالند ، الجزء الثالث ، ص 1254 .

[2] - المرجع نفسه ، ص 1300

وأمام هذا التداخل الكبير بين المصطلحين ومفهومهما فضلت استخدام مصطلح **العلوم الاجتماعية** ،لأن جميع الترجمات لأعمال كارل بوبر سواء كانت العربية منها أو الفرنسية تستعمل هذا المصطلح .

وانطلاقا من المفهوم السابق وتعليقا عليه يمكن أن نحدد الخصائص التالية للعلوم الاجتماعية : - العلوم الاجتماعية هي من أكثر المجالات العلمية حداثة ، وهي التي يختص بها الباحثون والعلماء لتطوير المعرفة في مجالات التاريخ والجغرافيا البشرية والسياسة والاقتصاد والاجتماع والانثروبولوجيا وغيرها ، و إذا كان هذا هو المفهوم والهدف العام للعلوم الاجتماعية ، فماهو مفهومها وهدفها حسب كارل بوبر ؟

من المعلوم أن كارل بوبر [كما أشرنا إلى ذلك في المبحث الأول] ليس فيلسوفا ماهويا ، بل هو على العكس من ذلك فيلسوف لا ماهوي (Anti-essentialisme) ، أي لا يهتم بتقديم تعريفات بالماهية للمفاهيم التي يبحث فيها لأن ذلك يتناقض مع مبادئه الفلسفية، فهو لايرى مهمة العلم هي البحث عن ماهيات الأشياء ووصفها عن طريق تعريفات ثابتة ، لذلك كان عادة ما يكتفي بتقديم تعريفات وظيفية تساعد على توضيح المشكلة التي يبحث فيها ويرفض إعطاء تعريف بالماهية للعلوم الاجتماعية ، وهذا يحتم علينا عرض المشكلة بطريقة أخرى ، أي يجب أن ننظر إلى تقييم العلوم الاجتماعية من حيث هدفها ، وعليه فماهي المهمة الأساسية للعلوم الاجتماعية حسب بوبر ؟

نظرا لتلك الأسباب التي ذكرناها سابقا والمتعلقة خصوصا بلا ماهوية بوبر ، فان مهمة العلوم الاجتماعية لا يجب أن تعود إلى تلك الأسئلة من نوع : ما هي الأسرة ؟ وما هي الأمة ؟ وما هي الدولــة ؟ وما هو المجتمع ؟ ، لأن محاولة تعريفنا ودراستنا لهذه الظواهر انطلاقا من هذه الأسئلة يؤدي بنا إلى السقوط في فخ الماهوية، حيث يرى بوبر أنه ليس من المستحيل التعرف على العنصر المشترك لمجالات مختلفة كعلم الاجتمـاع والاقتصاد والسياسة وغيرها وفي هذا يقول : « إن الهدف الأساسي للعلوم الاجتماعية هو تفسيـر الآثار

والنتـائـج التي تترتـب على أفعالنا »[1] ، ويردف قائلا : « إن الهدف الأسمى للعلوم الاجتماعية هو دراسة المؤسسات الاجتمـــاعية (مثل مؤسسة الأمن وشركات التأمين والمؤسسات التربوية والحكومة) والجمـــاعات الاجتماعية (مثل الدول والأمم والطبقات الاجتماعية ومختلف المجموعـات الاجتماعية) »[2] ، وعليه فالعلوم الاجتماعية تدرس ظواهر من نوع خاص يختلف نوعا ما عن الظواهر الفيزيائية ، وهدفها هو دراسة كيفية ظهور هذه الظواهر وتطورها وأبعادها وكيف تؤدي إلى نتائج متوقعة أو غير متوقعة .

ب ـ المطلب الثاني : منهج العلوم الاجتماعية (وحدة المنهج)

إذا كان كارل بوبر في كتابه (المجتمع المفتوح وأعداؤه) هاجم الخطر الذي تشكله فلسفة المذهـب التاريـــخي (Historicisme) على المجتمعـات فإن النقد لهذا المذهب في كتابه (بؤس الايديولوجيا) يأخذ بعدا مختلفا حيث ركز فيه على نوعية المنهج المتبع من طرف هذا المذهب في دراسة المجتمع ، حيث انتقد كارل بوبر المنهجية التي تصل إلى أحكام خاطئة حسبه « إن الاعتقاد بالمصير التاريخي مجرد خرافة ، وأنه لايمكن التنبؤ بمجرى التـاريخ الإنسـاني بطـريقـة من الطـرق العلميـــة أو العقليـــة »[3] ، وهو يقصد بذلك منهج العلوم الاجتماعية الذي يقوم على التنبؤ التاريخي كهدف أساسي له والذي يرى أن هذا الهدف يكشف لنا القوانين والاتجاهات التي تسير التطور الاجتماعي ، وهذا عين الخطأ في نظر بوبر، حيث يعرف كارل بوبر المذهب التاريخي في كتابه بؤس الإيديولوجيا كما يلي : « أقصد بهذه العبارة [أي المذهب التاريخي] طريقة في معالجة العلوم الاجتماعية تفترض أن التنبؤ التاريخي هو غايتها الرئيسة ، كما تفترض إمكان الوصول إلى هذه الغاية بالكشف عن القوانين والاتجاهات التي يسير التطور التاريخي وفقها »[4] ، ونفهم من هذا أن بوبر

---

[1]-Popper Karl, Conjectures et réfutations, OP.Cit. , p 188.

[2]-Ibid, p 190.

[3] - بوبر كارل ، بؤس الايديولوجيا ، ترجمة عبد الحميد صبرة ، دار الساقي ، بيروت ، ط1 ، 1992 ، ص5 .

[4] - المصدر نفسه، ص 13.

يقصد بالمذهب التاريخي تلك الاتجاهات التي ترى أن التاريخ مثل مجرى الماء في النهر يمكن أن نتوقع أين يجري الماء ، حيث يرد كارل بوبر على هؤلاء ويرى أن مهمة العلوم الاجتماعية ليست هي التنبؤ بالمستقبل وبالتطور الاجتماعي على غرار العلوم الطبيعية وعلم الفلك وفي هذا يقول: « لا أعتقد أن التنبؤ التاريخي من مهام العلوم الاجتماعية »[1] ، وهنا يعطينا بوبر مثالا حيا من العلوم الاقتصادية : « لنفرض مثلا التنبؤ بأن سعر الأسهم سوف يأخذ في الارتفاع مدى ثلاثة أيام ثم يهبط بعدها ، فمن الواضح أن كل من له صلة بالسوق سوف يبيع أسهمه في اليوم الثالث ، وذلك يتسبب في هبوط الأسعار ويكذب التنبؤ ... وعليه فان التنبؤات الاجتماعية العلمية الدقيقة هي إذن مستحيلة »[2] ، وهذا الموقف يشبه موقف بوبر الرافض للاستقراء والتعميم في العلوم الطبيعية والفيزيائية [كما أشرنا إلى ذلك في المطلب الثاني من المبحث الثاني] .

وقد صنف كارل بوبر أنصار المذهب التاريخي إلى صنفين : « نستطيع أن نصنف المدارس الفكرية التي عنيت بالنظر في مناهج العلوم الاجتماعية إلى مدرستين : الأولى مؤيدة للمذهب الطبيعي ، والأخرى معارضة له »[3] ، ويقصد بالمذهب الطبيعي ما يعرف بأصحاب النزعة الوضعية الذين يرون أن منهج العلوم الطبيعية يمكن تطبيقه على العلوم الاجتماعية، ويقصد بالاتجاه اللاطبيعي ما يعرف بأصحاب النزعة التأملية والذين يفكرون بطريقة معاكسة للفئة الأولى ويعتقدون أنه لا يمكن تطبيق منهج العلوم الطبيعية على العلوم الاجتماعية من أجل الوصول إلى قوانين على غرار القوانين الطبيعية، ورغم التعارض والاختلاف الظاهر بين الطرفين حول عدة مسائل متعلقة بالعلوم الاجتماعية ،فإن كلا النظريتين تتأسس على منهج خاطئ وغير موثوق في نظر بوبر وينتقدهما معا قائلا : « إن الآراء والحجج المختلفة سواء منها ما كان معارضا للمذهب الطبيعي أو مؤيدا له هي

[1] - بوبر كارل ، بؤس الايديولوجيا ،ص 24.

[2] - المصدر نفسه، ص 25.

[3] - المصدر نفسه، ص 12 .

حجـج وآراء تقـوم على فهم خاطـئ لمناهج العلوم الطبيعية »[1]، ويحمل كارل بوبر أنصار منهج المذهب التاريخي المسؤولية على الحالة السيئة للعلوم الاجتماعية النظرية لأنها اعتقدت بوجود قانون للتاريخ ، ومعنى ذلك أن بوبر يركز في نقده هنا على الجانب المنهجي أما النقد السياسي لهذا المذهب فسنعود إليه في الفصل المقبل ، وأمام هذا الوضع السيئ للعلوم الاجتماعية من الناحية المنهجية ، ماهو المنهج الذي يقترحه بوبر للعلوم الاجتماعية ؟ وماهي مميزات هذا المنهج ؟

تعتبر أطروحة (وحدة المنهج) بين العلوم من أهم الأطروحات الابستمولوجية والميتودولوجية التي ظل بوبر يدافع عنها ، أي أن العلوم الاجتماعية يجب أن تطبق نفس المنهج الذي اقترحه للعلوم الطبيعية أي منهج (المحاولة والخطأ) لأنه لا يوجد على العموم فرق بينهما « تنطلق العلوم الطبيعية - مثلها في ذلك مثل العلوم الاجتماعية - دائما من مشكلات ... ولحل مثل هذه المشكلات فان العلوم الطبيعية تستخدم نفس المنهج الذي يستخدمه العقل البشري السليم ألا وهو منهج (المحاولة والخطأ)، ... هذا المنهج يفترض أن هناك حلولا كثيرة ، يتم اختبار كل منها ومن ثم استبعاده إذا ثبت خطئه . ويبدوا أن هذا المنهج المنطقي الوحيد الممكن ، إذ أنه المنهج الذي تستخدمه حتى أدنى الكائنات العضوية ألا وهو الأميبا ذات الخلية الواحدة في محاولتها لحل مشكلة من المشكلات »[2] ، وانتقد كارل بوبر بشدة الاتجاه اللاطبيعي أي الاتجاه الذي يرى أن المنهج المطبق في العلوم الطبيعية وعلى الخصوص في الفيزياء لا يمكن تطبيقه في العلوم الاجتماعية وقال في هذا الشأن : « يزعم البعض أن المناهج التي تتميز بها العلوم الطبيعية لايمكن تطبيقها على العلوم الاجتماعية، ويقول هؤلاء إن القوانين الطبيعية هي قوانين صادقة في كل مكان وزمان، ... وينكر هؤلاء أيضا أن يكون لانتظام وقوع الظواهر الاجتماعية ما لنظيره في العالم الطبيعي من طابع ثابت وذلك لأن الظواهر الاجتماعية تتغير بتغير الشروط التاريخية، والفوارق الحضارية...وحججهم الرئيسة... تتعلق بالتعميم والتجريب وتعقد الظواهر الاجتماعية

[1] - بوبر كارل ، بؤس الايديولوجيا ، ص، ص، 12، 13.

[2] - بوبر كارل ، الحياة بأسرها حلول لمشاكل ،ص27 .

وصعوبة التنبؤات الدقيقة... »[1] ، وعلى العكس من ذلك يرى بوبر أنه لا يمكن التمييز بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية من حيث المنهج لأن كلاهما يخضع لنفس عملية التخمين والرفض ، ويجب دائما [كما شرحنا ذلك سابقا] إلغاء النظريات الخاطئة من أجل الاقتراب من الحقيقة، ويبرر بوبر موقفه هذا بإمكانية وصول العلوم الاجتماعية بما وصل إليه علم الاقتصاد ، وهو العلم الذي يعتبره علما نموذجيا في العلوم الاجتماعية من حيث أنه أقلها تأخرا مقارنة مع العلوم الطبيعية ، حيث أشاد بوبر بعلم الاقتصاد ولاحظ أنه أكثر العلوم الاجتماعية تقدما ، وهو دليل على إمكانية وجود قوانين علمية اجتمــاعية مثل : « لا يمكن رفع المداخيل الحقيقية للطبقة النشطة دون الرفع من الإنتاج ... ولا يمكن تحقيق المساواة في المداخيل الحقيقية ورفع الإنتاج في نفس الوقت ... ولا يمكن إتباع سياسة عامة للتشغيل دون أن يحدث تضخم »[2] ، ومما سبق نستخلص أن فكرة وحدة المنهج عند بوبر تعني أن العلوم الاجتماعية يجب أن تتبع نفس الخطوات التي تتبع في العلوم الطبيعية ، وهذا معناه أيضا أن المعرفة حسب بوبر تتطور بنقد النظريات السابقة وتفنيدها ، وهذا ما يجب أن يكون عليه الحال في العلوم الاجتماعية ، والمنهج المفضل – طبعا – بالنسبة لبوبر هو المنهج الفرضي الاستنباطي : « أعتقد ... أننا في كل مرحلة من مراحل البحث العلمي نبدأ دائما بشيء له طبيعة النظرية وذلك كالفرض أو الحكم السابق أو المشكلة - وتكون في غالب الأحيان مشكلة تكنولوجية - وهذه الأشياء هي التي توجه مشاهداتنا على نحو معين... وهذا الأمر واضح جدا في العلوم الاجتماعية منه في العلوم الطبيعية، وذلك لأن معظم الأشياء التي تدرسها العلوم الاجتماعية إن لم تكن كلها أشياء مجردة ونظرية »[3] ، ومع ذلك فإن كارل بوبر رغم وحدوية المنهج التي يدعوا إليها لم ينكر وجود اختلافات بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية ، وهذه الاختلافات في نظره ناتجة عن طبيعة الموضوع الذي تدرسه العلوم الاجتماعية ألا وهو الإنسان الذي لا يمكن اعتباره مجرد مادة مكونة من ذرات، وهذا يطرح صعوبات

[1] - بوبر كارل ، بؤس الايديولوجيا ، ص ، ص ،17،18 .

[2] - Popper Karl, Conjectures et réfutations, OP.Cit, p 499.

[3] - بوبر كارل ، بؤس الايديولوجيا ، ص 139 .

كثيرة مما يجعل العلوم الاجتماعية حسب بعض فلاسفة العلم من الاتجاه اللاطبيعي (التأملي) خاصة تتميز بتعقد وصعوبة التجريب، فإذا كان التجريب ممكنا في الظواهر الطبيعية سواء كان الغرض منه إثبات الفرضية أو تفنيدها ، فان هذا الأمر مستبعد في العلوم الاجتماعية ، وذلك لأن الظواهر الاجتماعية سواء كانت تاريخية أو سيكولوجية أو اقتصادية أو سياسية لا يمكن أن تكون موضوعا للتجربة ، ولكن بوبر يرد على أصحاب هذه الحجة ويرى على العكس من ذلك أن المواقف الاجتماعية كموضوع للعلم أبسط وأقل تعقيدا من المواقف الفيزيائية « الحق أن هناك أسبابا قوية تدعونا إلى الاعتقاد بأن العلوم الاجتماعية أقل تعقيدا من العلوم الطبيعية ، لأن المواقف الاجتماعية أقل تعقيدا من المواقف الفيزيائية ، ذلك أنه يوجد في معظم المواقف الاجتماعية إن لم يكن فيها كلها عنصر عقلي »[1] ، وهذا العنصر العقلي هو النقطة المعلمية التي تسهل العمل للباحث في العلوم الاجتماعية « لأن الناس يكادون لا يعملون قط بما يطابق العقل تمام المطابقة ، ولكنهم يعملون بما يتفق والعقل في كثير أو قليل ، وهذا من شأنه أن يمكننا من ترتيب نماذج بسيطة تمثل أفعالهم وتفاعلاتهم ، وهذه النماذج يمكن استخدامها بوصفها صورا قريبة من الواقع »[2] ، وهنا يقترح بوبر منهجا فرضيا استنباطيا للعلوم الاجتماعية يسميه المنهج الصفري « إننا نستطيع في العلوم الاجتماعية أن نستخدم منهجا يمكن تسميته بمنهج التركيب المنطقي أو العقلي ، وربما أطلقنا عليه أيضا عبارة (المنهج الصفري) Zéro Méthode وأعني بذلك منهج تركيب النماذج بناءا على افتراضنا المعقولية التامة في جانب كل الأفراد الذين يحتويهم موقف معين ، ثم نقدر انحراف السلوك الفعلي لهؤلاء الأفراد عن السلوك النموذج باعتبار هذا الأخير احداثيا قيمته الصفر »[3] ، ونفهم من هذا أن كارل بوبر يدعوا إلى استخدام المنهج الإحصائي الرياضي في العلوم الاجتماعية ليرد بذلك على حجة خصوم العلوم الاجتماعية الذين يتخذون من مشكلة التكميم الرياضي مبررا للتشكيك في علمية العلوم الاجتماعية ، لأن من

[1] - بوبر كارل ، بؤس الايديولوجيا ، ص 144 .

[2] - المصدر نفسه ، ص 144.

[3] - المصدر نفسه، ص145.

مميزات العلوم الطبيعية وخاصة الفيزياء صياغة نتائجها وقوانينها صياغة رياضية كمية تجعل منها علوما دقيقة ، ولكن ذلك غير ممكن في العلوم الاجتماعية ، إلا أن هذا العائق يمكن تجاوزه حسب بوبر : « إن الصعوبات المتعلقة بتطبيق المناهج الكمية، من الممكن التغلب عليها، بتطبيق المناهج الإحصائية،... إذا أردنا مثلا أن نتخذ من معادلات الإقتصاد الرياضي أساسا نعتمد عليه لأننا بدون مثل هذا القياس عاجزون عن تبيين ما إذا كانت بعض الآثار المضادة تفوق ما قدرناه من نتائج ... ففي علم الطبيعة يمكن من حيث المبدأ رد البارومترات الواقعة في المعادلات إلى عدد قليل من الثوابت الطبيعية، وليس الأمر كذلك في الاقتصاد، حيث يكون البارومترات فيها في معظم الحالات الهامة كميات سريعة التغير»[1] .

وعلى ضوء ما سبق يتضح أن الموقف الابستمولوجي لبوبر من العلوم الاجتماعية هو موقف نقدي للمذهب التاريخي الذي يؤكد أن الهدف من العلوم الاجتماعية هو تحديد القوانين الإنسانية وتوجيه النشاط السياسي حسب هذه القوانين ، حيث قام بوبر خاصة في كتابه (بؤس الايديولوجيا) بتحليل وجهة نظر المذهب التاريخي وانتقدها بشدة ، و كشف أن وجهة نظره خاطئة لأنها تتأسس على منهج غير موثوق، واعتبرها خطاب ما ورائي ودعا إلى تأسيس خطاب عقلاني ونقدي للعلوم الاجتماعية لتلعب دورا ايجابيا في المجتمع ، وهذا النقد الابستمولوجي البوبري للعلوم الاجتماعية يندرج تحت إطار الاعتبارات الابستمولوجية العامة من أجل تطوير مفاهيم علمية للعلوم الاجتماعية وتأسيس برنامج منهجي للبحث في العلوم الاجتماعية، وبذلك نكون قد وصلنا إلى نهاية الفصل الأول من بحثنا هذا، والذي نخرج منه بالنتائج التالية :

- إن العقلانية النقدية لكارل بوبر هي مرجعية فلسفية مستقلة عن المرجعيات الفلسفية المعاصرة لها كالمرجعية التحليلية والوضعية المنطقية وغيرها من حيث المفاهيم والمنهج، ولكنها امتداد وإحياء وتجديد للمرجعية العقلانية النقدية لكانط كما يعترف بوبر بذلك شخصيا.

[1] - بوبر كارل ، بؤس الايديولوجيا ، ص، ص، 145، 146.

- إن أساس التمييز بين العلم واللاعلم هو مبدأ القابلية للتكذيب وليس مبدأ التحقق ، لأن الملاحظات مهما كان عددها، ولا أي شيء آخر يمكن أن يبرر نظرية ما، وأن كل النظريات يمكن دحضها.

- منهج التكذيب أوالمحاولة والخطأ هو أساس الكشف العلمي وليس الاستقراء لأن كل حل لمشكلة ما يؤدي إلى طرح مشكلة جديدة، ولأن كل نظرية تستمد قوتها التفسيرية من مدى قدرتها على حل المشكل المطروح ومن عمق المشكلة الجديدة التي تثيرها .

- تخضع العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية إلى منهج واحد هو منهج المحاولة والخطأ .

هذه هي إذن مبادئ المشروع الابستمولوجي لكارل بوبر والتي أسست منهجا جديدا للمعرفة يختلف عن المنهج الامبريقي الذي كان سائدا ومسيطرا على الفكر الابستمولوجي ، حيث أصبحنا نعرف الأشياء مع بوبر بواسطة الدور الذي يلعبه المنهج النقدي في استنتاج نظرية ما من جهة ، وبالعقلانية من جهة أخرى ، فماذا عن المشروع السياسي ؟

الفصل الثاني

II – الفصل الثاني : المشروع السياسي لكارل بوبر

- مدخل

1 - المبحث الأول: المذهب التاريخي والمجتمع المغلق

أ – المطلب الأول: الأساس الفلسفي للمجتمع المغلق (المذهب التاريخي)

ب - المطلب الثاني : خصائص المجتمع المغلق

2 – المبحث الثاني: الفكر النقدي والمجتمع المفتوح

أ – المطلب الأول: الأساس الفلسفي للمجتمع المفتوح (الفكر النقدي)

ب - المطلب الثاني : خصائص المجتمع المفتوح

3 – المبحث الثالث : مفهوم الديمقراطية والحرية والمسؤولية والتسامح عند كارل بوبر

أ – المطلب الأول: مفهوم الديمقراطية والحرية

ب - المطلب الثاني :مفهوم المسؤولية والتسامح

- خلاصة

II– المشروع السياسي لكارل بوبر

مدخل: بعد أن سلطنا الضوء على فلسفة العلم عند كارل بوبر ، ننتقل الآن إلى تقديم « دراسة تحليلية » لآرائه السياسية ، وهنا يمكن اعتبار المجتمع المفتوح نموذجا للعقلانية النقدية في جانبها السياسي ، وتجدر الإشارة هنا إلى أن أهم عمل سياسي يرمز مباشرة إلى كارل بوبر هو (المجتمع المفتوح وأعداؤه) الذي أصدره في جزأين سنة 1945، والذي اعتبره إلى جانب كتابه الآخر (بؤس الايديولوجيا) « مجهـــود حـــربي »[1] لأن الهدف منه كما يقول بوبر : « هو هجوم ضد الشمولية والاستبداد والطغيان بكل أشكالها، سواء كانت يمينية أو يسارية ، والغرض منه المساعدة في الدفاع عن الحرية والديمقراطية »[2] ، هذا ويتأسس المشروع الفلسفي السياسي لكارل بوبر على مجموعة من المفاهيم مثل المجتمع المغلق والتوليتارية والشمولية والمجتمع المفتوح والحرية والديمقراطية والمسؤولية والتسامح ، وسنحاول في هذا الفصل تحليل وتوضيح بعض هذه المفاهيم ، وسنركز خاصة على مفهوم المجتمع المغلق الذي يربطه بوبر بالمذهب التاريخي ومفهوم المجتمع المفتوح الذي يربطه بالفكر النقدي ، ثم نحاول تحديد مفهوم كارل بوبر لبعض المفاهيم السياسية المتداولة مثل الديمقراطية والحرية والمسؤولية والتسامح ، وذلك انطلاقا من التساؤل التالي : ماهي الأطروحة السياسية التي يدافع عنها بوبر ؟

1 – المبحث الأول: المذهب التاريخي والمجتمع المغلق

أ – المطلب الأول: الأساس الفلسفي للمجتمع المغلق (المذهب التاريخي)

كيف ولماذا ربط كارل بوبر بين فلسفة المذهب التاريخي والمجتمع المغلق ؟

بعد أن تعرفنا [في المبحث الثالث من الفصل الأول]على النقد المنهجي الذي وجهه كارل بوبر إلى المذهب التاريخي ، ننتقل الآن إلى البحث في النقد السياسي الذي وجهه بوبر

[1]- **Popper Karl, Laquete inachevée oP.Cit, p 165**

2- Popper Karl , La société ouverte , et ses ennemis , volume I , L'ascendant de Platon ,traduit de l'anglais par ,Jacqueline Bernard et Philippe Monod ,paris , seuil ,1979 , p 8 .

إلى هذا المذهب ، أي أن نقد كارل بوبـر لم يتوقف عند حدود المنهج والمفاهيم في العلوم الاجتماعية ، بل تعداه إلى الحياة السياسية ، حيث اعتبر كارل بوبر المذهب التاريخي مصدرا للأنظمة الشيوعية والفاشية ، ورأى أن ثلاثة من كبار المفكرين والفلاسفة (أفلاطون – هيغل – ماركس) هم ومفاهيمهم التاريخية وضعوا أسس الحركات الشمولية والفاشية والشيوعية وفي هذا الإطار بدأ كتابه (المجتمع المفتوح وأعداؤه) بتقديم تعريف موسع للمذهب التاريخي حيث يقول : « ثمة اعتقاد راسخ الانتشار بأن الميل العلمي أو الفلسفي الحق، يجب أن يعتمد على تأمل وتفسير التاريخ الإنساني ... يرى الفرد بوصفه أداة ليست لها أهمية كبيرة في تاريخ التطور العام للجنس البشري... وأن الممثلين الأساسيين على مسرح التاريخ هم إما الأمم العظيمة وقادتها العظام، أو ربما الطبقات العظيمة أو الأفكار العظيمة، وسيحاول أن يفهم قوانين التطـور التاريـخي، ... وأن يتنبأ بتطورات مستقبلية، ويعطينا نصيحة عملية بإخبارنا أي الأدوار السياسية يحتمل أن تنجح ، وأيها يحتمل أن يخفق، هذا هو الوصف المختصر للاتجاه الذي أدعوه المذهب التاريخي »[1].

ونفهم من هذا - حسب بوبر - أن المجتمع المغلق من الناحية الفلسفية والفكرية يرجع إلى المذهب التاريخي الذي يمثله ثلاثة فلاسفة كبار، وهم أفلاطون وهيغل وماركس الذين لعبوا دورا فعالا وخطيرا في تأسيس قواعد الأنظمة الشمولية والتي يقصد بها طبعا الشيوعية والفاشية التي ازدهرت وانتشرت في نفس الوقت الذي كان يكتب فيه بوبـر كتـابـه الشهيـر (المجتمع المفتوح وأعداؤه)، فهو يحمل المذهب التاريخي أي الفكر الأفلاطوني والهيغيلي والمـاركسي مسؤولية ظهور هذه الأنظمة الشمولية والاستبـدادية، لهذا كان المذهب التاريخي من أبرز الموضوعات الفلسفية التي كانت محل بحث وتحليل ونقد من طرف كارل بوبر، ويتضـح ذلك في قولــه أيضا :« لماذا تؤيد كل هذه الفلسفات الاجتماعية الثورة على الحضارة ؟ وماهو سر انتشارها ؟ ولماذا تجتذب وتغري الكثير جدا من المثقفين ؟ إنني أميل إلى الاعتقاد أن السبب هو أنها تعطي تعبيرا عن شعور عميق بعدم الرضا عن عالم لا يستمر

[1] - بوبر كارل ، المجتمع المفتوح وأعداؤه ، الجزء الأول ، ترجمة السيد نفادي ، دار التنوير للطباعة والنشر ، لبنان ، ط1 ، 1998 ، ص 17 .

ولا يمكنه أن يستمر على مستوى المثل الخلقية، ... إن ميل النزعة التاريخية لدعم الثورة ضد الحضارة ترجع بقدر كبير إلى أن النزعة التاريخية ذاتها ، إنما هي إلى حد كبير ، رد فعل ضد الضغوط التي تفرضها حضارتنا ، وما تفرضه علينا من مسؤولية شخصية »[1]، ويريد كارل بوبر من ذلك أن يكشف عن وجود تقاطع أساسي بين فلسفة المذهب التاريخي والمجتمع المغلق ، فالمذهب التاريخي هو نتيجة أو رد فعل على ضغط التقاليد النقدية ورد فعل على المجتمع المفتوح أو على صدمة (ميلاد الحضارة) ، والمجتمع المغلق هو نتيجة لفلسفة المذهب التاريخي .

في الجزء الأول من كتابه المجتمع المفتوح وأعداؤه الذي خصصه لنقد أفلاطون يرى بوبر أن اكتشاف فكرة تغير العالم وأنه ليس ثابتا من طرف هيرقليطس Héraclite هي التي أثرت إلى حد بعيد على الفلسفة اليونانية فهي التي ألهمت أفلاطون- لكن بصفة عكسية- البحث عن الوحدة والاستقرار والثبات ، وهنا يقول كارل بوبر : « لا يمكن أن نغالي في تقدير عظمة هذا الاكتشاف، فلقد وصف بأنه اكتشاف مروع، ويمكن مقارنة تأثيره بتأثير "زلزال " يبدوا فيه وكأن كل شيء يترنح، ولا يداخلني شك في أن هذا الاكتشاف كان نتيجة التجارب الشخصية المروعة التي عانى منها هيراقليطس من جراء الاضطرابات الاجتماعية والسياسية في عصره، وكان هيراقليطس هو أول فيلسوف يتعامل ليس فقط مع "الطبيعة" وإنما أكثر من ذلك مع المشكلات الأخلاقية والسياسية التي خبرها في عصر الثورة الاجتماعية، وكانت الارستقراطية القبلية اليونانية في عصره هذا قد بدأت تذعن إلى القوة الوليدة للديمقراطية »[2]، وهذا الأمر حسب بوبر يجعل هيراقليطس أول فيلسوف تاريخي كان لأفكاره تأثير كبير في انتشار المذهب التاريخي والنظرة الشمولية في الوسط الفكري والفلسفي للذين جاءوا بعده ، ونظرا لأهمية فكرة التغير هذه التي جاء بها هيراقليطس والمعروفة " انك لا تستطيع أن تنزل مياه النهر الواحد مرتين " فقد خصص بوبر فصلا

[1] - بوبر كارل ، المجتمع المفتوح وأعداؤه ، ص 13.

[2] - المصدر نفسه، ص 22.

كاملا لهيراقليطس في كتابه (المجتمع المفتوح وأعداؤه) ،واعتبرها فكرة مزلزلة لأنها ربطت كل تغير بقانون المصير الحتمي الثابت ، وبذلك يكون هيراقليطس حسب بوبر قد حكم على نفسه بتأسيس المذهب التاريخي الذي يعتبر - طبعا - حسب بوبر مصدر كل المآسي والمصائب والكوارث التي شهدتها الإنسانية عبر التاريخ ، ويرى بوبر أن المذهب التاريخي هو جواب عن القلق اتجاه اكتشاف هذه الفكرة وإمكانية حدوث تغير على المستوى الاجتماعي والسياسي ، وهذا القلق الذي تميزت به فلسفة هيراقليطس ، هو الذي أثر سلبيا في فلسفة أفلاطون.

لذلك فان كارل بوبر في كتابه (المجتمع المفتوح وأعداؤه) وجه نقدا لاذعا لأفلاطون ، ويرى أن فلسفته السياسية لعبت دورا في المشروع المركزي لإيقاف تطور المجتمع ، حيث وجه كارل بوبر نقدا لنظرية الصور الأفلاطونية واعتبرها مجرد وهم وخيال وتبرير للشمولية ، وذلك لأن أفلاطون بحث وحلل في أسباب الحركة التاريخية التي تتحكم في تغيير أنظمة الحكم من شكل لآخر وحصرها في الصراع الطبقي والمصالح الاقتصادية، لذلك اقترح نظام حكم الفلاسفة ، وعليه فان المشروع السياسي لأفلاطون يهدف بوضوح إلى إنشاء مجتمع ثابت بحيث يبقى كل شخص ثابتا في مكانه ، والفكرة التي يريد أن يوضحها بوبر ، هي أنه يريد أن يقول أن إيديولوجية الأنظمة الشمولية التي عرفها النصف الأول من القرن العشرين يعود منشأها إلى المشروع السياسي الأفلاطوني ، لأن هذه الإيديولوجيات قامت على الحنين إلى المجتمع المغلق ،وذهب كارل بوبر بعيدا في نقده لأفلاطون باتهامه إياه بأنه شوه أفكار أستاذه سقراط وخان تعاليمه ، ويرى بوبر أن الهدف من خلال تسليطه الضوء على فلسفة أفلاطون ليس الإسهام في تقديره والثناء عليه بل هو على العكس من ذلك كشف خبايا أفكاره المؤذية[1] ، وصورة أفلاطون هنا تختلف عن المتعارف عليه ، حيث يصور لنا بوبر أفلاطون ضد الديمقراطية والتفتح ومؤسسا لنظام حكم استبدادي شمولي يقوم على إيقاف التغيير في المجتمع عن طريق تثبيت الطبقات وتعزيز الفواصل بينها ، ويرى

[1]- **Popper Karl, société ouverte et ses ennemis, vol1, Op.Cit, p35**.

بوبر أن الفيلسوف الذي يحكم جمهورية أفلاطون المثالية هو أفلاطون نفسه أي أنه صمم كل الصفات التي يشترط أن تتوفر في الفيلسوف الحاكم على مقاسه هو تحديدا .

وخلاصة نقد كارل بوبر لأفلاطون كما يقول أنطوني كوينتون « إن بوبر يعد أفلاطون واحدا من أنصار الاتجاه التاريخي تأسيسا على نظريته في تطور أشكال الحكومات ... أما فكره الشمولي فيتضح لنا من خلال عرضه لدولته المثالية التي يتولى مقاليد الحكم فيها طبقة من الصفوة الممتازة المقفلة على نفسها، والتي تمسك في يدها بكل أسباب القوة دون أن يشاركها في ذلك أحد من عامة الناس، كذلك يتضح هذا الطابع الشمولي من خلال الطريقة التي يتم بها إعداد هذه الطبقة للحكم ... وكذلك... في الطريقة التي تمارس بها هذه الطبقة الحكم حيث يباح لها كل أساليب الكذب والخداع وصولا إلى تحقيق المصلحة العامة »[1]

وفي الجزء الثاني من كتابه (المجتمع المفتوح وأعداؤه) يوجه سهام نقده للفيلسوفين الآخرين (هيغل وماركس) اللذين لا تقل أفكارهما - حسب بوبر - عن أفكار أفلاطون سوءا وخطرا على المجتمع المفتوح ، حيث بدأ بهيغل وفلسفته وآراءه السياسية ، وهنا يأخذ النقد عند بوبر منعرجا خطيرا لأنه لم يتوقف عند حدود الصراع الفكري بل أخذ مسارا وتوجها آخر نحو شخصية هيغل ، فهو لم يحترم شخصية هيغل ولا أفكاره ونقده بعنف واحتقار وكراهية معتبرا إياه مهرجا ومخادعا فكريا ولا عقلانيا، وفي هذا الصدد يعتبر نقد بوبر لهيغل أشهر نقد في تاريخ الفكر الفلسفي، وكان هذا النقد من بين أسباب اللاتفاهم بين بوبر وأعضاء مدرسة فرانكفورت ممثلة خاصة في أدرنو وهابرماس، وذلك لأن فلاسفة هذه المدرسة اتخذوا من فلسفة هيغل وماركس منهجا لهم، ويستند بوبر في نقده لهيغل على النقد الذي وجهه شوبنهاور الذي كان معاصرا لهيغل، وفي هذا الإطار يقول بوبر : « لقد وصف شوبنهاور هيغل قائلا : لم يكن هيجل سوى رجلا مخادعا ، لقد تمكن من إفساد جيل

[1] - أنطوني دي كرسبيني وكينيت مينوج ، أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة ، ترجمة نصار عبدالله ، (مقالة لأنطوني كوينتون)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1988 ، ص76 .

بكامله »[1]، ويواصل كارل بوبر نقده لهيغل بطريقة تهكمية « هو كاتب صعب الفهم ومتفوق في مجال فقدان الأصالة ، حيث لا يوجد موضوع في كتاباته مما لم يتحدث فيها من قبل ، من هو أحسن منه »[2] ، ويتهم كارل بوبر هيغل بالفيلسوف اللامسؤول الذي باع ضميره من أجل خدمة مصالح الحكومة وإحياء سلطة الملك البروسي (فرديرك الثالث) في ألمانيا ، ولذلك يعتبره بوبر عدوا للمجتمع المفتوح ،متهما إياه بأنه لولا الحكومة البروسية لما تمكن من أن يصبح أول رجل متنفذ في الوسط الفلسفي ألألماني آنذاك ، واتهمه كذلك بنشر فكرة القومية التي تسببت في إشعال حربين عالميتين ، وبأنه الأب الروحي للنازية التي تسببت في الحرب العالمية الثانية ، علما أن استيلاء النازية على النمسا هو الذي كان سببا في مغادرة كارل بوبر لموطنه الأصلي النمسا سنة 1937 والتوجه إلى نيوزيلندة ثم الاستقرار في لندن عقب نهاية الحرب سنة 1945 إلى غاية وفاته سنة 1994 ويرى بوبر أنه لا يمكن اعتبار فلسفة هيغل فلسفة حقيقية ، وأن هيغل ليس فيلسوفا ثوريا كما يدعي أتباعه وإنما هو رجل مستبد ، وأن نتائج فلسفته أكثر من محتواها ، وهذا هو الأمر الذي دفع بوبر إلى نقده : « لولا نتائج فلسفته الهدامة فان حالة هيغل لا تستحق التحليل ، لكنها تسمح بفهم كيف استطاع مهرج صنع التاريخ »[3] ، وقد وصف برتراند راسل تحليل ونقد بوبر لهيغل بأنه مميت[4] ، ونلاحظ هنا أن انتقادات بوبر لهيغل تركزت على الجانب الشخصي أكثر من الجانب الفكري.

وخلاصة نقد بوبر لهيغل كما يقول أنطوني كوينتون « إن نزعة هيغل القومية والعسكرية وعدم اعتداده بقيمة الفرد إلا بقدر ما يخدم الدولة ، كل هذا يجعله في نظر بوبر أقل احتراما مما توحي به لأول وهلة توصياته حول ضرورة إنشاء مؤسسات دستورية

[1] - Popper Karl , La société ouverte et ses ennemis , vol 2 , Hegel et Marx ,traduit de l'anglais par Jacqueline Bernard et Philippe Monod , éd seuil , paris ,1979, p 22.

[2] - Ibid, p22

[3] - Ibid, p 22

[4] - مصطفى عادل، كارل بوبر مائة عام من التنوير ونضرة العقل ، ص 135.

ومجالس نيابية ، بل إن هذه المجالس التي ينادي بها هيجل ما هي في حقيقة الأمر إلا أجهزة وظيفية وليست أجهزة ديمقراطية »[1]

وبعد هيغل يأتي الدور على ماركس ، وعلى خلاف نقد بوبر لهيغل الذي لم يلتزم فيه بأصول وقواعد النقد ، فإنه كان في نقده لماركس موضوعيا إلى حد ما ، وقد سبق لنا وأن تعرضنا إلى جانب من هذا النقد [في المطلب الأول من المبحث الثاني من الفصل الأول] ، وكان هذا النقد متعلقا بمدى علمية النظرية الماركسية ، وسنضيف هنا النقد الذي وجهه كارل بوبر إلى الماركسية من الناحية السياسية، فرغم تأثر بوبر بالماركسية في شبابه ورغم إعجابه بصدق وإخلاص ماركس في نواياه الإنسانية ، حيث كان يهدف من وراء أفكاره إلى نصرة طبقة العمال ورفضه لكل أشكال الاستغلال التي يتعرضون لها من طرف الطبقة الرأسمالية ، ورغم تقدير بوبر واعترافه بعبقرية ماركس في تحليله للمجتمع « اجتهد ماركس لحل المشاكل الاجتماعية لعصره باللجوء إلى مناهج عقلانية »[2] ،فان هذا لم يمنعه من نقده انتقادا شديدا ، فهو ليس إلا نبيا مزيفا ، لأنه تقدم بنبؤة مزيفة ضللت معظم ذوي العقول النيرة وغررت بالكثير من الشعوب لأنها عقيدة تؤمن بغايات بعيدة المنال من الصعب تحقيقها ، واعتبر كارل بوبر الماركسية من أخطر أشكال النزعة التاريخية وحمل ماركس المسؤولية عن الآثار المدمرة للماركسية[3] ، ويرى بوبر أن الماركسية من الناحية السياسية تجمع بين صفتين متناقضتين فهي من جهة أوتوبيا (Utopie) لأنها تعد الناس بمجتمع بلا طبقات وبالمساواة والأحلام الوردية ، وهي من جهة أخرى إيديولوجيا ديكتاتورية أتبث تاريخ الدول الاشتراكية في عهد لينين وستالين وغيرهما مدى بشاعتها واستخدامها للعنف وتبريره بحجة البحث عن دولة دون طبقات[4] ، فالأحلام السعيدة ذهبت

[1] - أنطوني دي كريسبيني وكنيث مينوج ، أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة ، مقالة لأنطوني كوينتون،ص، ص ، 77 ، 78

[2]-Popper Karl, La société ouverte et ses ennemis, vol 2, oP.Cit, p59.

[3]- Ibid, p 60

4-Ibid, p 97.

أدراج الرياح وحلت محلها المآسي والكوارث ،حيث أصبحت الدولة الاشتراكية دولة اضطهاد (مجتمع مغلق) .

ومجمل القول أن كارل بوبر استطاع إبطال دعاوي الماركسية بالحجة والدليل وبكل موضوعية عكس نقده لهيغل الذي توجه إلى رغبات ونوايا هيغل الشخصية ، وخلاصة نقد بوبر لماركس هو أن هذا الأخير ماهو إلا نبي مزيف لا يختلف عن النبيين المزيفين الآخرين ألا وهما أفلاطون وهيغل ، وذلك لأنه كما يقول أنطوني كوينتون « إن الصلة بين ماركس والشيوعية لا تحتاج إلى نظر أو بيان »[1] ، ومادامت النظرية الماركسية تتسم بالطابع اليوتوبي من جهة وبالعنف من جهة أخرى فهي إذن نظرية تاريخية وشمولية .

ب ـ المطلب الثاني: خصائص المجتمع المغلق

بعد أن تعرفنا على الأساس والخلفية الفلسفية للمجتمع المغلق عند بوبر، ننتقل الآن إلى البحث في مفهوم هذا المجتمع والتعرف على الخصائص التي يتميز بها وفي هذا الإطار يعرف بوبر المجتمع المغلق قائلا : « أسمي المجتمع المغلق المجتمع السحري أو القبلي »[2]، وهنا نرى أن كارل بوبر وفي لمنطلقاته الفكرية فهو لم يقدم لنا تعريفا محددا ودقيقا للمجتمع المغلق ، ولكن انطلاقا من هذا المفهوم نحاول أن نتعرف على خصائص هذا المجتمع الذي يستنكره بوبر وينتقد خلفيته الفلسفية كما صرح بذلك في أكثر من مرة في كتابه (المجتمع المفتوح) ، والذي من ضمن ما قاله فيه مايلي : « يثير هذا الكتاب... بعض الصعوبات التي تواجه حضارتنا، تلك الحضارة التي ربما يمكن وصفها بأنها تهدف إلى ماهو إنساني ومعقول، كما تهدف إلى تحقيق المساواة و الحرية، حضارة لا تزال في طفولتها ... وقد تستمر في التطور على الرغم من حقيقة أن العديد من المفكرين قد غدروا بها في معظم الأحوال، وهو يحاول أن يبين أن هذه الحضارة لم تفق بعد من صدمة ميلادها ... صدمة

[1] - أنطوني دي كريستيني وكنيث مينوج، أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة ، مقالة لأنطوني كوينتون ،ص 79 .

[2]-Popper Karl, la société ouverte et ses ennemis, vol1, oP.Cit, p142.

التحول من المجتمع المغلق ... إلى المجتمع المفتوح الذي يحرر قوى الإنسان النقدية »[1] ، وانطلاقا من هذا النص ومن المفهوم السابق الذي قدمه بوبر للمجتمع المغلق ، يمكن القول أن المجتمع المغلق هو نوع من المجتمع الذي يكون فيه النظام الاجتماعي والمعرفة محددة بالأساطير التي تكون في غالب الأحيان كونية وكوسمولوجية ،وللتوضيح أكثر نستعين هنا بالدراسة التي أجرتها رونيه بوفريس حول الفكر البوبري ، والتي كشفت من خلالها عن عدة خصائص يتميز بها المجتمع المغلق عن المجتمع المفتوح والتي أجملتها في مايلي : « المجتمع المغلق هو مجتمع "ساحر" عاجز عن الفصل بين القوانين التي أبدعها الإنسان والقوانين التي جاءت بها الطبيعة، يحترم الطابوهات والاكراهات ويعتقد وفق "أحادية ساذجة" أن التقنيات الاجتماعية فرضتها الطبيعة أو الآلهة »[2]، ومعنى ذلك أن المجتمع المغلق يقوم أساسا على الأحادية ، وتعني أن الأنظمة الاجتماعية مصدرها الطبيعة أو الآلهة، وبالتالي فإن المجتمع يخضع لسلطة المعتقدات العرفية التي يعتقد أن مصدرها الطبيعة أو الآلهة ، لذلك تكون هذه القواعد الاجتماعية غير قابلة للنقاش ، وتكون مهمة الثقافة هي الحفاظ على أمن و استقرار المجتمع ، وهذا ما لاحظه كارل بوبر من خلال دراسته للتراث اليوناني ، حيث كان بعض المثقفين و الشعراء اليونان من أمثال هوميروس وهزيود يعتقدون أن التاريخ من صنع الآلهة[3] .

وتواصل رونيه بوفريس وصفها للمجتمع المغلق قائلة: « ومن جهة أخرى المجتمع المغلق هو مجتمع سلطوي، يرفض الفكر النقدي، فلا القوانين ولا الأساطير ولا سلطة القادة يمكن أن تكون موضوع اتهام... ومن جهة ثالثة المجتمع المغلق هو مجتمع يرفض التطور، ويبحث على أن يبقى مماثلا لذاته ... وأخيرا ، المجتمع المغلق هو مجتمع عشائري، يلغي الفرد ويميل إلى اعتبار نفسه جهازا لا يشكل فيه الأفراد إلا أجزاء، ومن هنا ضعف تحمله

[1] - بوبر كارل ، المجتمع المفتوح وأعداؤه ، الجزء الأول ، ص 9 .

[2] - بوفريس رونيه ، العقلانية النقدية عند كارل بوبر ، ص 133 .

[3]-Popper Karl, La société ouverte, vol 1, oP.Cit, p 19

الاختلاف ، كما أن قوة الانفعالات الجماعية فيه تصل إلى تذويب الأفراد في كائن واحد»[1] ، ومعنى ذلك أنه بالنسبة للمجتمع المغلق فإن الذي يرفض القوانين أو لا يحترمها فإنه يتعرض للعقاب الإلهي ، لأن كل نقد لها هو فسق وعمل شرير ولأن الحكام أو الكهنة المكلفون بترجمة المعرفة الإلهية لا يسمحون بمناقضتها ، ولأن القوانين في المجتمع المغلق مصدرها الطبيعة أو الآلهة فهي بالتالي أبدية وغير قابلة للتغير، وكل محاولة للخروج عنها تعتبر انحرافا وتمردا، وأخطر من ذلك أن المجتمع المغلق هو نظام يكون فيه الإنسان ليس غاية في حد ذاته ، لأن المصلحة العامة فيه أولى من المصلحة الفردية، ويجب أن يحافظ كل واحد على دوره في هذا النظام .

وخلاصة القول أن المجتمع المغلق يعكس موقفا دوغمائيا ليس أخلاقيا ولا عقلانيا، ولا يترك فسحة للحرية ولا للاقتراحات المتباينة التي تسمح بتداول السلطة بلا عنف ، مجتمع لا مكان للتنافس فيه ، كل فرد في مكانه لا يبرحه ،لأن المجتمعات المغلقة لم تعتبر الإنسان أكثر من كونه أداة لخدمة الفكرة المطلقة، وهذه الفكرة تتجلى في أشكال متعددة في المجتمعات البشرية ، والتاريخ سجل العديد من هذه الأشكال بدءا من عبادة الفرد في الأنظمة الديكتاتورية والفاشية وصولا إلى الطاعة العمياء في الأنظمة الدينية، وقد اشتهر كارل بوبر في هذا المجال بنحته مصطلحا فلسفيا سياسيا جديدا (Totalitarisme) والذي يترجم إلى اللغة العربية (الشمولية) وهو مفهوم فلسفي سياسي يصف الأنظمة السياسية ذات الطابع الديكتاتوري والقمعي ، والتي هي طبعا - حسب بوبر- نتيجة للفلسفات الطوباوية والمثالية (أفلاطون و هيغل) والمادية التاريخية (ماركس) ، وأطلق بوبر هذا المفهوم أيضا على النازية والشيوعية على الرغم من الاختلاف الظاهر بينهما ، وفي عصرنا الراهن أصبح هذا المفهوم يطلق على أي نظام يصادر الحريات ويبنى على إرهاب المواطنين وهيمنة فرد واحد أو نخبة على مجمل الحياة السياسية ، ويرى بوبر أن الأنظمة الاستبدادية كالفاشية والنازية والشيوعية هي الصورة الجديدة للمجتمع المغلق ، هــذه الأنظـمة هي التي تسبب

[1] - بوفريس رونيه ، العقلانية النقدية عند كارل بوبر ، ص133 .

فيها فلاسـفة المذهـب التاريخي وهم أنبيـاء الزيف الثـلاثـة (أفلاطون و هيغل وماركس) باعتبارهم خصوما للمجتمع المفتوح ، فهم يمثلون القوى المناهضة للعقلانية والنقدية والحرية، وهذه القوى ، حسب بوبر ، هي رواسب مواقف لم تشف تماما من صدمة ميلاد الحضارة المدنية والخروج من النظام القبلي المغلق ، هذا عن حوار بوبر مع فلاسفة المذهب التاريخي ومجتمعهم المغلق ، فماذا عن حواره مع فلاسفة الفكر النقدي ومجتمعهم المفتوح ؟

2 – المبحث الثاني: الفكر النقدي والمجتمع المفتوح

أ – المطلب الأول: الأساس الفلسفي للمجتمع المفتوح (الفكر النقدي)

كيف ولماذا ربط كارل بوبر بين الفكر النقدي والمجتمع المفتوح ؟

بعد أن تعرفنا في المبحث السابق على المجتمع المغلق ، سنحاول أن نتعرف من خلال هذا المبحث على مفهوم المجتمع المفتوح وأساسه الفكري وخلفيته الفلسفية ، وهنا نلاحظ أن كارل بوبر يربط بين المجتمع المفتوح والفكر النقدي ، حيث ما فتئ كارل بوبر يشيد في كتابه المجتمع المفتوح وأعداؤه وبالتحديد في الفصل العاشر منه ببعض الشخصيات السياسية والثقافية والفلسفية التي أنجبتها الحضارة اليونانية القديمة ويصفهم بالجيل العظيم ومن أشهرهم بركليس وسقراط وطاليس وانكسمندريس وديمقريطس وغيرهم وفي هذا يقول : « يطيب لي أن أطلق على هذا الجيل الذي يمثل نقطة تحول في تاريخ الجنس البشري اسم الجيل العظيم ، وهو الجيل الذي عاش في أثينا مباشرة قبل وخلال الحروب البيلوبونيزية* ، وكان بينهم ... الرائد العظيم للديمقراطية بيركليس ... وهيرودوت ... وبروتوغوراس ... وسقراط ... وديمقريطس الذي يجب أيضا أن يعد من الجيل العظيم ، وهم الذين صاغوا المبدأ الذي ينادي بأن المؤسسات الإنسـانيـة للغة والعادة والقانون ليست ذات سمة سحرية كالمحرمات ولكنها من صنع الإنسان »[1] ، إذن هذه الشخصيات العظيمة التي عاشت مابين القرن السابع وأواسط القرن الخامس قبل الميلاد تمثل ثورة إنسانية هامة وفي هذا يقول كارل بوبر : « يتضح أن الانتقال من المجتمع المغلق إلى المجتمع المفتوح هو إحدى أكثر الثورات عمقا التي مر بها الجنس البشري ... وهكذا عندما نقول أن حضارتنا الغربية تنتسب إلى الإغريق فينبغي أن ندرك ما يعنيه هذا القول ، إنه يعني أن الإغريق بدأوا من أجلنا تلك

[1] - بوبر كارل ، المجتمع المفتوح وأعداؤه ، الجزء الأول ، ص ، ص ، 183 ، 184 .

*** الحروب البلوبونيزية (Pelopponése) ، هي حروب أهلية وثورات شعبية جرت في اليونان القديمة بين مختلف المدن والقبائل مابين حوالي سنة « 431 – 404 » ق.م ،وأشهرها تلك الحرب التي وقعت بين أثينا الديمقراطية وإسبارطة العسكرية .**

الثورات الكبرى التي لا تزال فيما يبدوا في بدايتها -الانتقال من المجتمع المغلق إلى المجتمع المفتوح - »[1] .

وانطلاقا من أن بوبر يعتقد أن التاريخ هو مسرح لمعركة دائمة تجري بين فكرتين فكرة المجتمع المغلق وفكرة المجتمع المفتوح ، ويرى أن المجتمع المفتوح والعقل النقدي يعود إلى اليونان القديمة ، حيث بدأ المجتمع المغلق في الانهيار عندما بدأ الإنسان يميز بين ماهو قانون طبيعي وماهو قانون إنساني ، فإنه يرى أن المرور من المجتمع المغلق إلى المجتمع المفتوح هو نتيجة لصدمة ثقافية (توتر حضاري) تعود لأسباب توفرت في اليونان القديمة ، وهنا نلاحظ أنه على الرغم من نقد كارل بوبر لنظرية التحليل النفسي لفرويد إلا أنه يوظف أفكارها ومصطلحاتها في تفسيره لمسألة المرور من المجتمع المغلق إلى المجتمع المفتوح حيث يقول « أفترض أن ما أسميه توتر الحضارة **Tentions de la civilisation** شبيه بالظاهرة التي كانت في ذهن فرويد عند كتابته لمؤلفه قلق الحضارة **Malaise dans la civilisations** »[2] .

ويرى بوبر أن الانتقال نحو المجتمع المفتوح هو صدى ونتيجة لثورة ثقافية وفكرية هامة، أي أن ظهور المجتمع المفتوح يعود إلى ظهور نظريات متنافسة ويرجع أيضا إلى وجود تقاليد حوارية نقدية في تلك الفترة في التاريخ اليوناني ، وبالنسبة لكارل بوبر فإنه لا يوجد أدنى شك في أن قبول طاليس نقد نظرياته خاصة من طرف انكسمندريس [وهو ما أشرنا له في الفصل الأول] ، معناه أن طاليس كان يشجع تلامذته على النقد ، وهذا المطلب والضرورة النقدية هو الذي أسس في الحقيقة تقاليد صحيحة ، لأن النقد في نظر كارل بوبر هو وسيلة لحوار الأفكار المتباينة ، وبالتالي إمكانية تعايشها ، ويعتقد بوبر أنه في هذه الفترة التاريخية عرفت اليونان ثورة ثقافية هامة ، وهذه الثورة الفكرية والثقافية هي التي أنتجت هذه النظريات الجديدة « وفي كل جيل جديد نجد على الأقل فيلسوف من نوع جديد ...

[1] - بوبر كارل ، المجتمع المفتوح وأعداؤه ،ص 175.

[2]-Popper Karl, la société ouverte et ses ennemis, vol1, oP.Cit, p 243.

وبالتالي نظرية كوسمولوجية جديدة ومدهشة تعبر عن أصالة فكر صاحبها »[1] ، أي أن هذه الفترة التاريخية تميزت بوجود نظريات جريئة ، ولا شك أن النقطة الهامة والحاسمة في هذه الحركة التاريخية في اليونان القديمة هو ظهور تقاليد فكرية معاكسة للتقاليد الدوغمائية التي لا تسمح إلا بنظرية واحدة أو رأي واحد ، وهذا يعني أن بوبر يرى توازيا بين ظهور المجتمع المفتوح و ظهور العقلانية النقدية ، وتبعا لنظرية بوبر في المعرفة [التي رأيناها في الفصل الأول] فهو يحاول أن يفهم كيف ظهرت هذه التقاليد النقدية وعلاقتها بالمجتمع المفتوح .

وهنا نلاحظ أن كارل بوبر يعتقد أن نواة التفكير النقدي والمجتمع المفتوح وجدت سابقا عند اليونان القدماء خاصة في القرن الخامس قبل الميلاد ، عندما تم الفصل بين القوانين الطبيعية والقوانين الاجتماعية ،وحين وقف الفلاسفة موقفا عادلا ومعارضا للعبودية التي كانت سائدة آنذاك في أثينا ومنهم سقراط[2] ، والذي يعتبره بوبر رائدا للفكر النقدي وأعظم شخصية فلسفية أنجبتها الحضارة اليونانية [كما أشرنا إلى ذلك في بداية هذا المطلب] ، وذلك لأن سقراط كان ينظر إلى جمهورية أثينا بعين النقد باعتبارها سائرة في طريق الانحطاط والتحلل الخلقي ، « لم يكن سقراط قائدا للديمقراطية الأثينية مثل بيركليس ... وانما كان منتقدا لأثينا ومؤسساتها الديمقراطية »[3] ، لذلك كانت المشكلة الأخلاقية هي المشكلة الرئيسية في فلسفته خلافا للتيارات الفلسفية اليونانية السابقة والتي كانت تهتم بالطبيعيات ، ويعني ذلك أن سقراط أهمل النظر في الفلك وركز اهتمامه على الإنسان والفضيلة ، وكان سقراط لا يعتبر الفلسفة وقفا على طبقة خاصة ، فكان يتجول في شوارع أثينا وساحاتها وأسواقها متحدثا مع الناس ، وهذا الأمر أحرج حكام أثينا وتسبب في عداء بعضهم له وكان من العوامل التي أدت إلى محاكمته بتهمة الإلحاد وتخريب المثل وإفساد الشباب ومحاربة

[1] - **Popper Karl, conjectures et réfutations, oP.Cit, p 225**

[2] -**Popper Karl, La société ouverte, vol 1, oP.Cit, p 126**

[3] - **بوبر كارل ، المجتمع المفتوح وأعداؤه ، الجزء الأول ، ص187 .**

العادات والتقاليد المقدسة في عصره وإدخال البلبلة في النفوس والشك في العقول والتعاون مع الأعداء (اسبارطه) « اتهم سقراط بأنه علم الرجال الذين خانوا النظام الديمقراطي وتآمروا مع العدو بغرض إسقاط أثينا »[1] ، بينما يرى بوبر أن سقراط كان مجددا ومصلحا يبحث عن مثل جديدة بعد الأزمة التي أصابت الديمقراطية الأثينية ، وأنه كان وفيا للقيم السياسية التي تقوم عليها أثينا ، وأنه كان مصلحا أخلاقيا ومن شأن كل مصلح أن يعارض المثل الجارية في عصره ومحيطه وهو الذي كان يعلم أن تحمل الظلم أفضل من اقترافه وأن العدالة هي أسمى الفضائـل ، وقد دافع عن نفسه أمام المحكمة بكل سخرية وتهكم ، وقد حكم عليه بالموت ، وعرض عليه أنصاره الفرار وكان فراره ممكنا ولكنه أبى وصمم على البقاء في السجن لأن سقراط كان يرى أن احترام القوانين واجب مقدس حتى ولو كانت المدينة ظالمة ، لذلك يعتبر بوبر موت سقراط موقفا فلسفيا عميقا وعملا سياسيا رائعا « موت سقراط هو برهان قاطع على إخلاصه »[2] ، فموقف سقراط هنا يمثل - في نظر بوبر - الصراع الأبدي بين المجتمع المفتوح والمجتمع المغلق من جهة وبين التفكير النقدي والتفكير الدوغمائي من جهة أخرى ، إذن هذه هي الأسباب التي جعلت كارل بوبر يثني كثيرا على سقراط .

ومن الشخصيات اليونانية التي كانت محل إعجاب وتقدير وثناء كارل بوبر أيضا نجد شخصية الحاكم الشهير بيركليس périclés الذي يمثل عصره - حسب بوبر - بالضبط اللحظة التي بدأ فيها الانتقال التدريجي من المجتمع المغلق إلى المجتمع المفتوح[3] ، وهي اللحظة التاريخية التي بدأ فيها الصراع بين المجتمع المفتوح والمجتمع المغلق كصراع دائم لا يمكنه الانتهاء[4] ، وقد بلغ إعجاب بوبر ببركليس إلى حد أن بدأ الفصل الأول من كتابه

[1] - بوبر كارل ، المجتمع المفتوح وأعداؤه ، الجزء الأول ، ص 190.

[2] - المصدر نفسه، ص 192.

[3] - بوفريس رونيه العقلانية النقدية عند كارل بوبر ، ص 132 .

[4] - المصدر نفسه ، ص 132 .

(المجتمع المفتوح) بقول مأثور عنه ، حيث يقول بيركليس : « على الرغم من أن القليل فقط هو الذي يمكن أن ينشئ السياسة إلا أننا جميعا قادرون على الحكم عليها »[1] ،واعتبر هذا القول رسالة من المجتمع المفتوح ، وفي المقابل اقتبس قولا لأفلاطون واعتبره رسالة من المجتمع المغلق حيث يقول أفلاطون : « ... إن المبدأ الأعظم بالنسبة إلى الجميع هو أن أي شخص سواء أكان ذكرا أو أنثى، لا ينبغي عليه أن يحيا بلا قائد... وحتى في أصغر المسائل عليه أن يمتثل للقيادة، فعليه مثلا ألا يستيقظ أو يتحرك أو يغتسل أو يتناول وجباته إلا إذا أمر أن يفعل ذلك، وبعبارة واحدة ينبغي عليه أن يعلم نفسه... ألا يحلم أبدا بالإتيان بفعل مستقل »[2] ، وهنا نلاحظ الفرق بين الرسالتين رغم أنهما من مدينة واحدة (أثينا) ومن عصر واحد (الحضارة اليونانية القديمة) ، رسالة بيركلس من المجتمع المفتوح تعبر عن مجتمع يقوم على الديمقراطية والتعدد والاختلاف والحوار النقدي ، بينما رسالة أفلاطون من المجتمع المغلق تعبر عن مجتمع يقوم على الأحادية الدوغمائية حيث لا يوجد إلا نظرية واحدة أو رأي واحد وهذه النظرية تقترح تفسيرا واحدا للحقيقة تبعا للمعايير والمحرمات التي تستمد منها كوسمولوجيتها وأيضا وهو أمر أساسي أن الإنسان في هذه النظرية ليس إلا عنصرا من الطبيعة .

وهنا أيضا يتضح لنا الاتجاه السياسي لكارل بوبر ، حيث يبدوا لنا فيلسوفا ليبراليا مدافعا عن المثل العليا لليبرالية كالديمقراطية والحرية ، وعليه فان المجتمع المفتوح في نهاية المطاف ماهو إلا المجتمع الليبرالي ، فهو إذا كان في مقدمة كتابه المجتمع المفتوح يقول « إن هذا الكتاب ماهو إلا نقد لفلسفة السياسة والتاريخ »[3] ، فإنه يوضح في مقدمة كتابه بؤس الايديولوجيا - وهو الكتاب الذي يعتبره النقاد مكملا للكتاب السابق - حيث يقول : « إن هذا الكتاب موجه إلى تلك الأعداد التي لا حصر لها من الرجال والنساء والأطفال الذين

[1] - بوبر كارل ، المجتمع المفتوح وأعداؤه ، الجزء الأول ، ص15 .

[2] - المصدر نفسه، ص 15.

[3] - المصدر نفسه ،ص 5.

ينتمون إلى سائر العقائد والأمم والأعراق سقطوا ضحايا الاعتقاد الفاشي والشيوعي ، بأن ثمة قوانين لا مهرب منها للقدر التاريخي »[1] .

ومن هنا يتبين لنا أن المدخل الأساسي الذي يحاول بوبر أن ينفذ منه للدفاع عن الليبرالية هو الهجوم على أعدائها الشموليين وفي مقدمتهم أنصار الفاشية والشيوعية ، وفي هذا يقول أنطوني كوينتون في مقالته الموجودة في الكتاب الذي ألفه أنطوني دي كرسبيني مع كينيث مينوج (أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة) وترجمه إلى العربية نصار عبدالله : « إن هجوم بوبر على العقائد الفاشية والشيوعية يستهدف في نهاية المطاف إقامة البرهان على أن تحقيق المثل العليا لليبرالية ليس أمرا مستحيلا من الناحية العملية ، إذ لا توجد ضرورة تاريخية على الإطلاق تحول دون تحقيق هذه المثل ، بل على العكس من ذلك تماما هناك ما يدعوا إلى تحقيقها »[2] .

ومعنى هذا أن كارل بوبر يستعمل طريقة البرهان بالتفنيد ، ويريد أن يقول إن الليبرالية هي النظام الأفضل والمناسب للحياة الإنسانية من خلال إثباته أن الأنظمة الفاشية والشيوعية هي أنظمة سيئة وديكتاتورية وشمولية ، وقد لخص أنطوني دي كوينتون فلسفة بوبر السياسية بقوله : « إن الأفكار السياسية لبوبر يمكن إجمالها في خطين رئيسيين هما : تفنيد الأسس التاريخية التي ترتكز عليها الأنظمة الشمولية والتي تنطلق منها في رفضها للديمقراطية الليبرالية ، ثم دفاعه عن الديمقراطية من منطلق الأسانيد الأخلاقية »[3] .

ومن خلال ما سبق نستنتج أنه إذا كان الأساس الفكري للمجتمع المغلق وخلفيته الفلسفية هو المذاهب التاريخية لأفلاطون وهيغل وماركس ، فإن الأساس الفكري والخلفية الفلسفية للمجتمع المفتوح هو الفكر النقدي لطاليس و انكسمندريس و بركليس و سقراط

[1] - بوبر كارل ، بؤس الايديولوجيا ، ص الإهداء .

[2] - أنطوني دي كرسبيني وكنيث مينوج ، أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة ، ص 73 .

[3] -المرجع نفسه ،ص 74.

وغيرهم . ونستنتج أيضا أن الأطروحة الأساسية في الفكر السياسي التي ظل بوبر يدافع عنها هي أطروحة المجتمع المفتوح. فماهو المجتمع المفتوح ؟

ب - المطلب الثاني: خصائص المجتمع المفتوح

لقد ظل بوبر على امتداد مشواره الفكري والسياسي يدافع عن أطروحته الأساسية (المجتمع المفتوح) ، فماذا يقصد كارل بوبر بالمجتمع المفتوح ؟ وماهي خصائص هذا المجتمع التي تميزه عن المجتمع المغلق ؟

وفاءا لمنطلقاته الفكرية فان بوبر كالعادة لا يعطينا تعريفا ثابتا لمفهوم المجتمع المفتوح ، وإنما يعرفه لنا تعريفا وظيفيا حيث يقول : « هو مجتمع تكون فيه المبادرة الفردية هي أساس القرار الشخصي »[1] ، ونفهم من هذا أن المجتمع المفتوح يقوم على تحمل كل فرد لمسؤوليته أمام الجميع ، ولكن المسؤولية تتأسس على الحرية ، وبالتالي فان مجتمع بوبر المفتوح يقوم على الحرية والمسؤولية معا ، ولمعرفة المزيد عن خصائص المجتمع المفتوح نعود مرة أخرى إلى رونيه بوفريس التي استطاعت من خلال قراءتها المعمقة لفلسفة كارل بوبر أن تحدد لنا خصائص هذا المجتمع والتي أجملتها في مايلي : « بخلاف المجتمع المغلق فإن المجتمع المفتوح هو مجتمع لائكي Laïque ينظر إلى المؤسسات كإبداعات إنسانية ، ويمارس منهجيا وبكل حرية الفكر النقدي وهو ما يفسر أهمية الفلسفة والعلم داخل هذا المجتمع ، وهو كذلك مجتمع يتطور باستمرار رافضا كل سكينة أو مهادنة مع ذاته ، ويجعل من الفرد قيمة عليا ، وهو ما يعطي لكل واحد الحق في أن يحدد اختياراته الشخصية »[2]

[1] -Popper Karl, La société ouverte et ses ennemis, vol 1, Op.Cit, p 142.

[2]- بوفريس رونيه ، العقلانية النقدية عند كارل بوبر ، ص 133 .

وانطلاقا من الدراسة التي أعدتها رونيه بوفريس حول التعارض بين المجتمع المفتوح والمجتمع المغلق في كتابها العقلانية النقدية عند كارل بوبر ، والتي ميزت بينهما - كما رأينا سابقا - من خلال عدة نقاط يمكن تلخيصها في ما يلي :

1 - إذا كان المجتمع المغلق مجتمعا سحريا لا يميز بين القوانين الطبيعية والاجتماعية ويقدس كثيرا الطابوهات والاكراهات ، فإن المجتمع المفتوح هو مجتمع لائكي ينظر إلى المؤسسات كإبداعات إنسانية ، وذلك لأن القوانين والمؤسسات الاجتماعية - حسب بوبر - ليست من مصدر متعالي وإنما هي من وضع الإنسان بالاتفاق ، وبالتالي فإن هناك فرقا واضحا بين الظواهر التي هي قوانين طبيعية والقواعد الاجتماعية التي وضعها الإنسان .

2 - إذا كان المجتمع المغلق مجتمعا سلطويا يرفض الفكر النقدي، ويرفض التطور، فإن المجتمع المفتوح يتأسس على منهجية الفكر النقدي، ويتطور باستمرار.

3 – إذا كان المجتمع المغلق مجتمعا عشائريا لا يؤمن بالفرد ولا مكان فيه للاختلاف والتعدد، فإن المجتمع المفتوح يؤمن بالاختلاف والفردانية ، ويقوم على المسؤولية والمبادرة الفردية ، وتتحقق فيه المصلحة العامة من خلال تحقيق المصلحة الفردية ، مع تمييز بوبر الواضح بين الفردانية والأنانية[1] .

ونفهم من هذا أنه أمام نموذج المجتمع المغلق الذي لا يتغير ويفرض دوامه على أساس عدم تحديد القوانين الاجتماعية والطبيعية ، فان كارل بوبر يقترح نموذجا آخر معاكس له أطلق عليه اسم (المجتمع المفتوح) يكون فيه بمقدور الإنسان أن يميز بين ماهو ظاهرة طبيعية وماهو إبداع إنساني ، حيث تصبح الإنسانية تعي نفسها ، وفي هذا الوعي يأخذ استعمال القوة العقلية في المجتمع مكانه الحقيقي ويستقل عن الحتميات والضرورات الطبيعية والدينية ويصبح ممكنا تحديها وتجاوزها ، فالمجتمع المفتوح هو علامة على موقف نقدي جديد ، وهنا نفهم العلاقة بين ظهور تقليد نقدي معين أي إمكانية اقتراح نظريات عديدة تفسر

[1] - بوفريس رونيه ، العقلانية النقدية عند كارل بوبر ، ص 133 .

العالم وإمكانية اختبار هذه النظريات بواسطة الحوار النقدي ، لأن الإنسان ليس مجرد عنصر من الطبيعة وسجين حقيقة واحدة معينة بل له نظر نقدي بخلاف ما يرى التاريخيون بأن الإنسان لا يقبل إلا ما يمليه عليه الإله أو الطبيعة ، بل يجب أن يكون له نظر نقدي للمعايير والحقائق ويجب عليه أن يمتلك حرية القرار في قبول أو رفض هذا المبدأ أو ذاك ، وليس من الضروري معرفة الحقيقة اعتمادا على اعتقاد معين ، وعليه فإن بوبر يرى أن المجتمع المفتوح يعطي إمكانية التغيير من جهة ، ويدعوا الإنسان إلى أن يتحمل مسؤوليته في العمل السياسي والاجتماعي من جهة أخرى . ومن مميزات هذا المجتمع أيضا هو أنه يمنح الفرد الحرية في طريقة حياته ، وفي هذا يقول بوبر نقلا عن كانط « لا أحد يستطيع إرغامي على أن أكون سعيدا بطريقة ما ، لكن كل واحد يستطيع البحث عن سعادته بالطريقة التي تبدو له أفضل »[1] ، وعلى ضوء ما سبق يمكننا القول :

إن المجتمع المفتوح هو المجتمع الديمقراطي الذي لا يحكمه تصور نهائي مثالي محدد بل يسير بخطوات متتابعة يسيرها المحاولة المستمرة للتطور والتقدم محاولة متفتحة على الأفكار والتوجهات وغير محكومة بأفكار مسبقة، وهو مجتمع يرسخ القوانين والمؤسسات التي تسمح للناس ذوي الرؤى والمصالح المختلفة بالحياة معا في سلام، وهو مجتمع أخلاقي وعقلاني يمكن من المحافظة على حد أمثل من الحريات وقابل للتحسن ،وهو كذلك مجتمع يفتح الباب أمام اقتراحات متباينة قابلة للفحص والنقد وتداول السلطة بلا عنف.

ومجمل القول أن المجتمع المفتوح يعكس الموقف النقدي السياسي لكارل بوبر ، وهو تنظيم يتعايش فيه الناس على قاعدة أساسية تتمثل في النقد ، ولكن بصورة أخرى فإن المجتمع المفتوح ما هو إلا المجتمع الليبرالي لأن القيم التي يدعوا إليها بوبر هي نفسها قيم المجتمعات الغربية مثل التعايش الإنساني ، وغياب العنف و حماية الأقليات و الضعفاء والتسامح والحرية ، والديمقراطية والمسؤولية ، حيث ظل بوبر طوال مساره الفكري يتغنى بقيم الحضارة الغربية « نحن في الغرب في السماء ، في السماء الأولى بطبيعة الحال ولسنا

[1] - بوبر كارل ، خلاصة القرن ، ص 79 .

في السماء السابعة ، وجنتنا متطورة ومكتملة ، ويجب علينا ألا نحط من قيمتها ، أو نقلل من سمعتها ... إن عالمنا هو أحسن العوالم التي وجدت وخاصة في أوروبا... وفي الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من أي مكان آخر »[1] ، ونفهم من هذا أن الاتحاد السوفيتي والمانيا النـازية هي الشـكل المعاصــر للمجتمع المغلق ، بينما أوروبا الغربيـــة و الولايات المتحدة الأمريكية هي الشكل المعاصر للمجتمع المفتوح ، ويرى بوبر من الولايات المتحدة الأمريكية خاصة النموذج المعاصر للمجتمع المفتوح الذي ظل يبشر به ويدافع عنه طوال حياته الفكرية ، وهنا يضيف بوبر قائلا : « ديمقراطيتنا الغربية - وخصوصا الولايات المتحدة - هي نجاح لا سابق له ، وهذا النجـاح هو ثمرة الكثير من العمل ، والكثير من الجهد، والكثير من الإرادات الطيبة وكثير من الأفكار الخلاقة في ميادين متعددة ، والنتيجة هي أن كثير من الناس سعداء يحيون حياة أكثر حرية ، وحياة أجمل ... وأعرف طبعا أن كثير من الأشياء يجب أن تتحسن »[2] .

كما تحدث كارل بوبر عن أعداء المجتمع المفتوح وهي المذاهب الشمولية التي تتضمن شموليتها انغلاقها لأنها تقدم تصورا متكاملا ومنتهيا لتكوّن وتطور المجتمع التاريخي ومن هذا فهي تؤدي بالضرورة إلى الوقوف في وجه الأفكار المخالفة بل وقمعها ، ومن هنا ترافقت على مدار التاريخ البشري ، المذاهب الشمولية والقمع والديكتاتورية والاستبداد ، الشيوعية وستالين ، النازية وهتلر ، الأديان والملوك في القرون الوسطى ، ومعنى ذلك أن الخطر الذي يتهدد المجتمع المفتوح باستمرار هو الإيديولوجيات العالمية المجردة مثل الشيوعية والفاشية ، لأن هذه الإيديولوجيات تزعم أنها تملك الحقيقة المطلقة ويتم فرضها على المجتمع دائما من خلال القمع والإرغام .

هذا هو إذن المجتمع المفتوح ، فماذا عن الأسس التي يتأسس عليها مثل الديمقراطية والحرية والمسؤولية والتسامح ؟

[1] - بوبر كارل ، خلاصة القرن ، ص98.

[2] - المصدر نفسه ،ص 85.

3 ـ المبحث الثالث: مفهوم الديمقراطية والحرية والمسؤولية والتسامح عند كارل بوبر .

أ ـ المطلب الأول: الديمقراطية والحرية

بعد أن تعرفنا على الخصائص العامة التي يتصف بها المجتمع المفتوح، ننتقل الآن إلى دراسة وتحليل بعض المفاهيم السياسية التي يتأسس عليها هذا المجتمع وفي مقدمتها مفهومي الديمقراطية والحرية اللذين تحدث عنهما بوبر كثيرا في مختلف مؤلفاته، فما معنى الديمقراطية والحرية عند بوبر ؟ وماهي العلاقة الموجودة بينهما في نظره ؟

الديمقراطية: Démocratie (في الفرنسية) Democracy (في الانجليزية) Democratia (في اليونانية)

تعني الديمقراطية لغة "حكم الشعب أو سيادة الشعب" ، حيث تعرف كمايلي : « الديمقراطيـــة لفظ مؤلف من لفظين يونانيين هما ديموس DEMOS وتعني الشعب و كراتوس KRATIA وتعني حكم ، فتصبح DEMOCRATIA أي حكم الشعب أو سلطة الشعب »[1] ، أما اصطلاحا فتعرف كمايلي : « هي نظام سياسي تكون فيه السيادة لجميع المواطنين لا لفرد أو لطبقة واحدة منهم وتقوم على ثلاثة أركان هي : الحرية والمساواة والسلطة للشعب »[2] ، ويعرفها لالاند : « هي حالة سياسية تكون فيها السيادة للمواطنين كافة بلا تمييز على أساس المولد أو الثروة أو القدرة »[3].

وانطلاقا مما سبق يمكن القول أن الديمقراطية هي شكل من أشكال السلطة يقرر خضوع الأقلية للأغلبية، وهي أسلوب حياة في كافة المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ويشمل الحرية بأوسع معانيها، وهي نوعان ديمقراطية مباشرة (Démocratie directe) مثل تلك التي طبقت في أثينا في عهد بيركليس وكانت تقتصر على المواطنين الأحرار فقط ،

[1] ـ صليبا جميل، المعجم الفلسفي، الجزء الأول، ص 569.

[2] ـ المرجع نفسه ، ص 570 .

[3] ـ لالاند أندري ، موسوعة لالند ، الجزء الأول ، ص259 .

وهؤلاء لا يمثلون إلا فئة قليلة من المدينة الدولة ، أما العبيد والمنتجون فهؤلاء ليسوا مواطنين وبالتالي ليس لهم الحق في الحكم أو حتى في اختيار الحاكم ، والنوع الثاني هو الديمقراطية غير المباشرة أو الديمقراطية الحديثة(Démocratie représentative) حيث ينوب عن الشعب ممثلون منتخبون من طرفه ، وهذا الشكل من الحكم نلاحظه خاصة في الدول الغربية ، وإذا كان هذا هو المفهوم العام للديمقراطية ، فماهو مفهوم كارل بوبر للديمقراطية ؟ وماهي نظرته لنظام الحكم السياسي ؟

يستبعد كارل بوبر أي إمكانية للتركيب بين المجتمع المغلق والمجتمع المفتوح ، وبالنسبة له فإنه لا يوجد سوى شكلين من الحكومة : حكومة استبدادية وطاغية أو حكومة ديمقراطية ، وعلى عكس الاستبداد فان الديمقراطية تسمح بالإزالة السلمية للمسؤلين ، أي الحكومة ، لهذا فإن المشكل الأساسي في السياسة ليس هو (من يجب أن يحكم ؟) - كما ذهب إلى ذلك أفلاطون - بل هو (كيف يمكننا التقليل من الضرر الذي يتسبب فيه المسؤلون السيئون والفاشلون وكيف يتم تعويضهم ؟) ، وبتعبير آخر المشكلة ليست هي معرفة من يجب أن تكون له السلطة ، ولكن هو كيفية تقييد هذه السلطة .

إن الديمقراطية البوبرية تتجسد - أولا وقبل كل شيء - في دولة القانون على الطراز الليبرالي ، وهي لا تتوافق مع الحكومة التي يقودها الشعب ، ولكنها حكومة تحاكم من طرف الشعب أثناء الانتخابات الديمقراطية ، وبالنسبة له فان هذه النظرية « لا تنشأ من فكرة أن حكومة الأكثرية جوهريا هي أمر جيد وصحيح ، ولكن تنشأ من فكرة أن الاستبداد سيء ، وتستند على قرار تجنبه ومقاومته »[1] ، ونفهم من هذا أن دفاع بوبر عن الديمقراطية ليس رغبة ذاتية بل باعتبار أنها أقل صور الحكومات شرا ، أو أنها أقل الأنظمة سوءا ، أي أن سمو الديمقراطية لا ينشأ من ايجابيتها ولكن من مدى قدرتها على تحييد العنف ، ويقدم كارل بوبر أيضا فكرة مضمونها أن الدولة الديمقراطية لا يجب أن تركز على الجوانب الايجابية وإنما دائما على الجوانب السلبية ولهذا السبب يقترح تعويض مبدأ (السعادة القصوى) بمبدأ

[1] - **Popper Karl, La société ouverte et ses ennemis, vol 1, oP.Cit, p, p, 106, 107.**

(التقليل من المعاناة والشقاء) كما كتب أنطوني كوينتون « يختلف مفهوم بوبر للمنفعة اختلافا بينا عن مفهوم بنثام و جون استيوارت ميل ، ويتمثل هذا الاختلاف في جانبين أساسيين : أولهما يتمثل في أنه ينظر إلى المنفعة من منظور السلب لا الإيجاب بمعنى أنها تعني عنده تقليل المشقة والمعاناة وليس زيادة البهجة والسعادة ، أما ثانيهما فيتمثل في أنه يطرح أفكاره في هذا المجال لا باعتبارها حقيقة نهائية قابلة للمعرفة اليقينية ، ولكن باعتبارها نوعا من الاقتراحات أو التوجهات التي ينبغي أن نتجه إلى تحقيقها »[1] .

ونفهم من هذا أن سياسة بوبر هي سياسة الأقل ضرر ، أي أن بوبر لا يحلم بتحقيق الكمال التام بل يأمل فقط في تحقيق تفادي الآلام والحد من انتشار البؤس بقدر الإمكان « علينا أن نعمل على إزالة الشر الملموس بدلا من العمل على تحقيق الخير المجرد »[2] ، وأن الديمقراطية في نظره ليست هي حكم الشعب بل هي مجموعة من المؤسسات مجندة ضد كل ماهو ديكتاتوري أو استبدادي ، وهي مؤسسات ترفض الطغيان وتقاوم من أجل الحريات الخاصة والعامة وتسعى جاهدة للحد من العنف ، فالديمقراطية هي : « إمكانية التخلص من الحكومة دون إراقة دماء متى أخلت بواجباتها أو متى حكمنا على سياستها بأنها فاشلة أو سيئة »[3] ، وقد علق على ذلك أنطوني كوينتون قائلا : « ان أهم ما في الديمقراطية في رأي بوبر أنها تتيح للجماهير المحكومين فرصة تغيير حكامهم بدون الحاجة إلى العنف ، ومن هنا نجد أنه يعرف الديمقراطية بأنها مشروع تأسيسي من شأنه أن يعمل على حل التناقضات القائمة في المجتمع من خلال الحوار العقلاني لا من خلال العنف والإكراه »[4] .

وهكذا استطاع بوبر تفنيد السؤال الأفلاطوني بخصوص : من يجب أن يحكم ؟ فإذا كان جواب أفلاطون الأفضل هو الذي يصلح للحكم فان بوبر « إن هذا كان كذلك جواب كل من

[1] - أنطوني دي كريسبيني وكينيت مينوج ، أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة ، مقالة ، أنطوني كوينتون ، ص74 .

[2] - Popper Karl, La société ouvert et ses ennemis, vol 2, Op.Cit, p 215.

[3] - بوبر كارل ، الحياة بأسرها حلول لمشاكل ، ص 231 .

[4] - أنطوني دي كريستيني و كينيت مينوح ، مقالة لانطوني كوينتون ، ص 84 .

موسليني وهتلر »[1] ، وهو السؤال نفسه الذي لم يتغير منذ أفلاطون حتى ماركس الذي أعاد طرحه بنفس الصياغة : من يجب أن يحكم ؟ العمال أم الرأسماليون ؟ وكان جواب ماركس طبعا هو العمال ، لذا اقترح بوبر استبدال المشكلة الأفلاطونية بمشكلة أخرى تختلف عنها تماما : هل هناك شكل من أشكال الأنظمة تسمح لنا بالتخلص من حكومة فاشلة أو سيئة ؟ ، وقد كان جواب بوبر عن هذا السؤال كالتالي: « الديمقراطية هي التي تمكننا من خلع حكومة دون إراقة دماء »[2] ، ويشير بوبر إلى أن هناك طرق مختلفة من أجل تغيير حكومة ما ، وأفضل تلك الطرق هو التصويت على شكل انتخاب أو استفتاء ، حيث يمكن للشعب أن يسقط الحكومة ، « أهم شيء في كل أشكال الحكومة هو قدرتنا على خلعها من دون إراقة الدماء ، قبل أن تتولى حكومة أخرى زمام الحكم ، وليس مهما جدا كيف يتم هذا الخلع - بواسطة انتخابات أم بواسطة قرار برلماني - مادام الأمر يتعلق بقرار أغلبية الناخبين ، ممثلي هؤلاء ، وأيضا قضاة المحكمة الدستورية ، لا يوجد هناك حدث يبين بوضوح كالطابع الديمقراطي للولايات المتحدة من حيث أن استقالة الرئيس ريتشارد نيكسون كانت في الواقع عزلا »[3] .

ويميز بوبر بين الديمقراطية بوصفها سيادة شعبية والديمقراطية بوصفها محكمة شعبية، ويرى أن القول بأن الديمقراطية سيادة شعبية هي مجرد مغالطة « إن كلمة الديمقراطية التي تعني حكم الشعب (سيادة الشعب) هي مع الأسف خطيرة ، كل فرد من أفراد الشعب يعرف تماما أنه لا يحكم ، ومن هنا لديه انطباع بأن الديمقراطية تعتبر نوعا من الاختلاس والنصب والاحتيال ، وهنا يكمن الخطر ، إن الديمقراطية منذ العصر الأثيني هي الاسم التقليدي الذي نطلقه على دستور يمنع قيام ديكتاتورية أو طغيان ، وأن الديكتاتورية والطغيان هي أسوء

1- **Popper Karl et Konrad Lorenz, l'avenir sont ouverts, traduit de l'allemand par Jeanne Ettore, Flammarion 1990, p 170.**

2 - **Ibid, p 170.**

3 - **بوبر كارل ، خلاصة القرن ، ص 76 .**

الأشياء مثل مانراه اليوم في الصين ، بحيث أنه لا يمكن التحرر منها دون إراقة دماء »[1] ، لذلك يرى بوبر أن المفهوم الصحيح للديمقراطية هو « إن الديمقراطية هي محكمة الشعب »[2] ، أي أن بوبر يفضل أن يكون معنى الديمقراطية هو المحكمة الشعبية وليس السيادة الشعبية ، والفرق بينهما بالنسبة لبوبر ليس فرقا لفظيا بل هو فرق في النتائج التطبيقية ، لأن القول بأن الديمقراطية هي محكمة الشعب يساعد على تخلص الشعب بطريقة سلمية من الحكومة الفاشلة والسيئة « إذا كنت مع فكرة أن الشعب يجب أن تكون له سلطة إقالة الحكومة ، فلأنني لا أعرف أفضل طريقة لتجنب الطغيان »[3] . وبالتالي فإن الغرض من الانتخابات - حسب بوبر - ليس هو تشكيل حكومة جديدة بقدر ما هو حكم على الحكومة السابقة.

وهكذا نستنتج أن هناك في الواقع شكلان من أشكال الدولة : شكل يمكن فيه التخلص من الحكومة دون سفك دماء وذلك عن طريق التصويت ، وشكل آخر لا يمكن أن يحدث فيه هذا « اعتدنا تسمية الشكل الأول للدولة " الديمقراطية " والثاني " الديكتاتورية " أو " الحكم الاستبدادي "»[4] ، كما أن بوبر لايعتبر الديمقراطية غاية في حد ذاتها ولاهي أفضل أنظمة الحكم ، وإنما هي في نظره مجرد أداة سياسية تسمح للشعب بمراقبة عمل الحكومة وخلعها إن دعت الضرورة إلى ذلك دون سفك للدماء ، ولا شك أنها لا تخلو من نقائص كثيرة ، « وحتى مقولة أن الديمقراطية هي محكمة الشعب كما أدافع عنها ، ناقصة ، وأن العبارة المجازية التي قالها ونستون تشرشل Winston Churchulle تنطبق عليها " الديمقراطية هي أسوء أشكال الحكم باستثناء جميع الأشكال الأخرى " »[5] ، وبذلك يكون بوبر قد تجاوز السؤال الأفلاطوني من يحق له الحكم ؟ إلى سؤال مختلف عنه جذريا: كيف يمكن تصور

[1] - بوبر كارل ، خلاصة القرن ،ص 90.

[2] -المصدر نفسه، ص 91.

[3] - المصدر نفسه، ص 92.

[4] - بوبر كارل ، الحياة بأسرها حلول لمشاكل ، ص214 .

[5] - بوبر كارل ، خلاصة القرن ، ص 92 .

تنظيم الدولة بصفة تسمح لنا بالتخلص من الحكومة الفاشلة والسيئة من دون إراقة دماء؟ ، ونستنتج أيضا أن معظم أفكار بوبر هي أفكار ذات توجه ليبرالي ، ولكنه توجه مختلف عن توجهات الليبراليين الكلاسيكيين من أمثال جون استيوارت ميل Jhon Stuart Mill (1873 – 1806) ، وذلك لأن بوبر اعتمد مبدأ (أقل قدر ممكن من المعاناة) مقابل مبدأ ميل (أكبر قدر من السعادة) .

الحرية: (Liberté) في الفرنسية (Freedom) في الانجليزية .

للحرية في اللغة العربية عدة معاني منها كما ورد في المعجم الفلسفي لجميل صليبا: « الحر ضد العبد، والحر من الأشياء أفضلها، ومن القول أو الفعل أحسنه، إذا أطلقت على الإنسان نقول : حرر العبد ، أي خلصه من الرق أو أعتقه ، وإذا أطلقت على شيء مادي كقولنا ذهب حر ، أي خالص من الشوائب »[1] .

أما اصطلاحا فلها كذلك عدة معاني سياسة واجتماعية وعلمية ،« ففي المعنى السياسي والاجتماعي تنص كل القوانين والمواثيق الدولية الحديثة والمعاصرة على الحرية منها إعلان حقوق الإنسان الفرنسي الصادر سنة 1789 الذي ورد في المادة 11منه مايلي: إن حرية الإعراب عن الفكر والرأي أثمن حقوق الإنسان ، ولكل مواطن الحق في حرية الكلام والكتابة والنشر ، على أن يكون مسؤولا عن عمله في الحدود التي يعينها القانون ، وورد في المادة 29 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان : يخضع الفرد في ممارسة حقوقه وحرياته للقيود التي يعينها القانون »[2] ، ويستخدم مصطلح الحرية مجازا في الفيزياء « السقوط الحر : هبوط الجسم نحو مركز الأرض بسرعة متناسبة مع ثقله إلا إذا صادف في طريقه عائقا يمنع سقوطه »[3].

[1] - صليبا جميل، المعجم الفلسفي، الجزء الأول، ص 461.

[2] - المرجع نفسه ، ص462 .

[3] -المرجع نفسه ، ص462 .

وفي الاصطلاح الفلسفي فان الحرية هي « ضد القسر والإكراه ، أي هي انعدام القيود »[1]،ويعرفها أغلب الفلاسفة « القدرة على اختيار الإرادة لأفعالها بعيدا عن أي ضغط داخلي أو خارجي »[2] ، وانطلاقا من هذا كان موضوع الحرية أحد أقدم وأهم وأعقد المشكلات الفلسفية، حيث كان محل اهتمام وبحث من طرف الفلاسفة خاصة في الفلسفة القديمة والحديثة وكان التساؤل الأساسي هو: هل الإنسان مسير أم مخير ؟ ، وفي هذا اختلف الفلاسفة اختلافا شديدا منهم من يثبت الحرية للإنسان ومنهم من ينفيها عنه ومنهم من وقف موقفا وسطا، أما في الفكر الفلسفي المعاصر ونظرا لتغير المعطيات العلمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية فان مشكلة الحرية لم تعد مجرد مشكلة ميتافيزيقية بل أصبحت مشكلة مرتبطة بواقع وحياة الإنسان في كافة المجالات أي أنها أصبحت مشكلة عملية أكثر منها مشكلة ميتافيزيقية ، ويعتبر كارل بوبر من أهم الفلاسفة المعاصرين من حيث اهتمامه بهذا الموضوع ، فما هو مفهوم الحرية وماهي حدودها عند كارل بوبر ؟

كانت مشكلة الحرية من بين الاهتمامات الأساسية لكارل بوبر ، وذلك لأنه كان داعية للمجتمع المفتوح ، وهو مجتمع ليبرالي أي مجتمع حر يقوم على الديمقراطية وهذه الأخيرة تقوم على الحرية ، أي أن المجتمع المفتوح الذي يدعوا إليه بوبر يفسح المجال لحرية التعبير والنشر والتغيير الديمقراطي السلمي ، وقد تناول بوبر الحرية في بعدها الأخلاقي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي .

على المستوى الأخلاقي نجد كارل بوبر يمجد الحرية وينظر اليها نظرة تعظيم مركزا خاصة على حرية الفكر « دون تبادل فكري حر لا توجد حرية فعلية،فنحن في حاجة لآخرين لنجرب أفكارنا عليهم ، أي لنرى ما إذا كانت أرائنا وجيهة ، المناقشة النقدية هي أساس الفكر الفردي الحر»[3] .

[1] - صليبا جميل، المعجم الفلسفي، الجزء الأول، ص 462.

[2] - المرجع نفسه، ص 464.

[3] - بوبر كارل ، الحياة بأسرها حلول لمشاكل ، 172 .

أما على المستوى السياسي فانه لا يخفى على أحد أن الحرية شرط من شروط الديمقراطية لأنه لا يمكن للديمقراطية أن تكتمل كمفهوم دون الحرية ، ولا تتحقق واقعيا دون تحقق الحرية ، ولهذا فان مختلف أنواع الحرية كحرية التعبير وحرية الاجتماع وحرية الصحافة وغيرها كلها حريات لايمكن تصور الديمقراطية بدونها ، والواقع يؤكد وجود ترابط وثيق بين الديمقراطية والحرية وذلك من خلال المطابقة بين البلدان الحرة في العالم والبلدان الديمقراطية فيه،هي مطابقة تؤدي إلى اكتشاف أن البلدان الديمقراطية هي البلدان الحرة والبلدان الأقل حرية هي البلدان الأقل ديمقراطية وفي هذا يقول بوبر : « بدون الحرية السياسية فان حرية الفكر غير ممكنة »[1] ، ويقول أيضا « تكون الدولة حرة من الناحية السياسية عندما تسمح مؤسساتها السياسية لمواطنيها أن يغيروا حكومة قائمة دون سفك دماء ، وذلك متى كان هذا الفعل رغبة الأغلبية »[2] ، ومعنى ذلك أن الشعب يكون حرا متى كان بإمكانه التخلص من حاكمه السيئ أو الفاشل دون إراقة دماء .

ولكن بوبر يحذر من الحرية المطلقة ويعتبرها مفهوما مدمرا ، لأنه في حالة نزع كل القيود عن الحرية فإنها تؤدي إلى نقيضها أي إلى الفوضى والتعسف ، لأنه لن يكون هناك أي شيء يوقف القوي من استعباد الضعيف خاصة على المستوى الاقتصادي « الحرية المطلقة لكل فرد غير ممكنة بالمرة لمجموعة تحيا معا ، إذ متى كنت حرا في فعل كل ما أريده فان هذا يعني أنني حر أيضا أن أسلب الآخرين حريتهم »[3] ، وهنا يقصد بوبر خاصة الحرية الاقتصادية وما يترتب عنها من نتائج منها طغيان واستغلال الغني للفقير ، وبذلك لا يبقى معنى لحرية الفقير وفي هذا يقول أنطوني كوينتون : « إن بوبر يؤيد بوجه عام وضع الضوابط والتحفظات على النظام الرأسمالي التقليدي " دعه يعمل دعه يمر" لا بقصد التقليل من التفاوتات الاقتصادية فقط ، ولكن قبل ذلك من أجل تأمين الحرية الاقتصادية للعمال »[4] ،

[1] - بوبر كارل ، الحياة بأسرها حلول لمشاكل ،ص 172.

[2] - المصدرنفسه، ص 176.

[3] - المصدر نفسه، ص 175.

[4] - أنطوني دي كرسبيني وكينيت مينوح ، أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة ، ص 84 .

وهنا تظهر حاجة الأفراد إلى الدولة حسب بوبر « الدولة ضرورية لحماية الحرية الإنسانية ، رغم أن وجودها يقتطع بالضرورة جزءا من هذه الحرية ، إلا أن المرء يفضل العيش منقوص الحرية في ظل الدولة طالما أنها تضمن له ما تبقى من حريته »[1] .

هنا تتضح معالم البرنامج والمشروع السياسي لكارل بوبر ، فهذا المشروع لا يتأسس على الدفاع عن قيم مجردة ولا يهدف إلى إقامة الجنة على الأرض والى عالم خال من الشقاء وتغمره السعادة - كما يحلم بذلك فلاسفة اليوتوبيا - بل يهدف هذا المشروع إلى الحد من الآلام والبطالة والعنف والفقر والبؤس والجهل ، لذلك يفضل بوبر الديمقراطية لأنها تمكننا من تفادي العنف وفي هذا يقول : « نحن لا نختار الحرية السياسية لأنها تعدنا بهذا أو ذاك نحن نختارها لأنها تجعل الشكل الكريم الوحيد للتعايش الإنساني ممكنا ، الشكل الوحيد الذي يمكن أن نكون فيه مسؤولين عن أنفسنا مسؤولية كاملة »[2] ، ويقول أيضا : « لا ينبغي أن نختار الحرية السياسية لأننا نأمل حياة مريحة ولكن لأن الحرية نفسها تمثل القيمة النهائية التي لا يمكن ردها إلى قيم مادية »[3] .

وهكذا نستنتج أن الحرية عند بوبر لا تعني فقط مجرد إزالة العوائق والقيود، بل على العكس من ذلك فهو يقرر أن قدرا معينا من تدخل الدولة وسيطرتها ضروري لتأكيد وتأمين المعنى العملي للحرية ، ولا تعني أيضا السعادة المطلقة وانعدام الألم والشقاء بل على العكس من ذلك فان الحرية قد تتضمن عكس ذلك تماما وفي هذا يقول بوبر : « عندما كانت انجلترا تحارب وحدها من أجل الحرية عام 1940 لم يعد تشرشل الانجليز بالنصر فلقد قال : لا أستطيع أن أعدكم سوى بالدموع والدماء، ولقد كانت هذه كلماته التي منحت انجلترا الشجاعة للاستمرار في الحرب »[4] .

---

[1] - أنطوني دي كرسبيني وكينيث مينوج ،أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة، ص 85.

[2]- بوبر كارل ، الحياة بأسرها حلول لمشاكل ، ص 197 .

[3]- المصدر نفسه ، ص 178 .

[4]- المصدر نفسه ، ص ، ص ، 165 ، 166 .

ب ـ المطلب الثاني : المسؤولية والتسامح

بعد تحليل مفهومي الديمقراطية والحرية ننتقل الآن إلى تحليل مفهومين آخرين هما المسؤولية والتسامح واللذين كانا أيضا من أهم المفاهيم التي كانت محل اهتمام وبحث من طرف كارل بوبر ، فماذا تعني المسؤولية والتسامح عند بوبر ؟ وماهي العلاقة الموجودة بينهما ؟

المسؤولية : (Responsabilité) في الفرنسية ، و(Responsability) في الانجليزية

« تعني المسؤولية في اللغة التبعة ، فنقول : أنا بريء من مسؤولية هذا العمل ، أي لا أتحمل نتائجه »[1] ، ولا يختلف كثيرا المعنى الاصطلاحي والقانوني عن المعنى اللغوي حيث يعرفها لالاند « هي واجب أدبي ، معنوي ، منصوص أو غير منصوص عليه في القانون لإصلاح الأذى الذي ألحق بالغير »[2] ، أي أن المسؤولية هي إلزام الفرد بإصلاح الخطأ الواقع على الغير طبقا للقانون ، أو هي إلزام الفاعل بتحمل نتائج فعله ، وإذا كان هذا هو المفهوم العام للمسؤولية ، فماهو مفهومها عند كارل بوبر ؟

بحث كارل بوبر في مشكلة المسؤولية ، خاصة المسؤولية الأخلاقية للسياسيين والمثقفين والعلماء ، حيث قال في هذا المجال : « المستقبل مفتوح إلى حد كبير ، فهو يعتمد علينا جميعا ، يعتمد على ما نفعله نحن وأناس آخرون ، وما سوف نفعله اليوم وغدا وبعد الغد ... لا يعني هذا بالنسبة لنا جميعا سوى مسؤولية كبيرة »[3] ، وقد سبق لنا أن تحدثنا عن المسؤولية على المستوى السياسي من خلال بحثنا في المجتمع المفتوح والديمقراطية والحرية ، وذلك لأن المجتمع المفتوح باعتباره مجتمعا ليبراليا يقوم على الديمقراطية والحرية يجب أن يتحمل كل مواطن فيه مسؤوليته أمام الجميع ، وقد أكد بوبر كثيرا خاصة

[1] ـ صليبا جميل، المعجم الفلسفي، ص 369.

[2] ـ لا لاند أندري ، موسوعة لالند ، الجزء الثالث ، ص 1217 .

[3] ـ بوبر كارل ، الحياة بأسرها حلول لمشاكل ، ص 247 .

على مسؤولية رجال الدولة أي الحكام « رجل الدولة يجب أن يكون حكيما ... لذا يجب عليه أن يتواضع كثيرا... لأنه مسؤول مسؤولية كبيرة عن الحرب والسلام والفساد »[1] ، كما تحدث بوبر عن مسؤولية المثقف ودوره في المجتمع ، حيث تقع على عاتقه مسؤولية السلام والحقيقة الموضوعية والحكمة والأمل في مستقبل مفتوح « إنني لا أريد أن أقوم بمحاسبة واسعة للمثقفين ، وإنما أريد أن أدعوهم إلى الاعتراف بمسؤولياتهم تجاه الإنسانية والحقيقة لأن حريتنا تسمح لنا بقول كل شيء »[2] ، وقد استرعى انتباهنا في كلام بوبر عن المسؤولية هو تركيزه خاصة على المسؤولية الأخلاقية للعلماء ، ودلك باعتبار العلم سلاح ذو حدين ، فهو إما أن يخفف عن الإنسان المعاناة والألم والفقر وإما أن يزيد في شقاءه وتعاسته وألمه وقلقه ، أي أن مسؤولية العلماء تختلف عن مسؤولية أي مواطن عادي من حيث أهميتها وثقل حجمها « في السابق لم يكن العالم يلتزم إلا بمسؤولية واحدة ، ألا وهي مسؤولية البحث عن الحقيقة ، أما اليوم فان مسؤولية العلماء عن أبحاثهم أصبحت ثقيلة جدا »[3] ، وبما أن المبدأ الأخلاقي الأعلى عند كارل بوبر هو تقليل المعاناة فهو يركز خاصة على أن تكون مهمة العلم هي نشر السلام أولا ، أي يجب ألا يكون العلم في خدمة العنف والحروب والصراعات رغم اعترافه بصعوبة ذلك « الالتزام الخلقي للعالم هو أن ينسحب من أي مجهود حربي وأن يناصر نزع السلاح »[4] ، وهنا يحمل كارل بوبر خاصة المسؤولية للمختصين في العلوم الاجتماعية « تناط بعالم العلوم الاجتماعية مسؤولية خاصة لأن دراسته تكون معنية مباشرة باستخدام وسوء استخدام القوة »[5] ، وفي حديثه عن المسؤولية فان كارل بوبر وكعادته يعود إلى التراث اليوناني ليستلهم منه ويذكرنا بالقسم الأبقراطي (نسبة إلى الطبيب اليوناني

[1] - بوبر كارل ، خلاصة القرن ، ص 88 .

[2] - المصدر نفسه، ص، 97.

[3] - بوبر كارل ، أسطورة الإطار: في دفاع عن العلم والعقلانية ، ص ، ص ، 149 ، 150 .

[4]- المصدر نفسه ، ص 154 .

[5]- المصدر نفسه ، ص 157 .

أبقراط) المتعلق بممارسة الطبيب لمهنته وحفظ أسرار مرضاه وإتقانه لصنعته[1] ، ويهدف كارل بوبر من وراء ذلك إلى صياغة صورة حديثة لتعهد من طرف العلماء مماثل للقسم الأبقراطي حتى يكون العلم في خدمة السلام والأمن والمجتمع ويقلل من معاناة الإنسان ، وهذا يذكرنا بالقسم الطبي لباستور أيضا " لا يهمني لون المريض ولا جنسه ولا دينه ولكن ما يهمني أن أخفف آلامه " ، وقياسا على هذا يجب أن يكون كل العلماء مهما كان مجال اختصاصهم .

وخلاصة القول حول موضوع المسؤولية عند كارل بوبر هو أن الإنسان مهما كان موقعه في المجتمع تقع على عاتقه مسؤولية أخلاقية كبيرة « المسؤولية الخلقية إنما هي قارب كلنا منه بدرجات متفاوتة »[2] ، ولكن بوبر يشدد خاصة على مسؤولية العلماء والمثقفين، وقد رأينا في المباحث السابقة كيف أنه يحمل بعض المفكرين من أمثال أفلاطون وهيغل وماركس مسؤولية ظهور الأنظمة الشمولية والديكتاتورية ، فهو يحمل المثقفين مسؤولية كل ما حدث وما يحدث وما سيحدث من شرور ، « نحن المثقفين الذين بغرور وكبرياء قمنا ونقوم بأسوأ الأشياء ، نحن الذين لهم واجب خاص إزاء أولئك الذين لم يتعلموا، نحن خونة الفكر أو الروح كما قال المفكر الفرنسي الكبير جوليان بوندا Julien Benda ... نريد أن نظهر وأن نتحدث لغة غير مفهومة لكنها مبهرة جدا... أخذناها من أساتذتنا الهيغليين والتي نجدها عند كل الهيغليين »[3] ، ويضيف قائلا بشأن مسؤولية المثقفين « إن الأضرار التي تسببنا فيها في الماضي كانت أضرارا مرعبة ، ولكن منذ ذلك الوقت أي منذ أن أصبحنا أحرارا في قول كل شيء وكتابة كل شيء ، أصبحنا أكثر مسؤولية ، لقد كتبت ذات مرة حول اليوتوبيا الأفلاطونية ، على أن الذين اقترحوا أو ابتدعوا فكرة الجنة على الأرض قد

[1] -بوبر كارل ، أسطورة الإطار : في دفاع عن العلم والعقلانية ،ص 146.

[2] - المصدر نفسه ، ص146 .

[3] - بوبر كارل ، خلاصة القرن ، ص94 .

تسسببوا كذلك في الجحيم أو لم يحدثوا إلا الجحيم ، فهناك كثير من المفكرين المتحمسين لجحيم هتلر »[1] .

التسامح: (Tolérance) في الفرنسية (Tolerance - Allowance -Toleration) في الانجليزية .

المفهوم اللغوي للتسامح : ورد في لسان العرب : « سمح ، سمحا وسماحا وسماحة ، كان كريما سخيا وكان متساهلا ، السماح والسماحة هي الجود ، والمسامحة هي المساهلة ، تسامحوا أي تساهلوا »[2]

المفهوم الاصطلاحي للتسامح : قد انتقل هذا المصطلح من الفكر اللاهوتي إلى الفكر الفلسفي، فهو كان يعني التسامح الديني « وهو موقف الذين لا يتشددون في الدين ويظهرون عدم التعصب ويحترمون عقائد الآخرين، فهو سمة خلقية دينية »[3] ، ثم ظهر هذا المصطلح بقوة في الفكر الفلسفي الحديث خاصة مع الفيلسوف الانجليزي جون لوك John Locke (1632 – 1704) الذي كتب عدة رسائل في التسامح وذلك نتيجة الظروف التي كان يمر بها المجتمع الانجليزي آنذاك من اضطرابات دينية وحروب أهلية « إن التسامح بين أولئك الذين يعتقدون عقائد مختلفة في أمور الدين يتسق تماما مع العهد الجديد الذي أتى به المسيح ويتماشى تماما مع مقتضيات العقل الإنساني الحق »[4] ومعنى ذلك أن التسامح عند لوك هو صفة أخلاقية و دينية ترفض الاضطهاد والاستبداد العقائدي واستخدام القوة ، لأن المسيحية قابلة للتعددية على ضوء الحب وحرية الضمير ، ويعرفه الفيلسوف الفرنسي أندري لالاند في موسوعته الفلسفية « هو احترام ودي لآراء الآخر ذلك باعتبارها مساهمة في الحقيقة

[1] - بوبر كارل ، خلاصة القرن ،ص 95.

[2] - ابن منظور، لسان العرب (المحيط)، المجلد الثاني، مادة سمح، ص 198.

[3]- صليبا جميل، المعجم الفلسفي، الجزء الأول، ص 271.

[4] - لوك جون ، رسالة في التسامح ، ترجمة منى أبوسنة ، المجلس الأعلى للثقافة ، الإسكندرية ، ط1 ، 1979 ، ص 23 .

الشاملة ... والتسامح ليس هو التخلي عن قناعات المرء أو الامتناع عن إظهارها أو الدفاع عنها أو نشرها بل يقوم على امتناعه من استعمال جميع الوسائل العنيفة والقمع ...»[1] .

المفهوم الإجرائي للتسامح : وقد أصبح يدل الآن على قبول اختلاف الآخرين سواء في الدين أو العرق أم السياسة ، وعدم منع الآخرين من أن يكونوا الآخرين وإكراههم على التخلي عن أخريتهم ، وخلاصة القول أن التسامح هو مطلب إنساني نبيل دعت إليه كافة الأديان والقوانين الدولية المعاصرة عملا بالحكمة الالاهية ، ويقوم على (لا للاضطهاد ، نعم للمحبة والسلم والحرية في المعتقد) ، هذا عن المفاهيم المختلفة للتسامح ، فماهو مفهوم وموقف كارل بوبر منه ؟

كانت مشكلة التعصب والعنف والتسامح وضرورة قبول الآخر من أهم المشكلات السياسية والأخلاقية التي اهتم بها بوبر ، وقد استأنس بوبر في دراسته لمشكلة التسامح بمقولة مأثورة عن فولتير(Voltaire) يقول عنها بوبر أنه لم يقرأ ما هو أروع منها في هذا المجال « التسامح هو النتيجة الحتمية لإدراكنا أننا لسنا معصومين من الخطأ ، البشر خطاءون ، ونحن نخطئ طوال الوقت »[2] ، وهذا اعتراف من بوبر أننا كلنا ميالون لارتكاب الخطأ ، ولذا يجب أن نسامح بعضنا بعضا ونتسامح مع جنون بعضنا البعض ، كما أن التسامح في نظر كارل بوبر ليس قضية ظرفية وعابرة ترتبط بزمان أو مكان معين ، بل هو الشرط الذي لابد منه لإنسانية الإنسان ، وما أعداء التسامح سوى أعداء الإنسان ، ويربط كارل بوبر بين التسامح والديمقراطية الغربية ويعتبره أساسا من أسسها ، ويرى أن مجتمعات الغرب المفتوحة يؤمن مواطنوها بالتسامح أكثر من إيمانهم بالديمقراطية ، وكان كارل بوبر يؤكد دائما على الحكمة المشهورة " إنني قد أكون على خطأ وقد تكون أنت على صواب " ، ومذكرا دائما بخطورة الفكرة القائلة " أنا من هو على صواب دائما " لأنها هي التي تؤدي إلى التعصب والعنف واللاتسامح .

[1] - لالاند أندري ، موسوعة لالاند ، الجزء الثالث ، ص 1461 .

[2] - بوبر كارل ، من أجل عالم أفضل ، ص 231 .

لقد كان كارل بوبر يمقت العنف والتعصب ، حيث كان في فكره السياسي يهدف بوضوح إلى محاربة العنف ، وكان يصرح في كتاباته عن ذلك علنا « أناس كثيرون يمقتون العنف ويعتبرونه من أهم الشرور التي يجب العمل على التقليل منها قدر الإمكان ، ويأملون ذلك ، وأنا واحد من أعداء العنف ومتفاءل بتخليص الإنسانية منه »[1] ، وقد لاحظنا - فيما سبق - أن من الأولويات الفكرية على المستوى السياسي عند بوبر هو إيجاد طريقة للتداول على السلطة دون عنف ، ولا شك أن هذا هو أحد الخصائص التي يتميز بها النظام الديمقراطي ، لذلك يمكن القول أن محاربة العنف كانت من الاهتمامات الأساسية في الفكر البوبري ، فهو لم يكتف بإدانة العنف والتعصب بل حاول أن يجد له حلولا مساهمة منه في تخليص البشرية من آثاره المدمرة ، ومن هذه الحلول استخدام الحوار والعقلانية « أنا عقلاني لأنني أرى أن العقلانية هي السبيل الوحيد لوقف العنف قدر الإمكان »[2]، وهنا يتضح أن العقلانية عند كارل بوبر لا ينبغي النظر إليها على أنها نزعة مضادة للنزعة الامبريقية ولكن العقلانية بالنسبة لبوبر هي موقف أخلاقي شبيه بالموقف الأخلاقي لكانط ، أي أن العقلانية النقدية لكارل بوبر هي اختيار أخلاقي عميق ، ولا أود القول من خلال ذلك أن المفاهيم السياسية البوبرية هي أخلاق متعالية كما هو الشأن- عند كانط - بل أود القول أن الطموح الأخلاقي هو محطة نهاية المطاف في آفاق فلسفة بوبر ، أي أنه أراد أن يؤسس نسقا أخلاقيا إنسانيا على الطريقة الكانطية ، أي أن العقلانية هي موقف يجعل الإنسان في مواجهة شاملة مع العنف « إن المعنى الذي أعطيه لمفهوم العقلانية ، هو أن يتخذ كل شخص قرارا بالحوار من أجل التواصل مع الآخرين ، وهذا أفضل من استخدام العنف والقوة ، لأن التهديد والعنف ليس دعاية فعالة »[3] ، ومع ذلك يرى بوبر أن هناك ظروفا

[1]-**Popper Karl, conjectures et réfutations, oP.Cit, p 517.**

[2]**- Ibid, p 518.**

[3]**-Ibid, p 518.**

استثنائية محددة تبرر استخدام العنف « الشيء الوحيد الذي يمكن أن يبرر القليل من العنف هو عندما يكون النظام الديمقراطي مهددا »[1] .

وهكذا نستنتج أن التسامح عند بوبر مسؤولية تشكل عماد حقوق الإنسان لكنه ليس مبدءا مطلقا ، لأن التسامح مع غير اللامتسامحين ينسف فكرة التسامح من أساسها ، وموقفه هنا شبيه بموقفه من الحرية حينما رأى أن إطلاق الحرية للجميع يعني ببساطة إتاحة الفرصة أمام الأقوياء للفتك بحرية الضعفاء .

وعلى ضوء تحليلنا للمفاهيم السابقة أي الديمقراطية والحرية والمسؤولية والتسامح من منظور بوبر نستنتج أن كارل بوبر يربط من جهة بين الديمقراطية والحرية بحيث لا يمكن أن يكون المجتمع ديمقراطيا دون حرية ولا يمكن أن تكون هناك حرية خارج نطاق المجتمع الديمقراطي ، ويربط من جهة أخرى بين المسؤولية والتسامح وركز في هذا الإطار خاصة على المسؤولية الفكرية .

وهكذا نصل إلى نهاية الفصل الثاني من بحثنا، والذي نخرج منه بالنتائج التالية:

- إن الأطروحة الأساسية في المشروع الفلسفي السياسي لكارل بوبر التي ظل يدافع عنها طوال مشواره الفكري هي أطروحة المجتمع المفتوح الذي يتأسس على مجموعة من القيم الليبرالية مثل الديمقراطية والحرية والمسؤولية والتسامح والتعددية الدينية والعرقية والفكرية ، ويتجلى ذلك بوضوح في قوله « إن المستقبل مفتوح ومن ثم فنحن مسؤولين على فعل الأفضل دائما وجعل المستقبل أفضل من الحاضر ، ولكن هذه المسؤولية تفترض الحرية ... فالحرية السياسية هي أكثر القيم السياسية أهمية، لذا يجب أن نكون على استعداد دائم للنضال من أجل الحرية السياسية، فالحرية من الممكن دائما أن تضيع، ولا يجب أن نعتقد أنها مضمونة »[2] .

[1] - **Popper Karl, La société ouverte, et ses ennemis, vol2, oP.Cit, p 103.**

[2] - **بوبر كارل ، الحياة بأسرها حلول لمشاكل ،ص285 .**

- إن هدف كارل بوبر من فلسفته السياسية والاجتماعية ليس هو الوصول إلى نظام يعيش فيه الناس في أفضل حالة – كما قد يتوهم البعض – وإنما هدفه هو البحث عن نظام يعيش فيه الناس في ظروف أقل سوءا .

هذه إذن هي أهم الأسس التي يتأسس عليها المشروع السياسي لكارل بوبر الذي اشتهر بنظرية المجتمع المفتوح التي عرضها في كتابه الشهير (المجتمع المفتوح وأعداؤه) الذي عبر فيه عن موقفه النقدي السياسي من خلال تحليله ونقده لفلسفة أفلاطون وهيغل وماركس واقتراحه لنموذج وتنظيم اجتماعي وسياسي جديد أطلق عليه اسم " المجتمع المفتوح" .

الفصل الثالث

III– الفصل الثالث : العلاقة النسقية بين المشروع السياسي والمشروع الابستمولوجي

مدخل

1 ـ المبحث الأول : كارل بوبر من الابستمولوجيا إلى السياسة

أ- المطلب الأول: المشروع السياسي امتداد للمشروع الابستمولوجي

ب ـ المطلب الثاني: الهندسة الاجتماعية تقنية سياسية

2 ـ المبحثالثاني:: قراءة نقدية في فلسفة كارل بوبر

أ- المطلب الأول: قراءة نقدية في المشروع الابستمولوجي

ب ـ المطلب الثاني : قراءة نقدية في المشروع السياسي

3 ـ ما بعد فلسفة كارل بوبر

أ ـ المطلب الأول : ما بعد فلسفة العلم البوبرية

ب ـ المطلب الثاني: ما بعد الفلسفة السياسية لبوبر

الخلاصة.

III – الفصل الثالث : العلاقة النسقية بين المشروع السياسي والمشروع الابستمولوجي.

مدخل: بعد أن تعرفنا في الفصل الأول على الخصائص العامة للمشروع الابستمولوجي ، وفي الفصل الثاني على الخصائص العامة للمشروع السياسي في فلسفة كارل بوبر ، ننتقل في هذا الفصل إلى **دراسة العلاقة النسقية بين المشروعين** ، وهنا لأدعي أنني توصلت إلى نتائج يقينية حول هذه المسألة وإنما تبقى محاولتي مجرد خطوة أولى في طريق البحث وتبقى الأفكار المتوصل إليها بحاجة إلى توسيع وتعميق ، كما يتضمن هذا الفصل مبحثين آخرين ، أحدهما هو **قراءة نقدية في فلسفة كارل بوبر العلمية والسياسية** ، والآخر هو محاولة لتجاوز فلسفة كارل بوبر بعنوان **ما بعد فلسفة كارل بوبر** ، وذلك انطلاقا من التساؤلات التالية : هل يمكن اعتبار فلسفة كارل بوبر السياسية امتدادا واستمرارا لفلسفته العلمية ؟ وماهو النموذج الفكري الذي تتقاطع فيه السياسة مع الابستمولوجيا والعلم عند كارل بوبر ؟ والى أي مدى كان بوبر وفيا في مواقفه السياسية اتجاه القضايا التي عاصرها إلى أفكاره الابستمولوجية والسياسية التي ظل يبشر بها طوال حياته ؟ .

1 ـ المبحث الأول : كارل بوبر من الابستمولوجيا إلى السياسة

أ ـ المطلب الأول : المشروع السياسي امتداد للمشروع الابستمولوجي

إن القراءة المتمعنة لأعمال كارل بوبر تكشف وتثبت أن المفاهيم السياسية والابستمولوجية في فلسفة بوبر مترابطة ولا غنى لنا عن واحدة منهما في فهم العقلانية النقدية لكارل بوبر ، فالعقلانية النقدية تتميز بكونها تمثل وجهة نظر كارل بوبر ومشروعه الفلسفي العام ، وفي هذا الإطار يرى بوبر أن العلم يقتضي ضمنيا مجتمعا مفتوحا والمجتمع المفتوح لا غنى له عن العلم ، وهنا يمكننا أن نقول إن فلسفة كارل بوبر السياسية هي امتداد واستمرار لفلسفته العلمية ، فكيف ذلك؟ و ما هي الدوافع والأسباب التي دفعت كارل بوبر إلى الربط بين السياسة والابستمولوجيا والعلم ؟ .

لقد سبق وأن أشرنا [في المطلب الثاني من المبحث الأول من الفصل الأول] إلى العوامل الأساسية التي ساهمت في تبلور ثقافة كارل بوبر والتي تحدثنا فيها عن تأثره بالفكر الاشتراكي في بداية مساره الفلسفي والسياسي وكيف انقلب ضده إلى أشد المدافعين عن الليبرالية ، كما تحدثنا عن تأثره بالثورة العلمية التي أحدثها ألبرت أنشتاين ، ويمكننا أن نضيف هنا دوافع وأسباب أخرى يمكن استنباطها من أعمال بوبر نفسه .

فمن الأسباب التي كان لها أثر كبير أيضا في تحديد التوجهات الفكرية والسياسية لبوبر هو اندلاع الحرب العالمية الأولى وما واكبها من إعلام موجه جعل النمسا وألمانيا وهما الدولتان المعتديتان دولتين ضحيتين للعدوان وهو ما جعل الرأي العام الشعبي يقع ضحية هذا التضليل الإعلامي قبل أن تظهر الحقيقة ، فأثر هذا تأثيرا عميقا في نفسية بوبر وفي هذا يقول :« كان عمري اثني عشر سنة حين اندلعت الحرب العالمية الأولى ، وسنوات الحرب كان لها انعكاس وتأثير هام على فكري الأكاديمي ، وأصبحت ناقدا وحذرا عند قبولي الأفكار بصفة عامة والأفكار السياسية بصفة خاصة »[1] .

ولا شك أن الرعب المتصاعد من النازية والفاشية في فترة ما بين الحربين العالميتين دفع بوبر إلى تعميم عقلانيته النقدية على العلوم الاجتماعية ، وهذه المساهمة حددها في اثنين من أهم كتبه (بؤس الايديولوجيا ، والمجتمع المفتوح وأعداؤه) حيث نقل بوبر منهجه الخاص بالعلوم الطبيعية إلى المشاكل السياسية والاجتماعية ، لذلك يمكن اعتبار (المجتمع المفتوح وأعداؤه) تعبيرا عن لحظة وعي التقت فيها الروح العلمية مع السياسة ، حيث شدد بوبر على ضرورة الربط بين السياسة والعلم « هناك توازي بين طريقة النظر إلى المشاكل الأخلاقية والمنهجية التي دافعت عنها في **منطق الكشف العلمي** »[2] .

[1] **-Popper Karl, la quête inachevée, oP.Cit, p 25.**

[2] **- Popper Karl, la société ouverte et ses ennemis, vol 1, OP.Cit, p240**.

ونلاحظ من خلال تتبع أعمال كارل بوبر أن فلسفته السياسية ترتكز على فلسفته العلمية لأنه يعتبر الحياة عملية متصلة من حل المشكلات ، وحل هذه المشكلات يستلزم الطرح الجريء للحلول المقترحة التي يجب أن توضع على محك الاختبار النقدي لاستبعاد الحلول الفاشلة والأخطاء ، والمجتمع الأصلح في نظر بوبر هو المجتمع الذي يسمح بالاختلاف ويصغي إلى شتى الآراء ويتبع المنهج النقدي في تطوره وتقدمه ، فكل إجراء سياسي هو فرضية يجب اختبارها في الواقع وتصويبها على ضوء النتائج المحققة في الميدان ، ويرى بوبر أن تلمس الأخطاء بالفحص النقدي المسبق هو إجراء أكثر عقلانية وأقل تكلفة وأقل إهدارا للجهد والوقت من الانتظار حتى نصطدم بالأخطاء في التطبيق ، وهنا يقارن بوبر بين المجتمعات الليبرالية التي حققت تقدما كبيرا في كل المجالات لأنها تقوم على تعدد الآراء والاختلاف والحرية والنقد والمجتمعات الديكتاتورية التي تقوم على الرأي الواحد ويمنع فيها النقد فتقع في أخطاء فادحة وبالتالي تبقى رهينة التخلف في كافة المجالات، أي أن من أبرز نقاط الالتقاء والتقاطع بين السياسة والعلم في فلسفة بوبر - كما لاحظ ذلك - مصطفى عادل هو المنهج النقدي وفي هذا يقول:« لا وجود لليقين في السياسة مثلما هو لا وجود له في العلم، ومن ثم فإن فرض وجهة واحدة من الرأي هو أمرلا مبرر له ، وأسوأ صور المجتمع هي تلك المجتمعات التي لا تسمح بالمعارضة ، فالنقد هو الطريق الرئيسي الذي يمكن فيه تنقيح السياسات قبل تنفيذها ، وملاحظة النتائج غير المرغوبة هي أوجب سبب لتعديل هذه السياسات أو نبذها » .[1]

وهنا نلاحظ أن كارل بوبر استطاع أن يفند الرأي الشائع والقائل أن منطق العقل ومنهج العلم يستلزم مجتمعا منظما تنظيما مركزيا لا انقسام فيه ولا تعدد ويثبت أن هذا الرأي بالإضافة إلى أنه يترتب عليه نظام استبدادي وتسلطي فانه يرتكز على تصور خاطئ للعلم فمنطق العلم ومنهجه يستلزم مجتمعا مفتوحا وتعدديا يسمح بالتعبير عن مختلف وجهات النظر المتعارضة ، مجتمع يتمتع فيه كل مواطن بحرية البحث في المشكلات الاجتماعية

[1] - مصطفى عادل ، كارل بوبر مائة عام من التنوير ونضرة العقل ، ص 236 .

والسياسية والاقتصادية وحرية اقتراح الحلول التي يقدمها الآخرون ، مجتمع تتغير فيه سياسات الحكومة على ضوء المراجعة والفحص النقدي ، **فاختبار السياسات كاختبار النظريات العلمية يجب أن يكون تكذيبيا .**

وهكذا نجد أن الابستمولوجيا التطورية لا تنحصر في المجال العلمي فقط بل تمتد إلى العلوم الاجتماعية والمجال السياسي لأن بوبر يذهب إلى تعميم منهجه العلمي المطبق في العلوم التجريبية إلى العلوم الاجتماعية بما في ذلك الميدان السياسي حيث يعتبر الممارسة السياسية بمثابة نظرية يجب أن تخضع بدورها للاختبار والتصحيح وبذلك يصبح التفنيد ضروري في السياسة كما هو ضروري في العلم ومعنى ذلك أنه يجب على السيــاسي التسليم بأنه لا يمكنه القيام بعمل سياسي خال من العيوب ، وفي هذا يقول بوبر :« إن الطريق الوحيد للاقتراب من المنهج العلمي في السياسة هو التسليم في أعمالنا بأنه لا يمكن القيام بعمل سياسي خال من العيوب أو عمل لا تترتب عليه نتائج غير مرغوب فيها ، ولكن الترصد لهذه الأخطاء هو ما ينبغي أن يتعلمه السياسي العملي والعالم السياسي على حد سواء »[1] .

وقد أشار مصطفى عادل إلى وجود علاقة أساسية بين السياسة والعلم عند كارل بوبر حين قال:« درج الباحثون على تناول أعمال كارل بوبر الابستمولوجية والعلمية والاجتماعية كما لو كانت منفصلة لا يجمع بينها شيء ولا تتصل فيما بينها بسبب ، وقد كان لهم في تعدد إنتاجه وغزارة مادته عذر واضح ، غير أن هذه الطريقة في معالجة أعمال كارل بوبر جديرة أن تضيع الخيط الواصل بين جميع عناصرها ، وجديرة من ثم أن تفلت من أيدينا أهم عمل من أعمال بوبر على الإطلاق ، ذلك الترابط الكلي الوثيق ، وتلك الوحدة المنهجية الأصيلة»[2] .

[1] - بوبر كارل ، بؤس الايديولوجيا ،ص 101 .

[2] - مصطفى عادل ، كارل بوبر مائة سنة من التنوير ونضرة العقل ، ص 10 .

كما أشارت يمنى طريف الخولي إلى الاتساق والترابط الموجود في فلسفة كارل بوبر من منطلق أنه فيلسوف جمع بين العلم والسياسة في منهجه النقدي وفي هذا تقول : « يرى بوبر أن النقد هو حياة كل نشاط عقلي سواء أكان معرفيا يهدف إلى الحقيقة أم سياسيا يهدف إلى العدل والمساواة والحرية والسلام ، أو حتى مجرد نشاط حيوي يهدف إلى حل أية مشكلة»[1].

وخلاصة مطلبنا هذا هو أن يكون في السياسة ما في العلم ، أي أن هناك تلازما بين فلسفة العلم ورأي بوبر السياسي (بين القابلية للتفنيد والمجتمع المفتوح) ، لأنه إذا كان الموقف العلمي نقديا فان الموقف السياسي كذلك ، وعلى ضوء هذا يمكننا أن نقول إن الفلسفة السياسية الليبرالية لكارل بوبر تتأسس على فلسفته العلمية ، ولكن ماهو النموذج الفكري الذي تتقاطع فيه السياسة مع العلم عند بوبر ؟

ب ـ المطلب الثاني: منهج الهندسة الاجتماعية الجزئية والإصلاح السياسي

ماهو النموذج الفكري الذي تلتقي فيه السياسة بالعلم في فلسفة كارل بوبر ؟ وهل تحقيق المجتمع المفتوح يتم بالثورة أم بالإصلاح ؟

تعتبر فكرة الهندسة الاجتماعية الجزئية من أهم الأفكار الفلسفية التي تلتقي فيها السياسة بالعلم عند كارل بوبر ويقصد بوبر بهذا المصطلح « استخدم عبارة الهندسة الاجتماعية الجزئية للدلالة على التطبيق العملي لنتائج التكنولوجيا الجزئية ... والهندسة الاجتماعية الجزئية تشبه الهندسة الفيزيائية ... وكما أن المهمة الأساسية للمهندس الفيزيائي هي تصميم الآلات وتجديد أنواعها والقيام على خدمتها وإصلاحها، فكذلك تقوم مهمة المهندس الاجتماعي الجزئي على تصميم النظم الاجتماعية الجديدة وتشغيل وإعادة تركيب ما هو

[1] ـ الخولي يمنى طريف ، فلسفة كارل بوبر : منهج العلم ... منطق العلم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1989، ص 524.

موجود قبلا ...»[1] ، ويفهم من هذا أن الهندسة الاجتماعية الجزئية أو المتدرجة هي منهج إصلاح اجتماعي تدريجي ، وهذا المنهج أو البرنامج السياسي يستند بصفة كاملة على طريقة المحاولة والخطأ التي استعارها بوبر من مبدأه الابستمولوجي (التكذيب وتصحيح الأخطاء) ، حيث يوظف بوبر هذا المبدأ لنقد وتفنيد المذهب التاريخي ونظرته اليوتوبية التي ينادي بها أولئك الأنبياء المزيفون (أفلاطون – هيغل – ماركس) كما يسميهم بوبر .

ومعنى هذا أن كارل بوبر يستعمل مصطلح الهندسة الاجتماعية الجزئية أو التدريجية في مقابل الهندسة اليوتوبية ، علما أن مصطلح اليوتوبيا نحته المفكر الانجليزي توماس مور Thomas More (1478 – 1553) وجعله عنوانا لكتاب يعد من أشهر كتب اليوتوبيا في العصر الحديث ، وقد ركب هذا المصطلح من كلمتين يونانيتين هما (OU) بمعنى (لا) و (TOPOS) بمعنى مكان،ولكنه أسقط الحرف (O) وكتب الكلمة باللاتينية (UTOPIA) للتعبير عن مجتمع مثالي بلغ القمة في السعادة أي أنها أصبحت تدل على السعادة ، وأصبحت فيما بعد تطلق على كل تصور سياسي خيالي لا يمكن تحقيقه إطلاقا في الواقع[2] ، وقد كان لهذا المصطلح حضورا قويا في فلسفة بوبر ، حيث خصص فصلا كاملا في كتابه الشهير (المجتمع المفتوح وأعداؤه) بعنوان (النزعة الجمالية والنزعة الكمالية واليوتوبيا)، ويقصد بوبر بالنزعة اليوتوبية تلك الفلسفات التي تدعو إلى التغيير الجذري للمجتمع ، أي إعادة بناء وتشكيل مجتمع جديد بعد هدم المجتمع القديم ، وهذا ما يتضح خاصة في الفكر الماركسي الذي يسعي إلى تشييد نظام اجتماعي لا طبقي ، وقد عمل كارل بوبر على نقد المشروع اليوتوبي لماركس الذي يدعي العلمية وهو أبعد ما يكون عنها ، ويعتبر بوبر الماركسية من بين أخطر أنواع اليوتوبيا لأنها تدعو إلى الثورة والعنف .

---

[1] - بوبر كارل ، بؤس الايديولوجيا ، ص ، ص، 80 ، 81 .

[2] - برنيري ماريا لويزا ، المدينة الفاضلة عبر التاريخ ، ترجمة عطيات أبو السعود ، مراجعة عبد الغفار مكاوي ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، 1997 ، ص 7 .

وتستند اليوتوبيا على الكمال والجمال ويعتقد أصحابها أنه بمقدورهم بناء الجنة على الأرض حيث يرسم الفيلسوف أو السياسي لوحة فنية جميلة تتضمن مخططا لبناء مجتمع مثالي خال من العيوب « هذا الاتجاه اللاعقلاني الذي ينبثق من الافتتان بأحلام عالم جميل هو ما أسميه النزعة الرومانسية ... تبشر بالتقدم نحو عالم الحب والجمال، بيد أن جاذبيتها تكون موجهة إلى عواطفنا أكثر من عقولنا... وأفضل النوايا لإقامة الجنة على الأرض إنما تنجح فقط في جعلها جحيما »[1] ، ومعنى ذلك أن المسعى لإقامة الجنة على الأرض قد يؤدي إلى إقامة جهنم والدولة الديكتاتورية الاشتراكية خير شاهد على ذلك - حسب بوبر - .

وعليه حسب بوبر فإن الهندسة اليوتوبية أو الهندسة الكلية التي تهدف إلى التغيير الجذري والراديكالي أو ما يعرف بالمنهج الثوري كما هو في التصور الماركسي يشكل خطرا على البنية الاجتماعية والثقافية والسياسية حيث ينقلب الحلم بالجنة على الأرض إلى كوارث اجتماعية كالانغلاق والتعصب والعنف والحرب ، ومنه يمكن القول أن بوبر لا يؤمن بالنهج الثوري بل يؤمن بمنهج الإصلاح التدريجي الذي أطلق عليه اسم **الهندسة الاجتماعية الجزئية** التي خصص لها مبحثا خاصا في كتابه(بؤس الايديولوجيا) وتحدث عنها كثيرا في مختلف فصول ومباحث هذا الكتاب وغيره من كتبه .

وخلافا للمنهج اليوتوبي والثوري فان بوبر يدعو إلى تبني هندسة اجتماعية جزئية إصلاحية لاثورية لاعتبارات علمية وابستمولوجية، لأنها تتوافق مع الطبيعة الإنسانية الناقصة والنهائية والمحدودة لأننا بشر غير معصومين من الخطأ ولا يمكننا أن نبني الجنة على الأرض وليس بإمكاننا تأسيس مؤسسات سياسية واجتماعية كاملة ومثالية لا عيب ولا نقص فيها، ومهمتنا تتمثل في الاعتراف بأخطائنا وتحمل مسؤوليتها وتصحيحها وأخذ الدروس والعبر منها وتجنبها في المستقبل « المنهج العلمي في السياسة معناه أن نطرح عنا ذلك الفن العظيم الذي نوفق بواسطته إلى إقناع أنفسنا بأننا لم نقترف خطأ من الأخطاء

[1] - بوبر كارل ، المجتمع المفتوح وأعداؤه ، الجزء الأول ، ص168 .

وسترها ولوم الآخرين عليها ، فلنستبدل بهذا الفن فنا أعظم يساعدنا على تحمل مسؤولية أخطاءنا لمحاولة التعلم منها والإفادة من هذا العلم في العمل على تجنبها في المستقبل »[1] .

ويتضح من هذا أن الهندسة الاجتماعية الجزئية هي منهج أو برنامج سياسي إصلاحي يختلف اختلافا جذريا عن البرامج السياسية الكلية الشاملة التي تقوم على الدوغمائية وعدم مشاركة جميع الحساسيات السياسية والاجتماعية في النقاش حول مشروع المجتمع ، وتحكم الدولة في وسائل الإعلام لتوجيه الرأي العام ، واستخدام السلطة العنف ضد المعارضة ، كما هو ملاحظ في تاريخ ديكتاتورية الدولة الماركسية في الاتحاد السوفياتي ودولة الرايخ الثالث الهتلرية ودولة موسوليني الفاشية وغيرها .

وتعتبر نظرية الهندسة الاجتماعية الجزئية أيضا من أهم نقاط الاختلاف بين كارل بوبر وأقطاب مدرسة فرانكفورت (النظرية النقدية) من أمثال أدرنو وهابرماس ، فبوبر يستخدم العقلانية النقدية وسياسة خطوة خطوة ليتفادى العنف والتغيير الراديكالي بينما كان أصحاب مدرسة فرانكفورت ذو توجه هيغيلي وماركسي « كان أدرنو هيجيليا بالمثل ماركسيا ، وأنا معارض لكلا الاتجاهين للماركسية وبوجه أخص للهيغيلية »[2] ، وهذا معناه أن كارل بوبر يعتبر أدرنو نموذجا يمثل امتدادا هيغيليا ماركسيا ، يوتوبيا تاريخيا ، ووجه له نقدا شديدا ، فالخلاف بين بوبر ومدرسة فرانكفورت هو خلاف منهجي، الإصلاح الجزئي مقابل الثورة ، فبوبر يعارض منهج الهندسة الكلية بمنهج جديد أسماه الهندسة الجزئية التي تترجم موقفه الابستمولوجي القائل إننا نتعلم من أخطائنا ، وبالتالي فإن منهج المحاولة والخطأ منهج يرافق كل مشاكل الإنسان سواء أكانت علمية أو اجتماعية أو سياسية .

وهكذا نستنتج أن كارل بوبر استطاع أن يجمع بين السياسة والعلم والابستمولوجيا وذلك من خلال نزعه للصفة العلمية عن فلسفات أفلاطون وهيغل وماركس وغيرهم بتطبيقه

[1] - بوبر كارل ، بؤس الايديولوجيا ، ص 101 .

[2] - بوبر كارل ، أسطورة الإطار : في دفاع عن العلم والعقلانية ، ص 104 .

للمنهج العلمي ذاته عليها من جهة وبيان خطورة هذه الفلسفات على المستوى السياسي والاجتماعي من جهة أخرى ، فوراء مثالية أفلاطون وهيغل ووراء المجتمع اللاطبقي لماركس تختفي دعوة خطيـرة للشمولية والتوليتارية والفاشية والنازية والديكتاتورية ، وفي هذا يقول انطوني كوينتون: « إن نظرية بوبر في الإصلاح التدريجي للمجتمع تشبه في بعض جوانبها نظريته في المعرفة العلمية فالعلم لا يصل إلى حقائق نهائية دفعة واحدة ولكنه يقترب من الحقائق شيئا فشيئا من خلال التراكم التدريجي للنظريات ومناهج البحث التي يتلافى كل منها أخطاء المراحل السابقة ، ومع هذا فان بوبر لا يكن كراهية للتغيير الثوري في مجال المعرفة العلمية مثلما يكن الكراهية للتغيير الثوري في مجال المجتمع ، وذلك لأن الثورة العلمية لن تكون بطبيعة الحال مجالا لسفك الدماء ... [أما الثورة في المجال الاجتماعي] فإنها كثيرا ما أسفرت عن نتائج دموية مدمرة لم تكن في حسبان المخططين لها »[1] ، وعليه فإن العلم والسياسة عند بوبر وجهان لقطعة نقدية واحدة اسمها العقلانية النقدية ، والنموذج الفكري الذي تلتقي فيه السياسة والعلم عنده هو الهندسة الاجتماعية الجزئية أو المتدرجة، والتي يمكن اعتبارها تقنية سياسية لإصلاح المجتمع خطوة خطوة وليس دفعة واحدة كما يعتقد فلاسفة اليوتوبيا وأتباعهم من السياسيين ، وعلى هذا الأساس يمكننا القول أن المشروع السياسي لكارل بوبر يتأسس على المشروع الابستمولوجي .

[1] - أنطوني دي كريسبيني وكينيت مينوج ، أعلام الفلسفة السياسية ، مقالة لأنطوني كوينتون ،ص 82 .

2 ـ المبحث الثاني : قراءة نقدية في فلسفة كارل بوبر

أ ـ المطلب الأول : قراءة نقدية في فلسفة كارل بوبر العلمية

ارتأينا أن نخصص مبحثا من عملنا هذا لقراءة نقدية في فلسفة كارل بوبر العلمية والسياسية، وذلك لأن النقد كما يقول أحد المفكرين « هو روح الفلسفة إذا خلت منه صارت كالعين التي لا تبصر واللسان الذي لا ينطق والفؤاد الذي لا ينبض »[1] ، فرغم أن بوبر هو فيلسوف النقد واتبع المنهج النقدي وكان مذهبه العقلانية النقدية فإن هذا لا يجعله بمنأى عن النقد سواء على مستوى الفكر العلمي والابستمولوجي أو على مستوى الفكر السياسي ، وستكون نقطة انطلاقنا في هذه القراءة النقدية من فلسفة العلم ، وذلك انطلاقا من التساؤلات التالية : إذا كان المشروع الابستمولوجي لكارل بوبر يتأسس على معيار القابلية للتكذيب الذي ينص على أن النظريات العلمية على اختلاف فروعها هي فروض تحتمل الخطأ في أية مرحلة من مراحل الاختبار، فهل احتمال الخطأ هذا يشمل معيار القابلية للتكذيب نفسه ؟ وهل اعترف بوبر بنقاط الضعف الموجودة في معيار القابلية للتكذيب أم أمضى حياته يرقعه ويصلحه متشبثا بفكرته ؟

سنتطرق في هذا المطلب لبعض الانتقادات التي وجهت للشق الابستمولوجي والأسس التي يقوم عليها في فلسفة كارل بوبر، وهنا تباينت الآراء حول تقييم فلسفة العلم البوبرية بين التأييد والمعارضة، وبداية يمكن ذكر بعض الآراء التي أيدت هذا المشروع الابستمولوجي ، وفي مقدمة هؤلاء صديقه عالم فيزيولوجيا المخ (سير جون اكسلس Sir John Eccles)* وهو استقرائي كان يسعى للبحث عن معطيات جديدة تؤيد نتائج أبحاثه، وكان يعتقد أن تكذيب أية خطوة من خطوات دراسته يعد فشلا لكل ما قدمه، ولكن بعد أن قابل بوبر واطلع

---

[1] ـ مكاوي عبد الغفار، لم الفلسفة، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1981، ص، 52.

* جون اكسلس (1903 – 1997) عالم فيزيولوجيا استرالي الجنسية حصل على جائزة نوبل سنة 1963 لاكتشافه الوسائل التي تتصل بها النبضات بالخلايا العصبية ، كما اشترك مع بوبر في تأليف كتاب " النفس ودماغها " سنة 1977 . (نقلا عن كارل بوبر ، الحياة بأسرها حلول لمشاكل ، هامش ص 37).

على منهجه التكذيبي تغير موقفه العلمي فيما يخص استراتجيته المنهجية ، ومن ثم وجد حلا للصراع الدائر بين وجهة النظر القائلة إن التهيج العصبي ينتقل من خلية عصبية إلى أخرى بطريقة كيميائية ووجهة النظر الأخرى القائلة إن ذلك يحدث بطريقة كهربائية ، وقد توصل إلى الحل العلمي بواسطة تكذيب أحد هذين الفرضين ، وقال في هذا الصدد : « لقد تعلمت من بوبر أنه عندما يتبين لباحث ما خطأ فروضه الخاصة فان هذا ليس أمرا مخلا بالشرف ، لقد كان هذا أجمل شيء تعلمته حديثا ... فبفضل المذهب البوبري أمكنني برحابة صدر قبول موت فكرتي التي ظللت مقتنعا بها زهاء العشرين عاما ... لقد خبرت أخيرا القوة التحررية لمذهب بوبر في المناهج العلمية »[1] ، وفي الكلمة التي ألقاها عند استلامه جائزة نوبل قال جون اكسلس : « يمكنني الآن أن أشعر حتى الغبطة لتكذيب نظرية كانت عزيزة علي ، إذ أن مثل هذا التكذيب نجاح علمي »[2] ، ومن هنا جاءت نصيحته للعلماء الآخرين بأن يقرؤا ويتأملوا كتابات بوبر في فلسفة العلوم وأن يتخذوا منها أساسا و منهجا في العمل العلمي .

ومن المؤيدين لفلسفة العلم البوبرية أيضا سير هيرمان بوندي Sir Harman Bondi (عالم فلك ورياضي بريطاني من أصل نمساوي1919- 2005) الذي قال : « ليس العلم شيئا أكثر من منهجه ، ومنهجه ليس شيئا أكثر مما قاله بوبر »[3] ، والذي يثير الانتباه أن أغلب المعجبين بفلسفة العلم البوبرية لم يكونوا علماء اجتماعيات وفلاسفة عاديين بل كانوا علماء بارزين في الفيزياء والفلك والرياضيات والفيزيولوجيا على غرار جون اكسلس وسير هيرمان بوندي ، والفرنسي جاك مونو Jaque Monod *(1910 – 1976) الذي نال جائزة نوبل سنة 1965 وترجم كتاب بوبر "منطق الكشف العلمي" إلى الفرنسية وغيرهم .

[1] - كارل بوبر ، الحياة بأسرها حلول لمشاكل ،ص 39 .

[2] - المصدر نفسه ، ص 40 .

[3] - مصطفى عادل ، كارل بوبر مائة عام من التنوير ونضرة العقل ،ص9 .

* جاك مونو، فيزيولوجي فرنسي، تحصل على جائزة نوبل للطب والفيزيولوجيا رفقة مواطنيه فرانسوا جاكوب وأندريه لووف .

ولكن هناك من يعارض المشروع الابستمولوجي لكارل بوبر والأسس التي يقوم عليها وخاصة مبدأ القابلية للتكذيب ورفض الاستقراء ويرى أن مسألة تكذيب نظرية ما هي مسألة معقدة جدا وليست بالصورة التي اقترحها بوبر، لأن المنطق لا يفرض رد النظرية منهجيا في حال تعارضها مع المشاهدة ، إذ من الجائز أن تكون قضية المشاهدة هي المخطئة ، ومن هؤلاء توماس كون Thomas Khun (1922 - 1996) الذي عرض بعض انتقاداته الشديدة للمشروع الابستمولوجي لكارل بوبر في كتـابـه " بنية الثورات العلمية " ، إذ يرى أن وجود شواهد مناقضة لنظرية ما لا يؤدي بالضرورة إلى تفنيدها وفي هذا يقول : « لا يوجد بحث علمي دون شواهد مناقضة ، إذ مالذي يفرق بين العلم السائد وبين العلم في حالة أزمة ؟ ليس السبب يقينا أن الأول لا يواجه شواهد مناقضة ، بل على العكس تماما ، إن ما سميناه الألغاز التي تؤلف العلم السائد إنما توجد فقط لأن أي نموذج إرشادي معتمد لدى الباحثين كأساس البحث العلمي لا يمكن أبدا أن يحل بشكل كامل وتام جميع مشكلات هذا العلم »[1] ، وينظر توماس كون إلى معيار قابلية التكذيب نظرة مليئة بالشك حيث يقول : « الحقيقة أنني أشك في وجود هذه الأخيرة [أي في طريقة التكذيب] ، فكما سبق لي أن أكدت ... فانه لا توجد النظرية التي تحل جميع الألغاز التي تواجهها في وقت بذاته ، كما أن الحلول التي يتم الوصول إليها نادرا ما تكون حلولا كاملة ، بل على العكس فان هذا النقص والتصور اللذين يشوبان المطابقة بين المعطيات والنظريات القائمة هما اللذان يحددان في أي فترة من الزمن كثيرا من الألغاز المميزة للعلم السائد ، ولو أن كل فشل نواجهه في سبيل إثبات هذا التطابق يوجب رفض النظرية لا انتهى الأمر بنبذ جميع النظريات في كل الأزمان »[2] ، وهنا نلاحظ أن توماس كون لا ينفي وجود حوادث متعارضة مع النظريات العلمية ولكنه يرى أن هذا التعارض لا يؤدي بالضرورة بشكل آلي إلى رفض النظريات ، وفي هذا يشبه كون الباحث العلمي بلاعب الشطرنج حين تواجهه مشكلة يتأملها في ذهنه

[1] - كون توماس ، بنية الثورات العلمية ، ترجمة شوقي جلال ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، 1992 ،ص ، ص ، 117 ، 118

[2] - المرجع نفسه ، ص 190 .

ويجرب عديدا من الحركات البديلة بحثا عن حل لمشكلته وهذه المحاولات ليست سوى تجارب ومحاولات خاصة بذاتها فقط دون أن تمتد لتشمل قواعد اللعبة [1] .

وعلى ضوء هذا النقد يتبين الاختلاف الواضح بين كون وبوبر في تفسير تاريخ تطور العلم ، فهما وإن كانا يشتركان في الاعتقاد بأهمية الثورات العلمية المتلاحقة فإنهما يختلفان حيث يبدوا بوبر متطرفا في ثورته العلمية في حين يبدوا كون متحفظا ومتمسكا بمبادئ العلم السائد وقواعده.

كما تعرض موقف بوبر الرافض للاستقراء إلى انتقاد شديد من طرف المعاصرين له من فلاسفة الوضعية المنطقية ومنهم خاصة هانز ريشنباخ ، فإذا كان بوبر يرى أن الاستقراء ليس واقعة سيكولوجية ،ولا هو واقعة حياتية، ولا هواجراء علمي ، بل هو خرافة ، وكان شعاره لا يدخل علينا من كان استقرائيا ، فان ريشنباخ يرد عليه في هذا الصدد قائلا : « إن من يقوم باستدلالات استقرائية يمكن أن يشبه صيادا يرمي شباكه في جزء مجهول من البحر، بحيث لا يعلم إن كان سوف يصطاد سمكا ، ولكن ما يعلمه هو أنه أراد أن يصيد سمكا فعليه أن يرمي شباكه ، وإن كل تنبؤ استقرائي لهو أشبه برمي شبكة في بحر الحوادث الطبيعية ، فلسنا نعلم إن كنا سنحقق صيدا طيبا ولكننا نحاول على الأقل ونستخدم في محاولاتنا أفضل الوسائل المتوفرة لدينا »[2] ، وهذا تأكيد على ضرورة استخدام المنهج الاستقرائي في البحث العلمي حسب ريشنباخ .

وقد تعرض المشروع الابستمولوجي البوبري إلى النقد حتى من طرف تلامذته وأصدقاءه على غرار امري لاكاتوس Imré Lakatos (1922 – 1974) وبول فيرابند Paul Feyerabend (1924 – 1994) فإذا كان لا كاتوس وفيا في بعض مبادئه لأستاذه وبقي واحدا من أتباع العقلانية النقدية ومنهج القابلية للتكذيب وقام فقط بنوع من التعديل والتطوير

[1] - كون توماس ،بنية الثورات العلمية ، ص 188.

[2] - ريشنباخ هانز ، نشأة الفلسفة العلمية ، ص 215 .

لمبدأ القابلية للتكذيب ، فإن فيرابند رسم لنفسه طريقا جديدا يختلف تماما عن منهج أستاذه بوبر [وسنعود إلى تحليل موقف فبرابند في المبحث الموالي حيث وقع اختيارنا عليه كنموذج لتجاوز فلسفة كارل بوبر في المجال الابستمولوجي] .

كما وجهت للمشروع الابستمولوجي البوبري انتقادات عديدة من طرف بعض الباحثين العرب ومنهم على الخصوص الأستاذ علي حرب والدكتورة يمنى طريف الخولي التي تعتبر رائدة في دراسة فلسفة بوبر وعقلانيته النقدية ، وفي هذا الإطار وجه علي حرب انتقادا شديدا إلى معيار بوبر التكذيبي وفلسفته بشكل عام ، فعلى الرغم من الخاصية الثورية التي تهيمن على معيار بوبر ونظرته لتاريخ العلم ، إلا أن علي حرب يرى أنه يخفي وراء هذه الخاصية اعتقادا دوغمائيا نظرا لتمسكه الشديد بمعيار القابلية للتكذيب والدفاع عنه مثل دفاع الشخص الذي يتشبث بحقيقة دينية مطلقة الصدق ، وفي هذا الصدد يقول علي حرب : « أما بوبر فقد تعامل مع رأيه ... بوصفه صوابا لا يحتمل الخطأ ، أي تعامل معه على نحو دوغمائي تعسفي كما تعامل الحقيقة الدينية نفسها ... إنه يطلب منا تصديقه والأخذ بمبدأ التكذيب ... حيث يصبح التكذيب حقيقة الحقيقة ، وحقيقة الحقيقة هي ما يتعالى على الحقائق ويفارق التجارب نحو منطقة الغيب والماوراء وهنا يكمن مأزق بوبر »[1] ، ولتأكيد ماذهب إليه قام علي حرب بإجراء عملية مقارنة بين توجه باشلارالابستمولوجي وتوجه بوبر بوصفه معاصرا له ، فوجد أن ما قدمه باشلار G Bachlard (1884 – 1962) يفوق كثيرا ما قدمه بوبر .

أما يمنى طريف الخولى التي كان لها دراسات عديدة حول فلسفة كارل بوبر ، والتي رغم إعجابها الشديد بفلسفته وتأثرها بها ، فإنها لم تكتف بإبراز النقاط الايجابية في فلسفة بوبر ، حيث استدركت في خاتمة كتابها " فلسفة كارل بوبر : منهج العلم ومنطق العلم " وقالت : « إذا كانت الاستقلالية أهم ما نسجله لبوبر ، فإن ما نسجله عليه هو جموده وثباته ،

[1] - حرب علي، الماهية والعلاقة: نحو منطق تحويلي، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت 1998، ص، ص، 167، 168.

إذ لا يمكن أن نجد له تطورا أو مراحل لتفكيره ، فما يقوله الآن هو ما قاله منذ ثلاثين أو أربعين عاما ، آراؤه الفلسفية واتجاهاته الفكرية في جوهرها ثابتة ، لا تتغير إن قليلا أو كثيرا ، وكل ما يفعله في إخراج عمل جديد هو أن يضيف إثباتا جديدا أو برهانا جديدا لرأيه السابق ... أو يضيف تأريخا لفلسفة أو فيلسوف ، تاريخا جديدا يثبت به وجهة نظره التي لابد أن يكون قد قالها منذ عشرات السنين ويقولها الآن وسيظل يقولها إلى ما شاء الله »[1] ، هذا عن أهم وأبرز الانتقادات التي وجهت للمشروع الابستمولوجي البوبري ، فماذا عن الانتقادات الموجهة للمشروع السياسي ؟

ب ـ المطلب الثاني : قراءة نقدية في فلسفة كارل بوبر السياسية

لم تكن فلسفة كارل بوبر السياسية أقل شأنا وتأثيرا في الأوساط الفلسفية والسياسية من فلسفته العلمية ، حيث لقيت فلسفته السياسية اهتماما كبيرا من طرف الفلاسفة والسياسيين وتباينت آراؤهم حولها بين التأييد من طرف البعض والتحفظ والمعارضة من طرف البعض الآخر، ومن المواقف المؤيدة للفكر السياسي لبوبر ما ذهب إليه مصطفى عادل حين قال : « إننا لأول مرة في تاريخ السياسة الحديثة صرنا نرى أمما عريقة كالصين تأخذ منهج أحد الفلاسفة في تصحيح مسارها الاقتصادي والسياسي ... وصرنا نرى أمما مجهدة مثل دول أوروبا الشرقية تدرس فكره السياسي في معاهدها وتشرع في تطبيقه في بدايات بروزها من وراء الستار الحديدي ، وصرنا نرى أمما مزدهرة كاليابان تؤسس رابطة بوبرية تنشر فكره وتطوره من خلال نشرات ودوريات وبرامج تعليمية »[2]، وقد أرفق مصطفى عادل بحثه هذا بملحق في الجزء الأخير منه بمقال كتبه **رن – زنج كيو**ـ من معهد الأكاديمية الصينية للعلوم

[1] ـ الخولي يمنى طريف ، فلسفة كارل بوبر : منهج العلم ومنطق العلم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1989 ، ص 521 .

[2] ـ مصطفى عادل ، كارل بوبر مائة عام من التنوير ونضرة العقل، ص، ص، 9، 10 .

الاجتماعية حيث قال فيه :« إن مجتمع بوبر المفتوح ذو قيمة كبيرة في الإصلاح السياسي بالصين »[1] .

ومن السمات المميزة لفلسفة كارل بوبر السياسية هو دفاعه المستميت عن القيم الليبرالية وفي مقدمتها الديمقراطية وهجومه العنيف على الأنظمة الشمولية والديكتاتورية ، وفي هذا استطاع بوبر كما يقول مصطفى عادل : « أثبت بوبر بالحجة الدامغة أن المجتمع المفتوح بمؤسساته الحرة وانفتاحه على النقد هو أقدر على أن يجد سبيلا أفضل لحل مشكلاته على المدى البعيد ، فالمؤسسات الحرة تتيح لنا أن نغير رأينا فيما ينبغي أن يكون عليه الحكم وأن نضع هذا التغيير موضع التنفيذ دون إراقة الدماء »[2] .

ولا شك أن كارل بوبر كان محقا تماما في دفاعه عن الديمقراطية وهجومه على الديكتاتوريـة ، حيث يمكننا أن نقول معه إن الديكتاتورية والديمقراطية كلمتان متناقضتان في المعنى ومتعاكستان في الاتجاه ، فالديكتاتورية مليئة بالسكونية والاستبداد بينما الديمقراطية مليئة بالدينامكية والحرية ، وإننا لنتعجب لمن يختار الديكتاتورية ويعيش بها ومعها ، إننا إذا أردنا أن نطبق نظرية البقاء للأصلح والأقوى للعالم الانجليزي داروين - كما فعل بوبر - فإننا بالتأكيد سنجد أمامنا النموذج الديمقراطي ، فالديمقراطية لا تعنى فقط "حكم الشعب " وإنما أكثر من ذلك فهي " مسؤولية الشعب " ومشاركته في صنع السياسات وتنفيذها وتقييمها ، فالديمقراطية ليست مجرد شعار سياسي أجوف وإنما هي سلوك يومي لا يختلف عن سلوك المتعبد .

ولكن هناك اعتراضات كثيرة يمكن توجيهها لآراء كارل بوبر السياسية نقوم بسرد بعضها لكي تكتمل الصورة التي رسمناها لحد الآن لفيلسوف النقد ولكي نعي أن الفلسفة هي بطبيعتها نقد حتى للنقد نفسه .

---

[1] - مصطفى عادل، كارل بوبر مائة عام من التنوير ونضرة العقل ، ص، ص، 201، 202.

[2] - المرجع نفسه، ص 216.

الرد على انتقادات كارل بوبر لأفلاطون وهيغل وماركس :

إن المتتبع لأعمال كارل بوبر خاصة فيما يخص نقده للمذهب التاريخي يلاحظ أن بوبر تجاوز حدود اللباقة الفكرية والذوق الأخلاقي في نقده لأفلاطون وهيغل ، فهو يتهم أفلاطون بخيانة أستاذه سقراط ويحمله مسؤولية نشأة الأنظمة الشمولية والديكتاتورية [كما أوضحنا ذلك في المبحث الأول من الفصل الثاني] ولكن يبدوا أن هذا الكلام يفتقد للدقة والموضوعية التاريخية والعلمية .

ففيما يخص علاقة أفلاطون بأستاذه سقراط فإن معظم مؤرخي الفلسفة ومنهم - على سبيل المثال لا الحصر- وول ديورانت يرون أنه كان لسقراط تأثير كبير وعميق على تفكير أفلاطون ، حيث صاغ أفلاطون فلسفته في شكل حورات وكان سقراط هو الشخصية الرئيسة في هذه الحورات بحيث يصعب أن نميز بين أفكارهما ويصعب كذلك أن نتبين الشخصية الحقيقية لسقراط من خلال تأليف أفلاطون خصوصا وأن سقراط لم يخلف لنا أثرا مكتوبا وأنه كان يفضل التعليم الشفوي لولا أن هناك مصادر أخرى تحدثت عن سقراط ودوره في جمهورية أثينا ، وقد كان لإعدام سقراط أثر كبير في نفسية أفلاطون ، وبما أن النظام الديمقراطي هو الذي تسبب في هزيمة أثينا أمام اسبرطا التي كانت تتميز بالنظام العسكري ، وهو الذي أدى إلى انهيار حكومة أثينا وحلت محلها حكومة استبدادية كانت مسؤولة على محاكمة سقراط وإعدامه فان هذا جعل أفلاطون يتحفظ على النظام الديمقراطي الذي يكون فيه الحكم في يد الشعب وتتحقق فيه العدالة والحرية للجميع في بداية الأمر ولكن بعد ذلك يكثر التنافس وتتصارع الأطماع والأهواء وتعم الانتهازية وتنتشر الأحقاد وتصبح الوقاحة شجاعة وتتحول الحرية إلى فوضى ، ولهذا يسمى أفلاطون الحكم الديمقراطي " حكم الغوغاء " ، هذا الأمر دفعه إلى التفكير في نظام حكم الفلاسفة أو النخبة (المستبد العادل) لتفادي مساوئ الديمقراطية [1] [وهنا نلاحظ اختلافا كبيرا وعميقا بين بوبر وأفلاطون حول

[1] - ديورانت وول ، قصة الفلسفة ، ترجمة فتح الله المشعشع ، مكتبة المعارف ،بيروت، ط5 ، 1985 ، ص : 10إلى 33 بتصرف.

موضوع الديمقراطية] ، وخلاصة القول في هذه المسألة أنه لولا أفلاطون ما تعرفنا على الفكر السقراطي ، فمن أين لبوبر بهذه التهمة ؟ وكيف يتحمل أفلاطون مسؤولية نشأة الأنظمة الديكتاتورية المعاصرة ؟ .

أما فيما يخص نقده لهيغل والذي أفرد له فصلا طويلا في كتابه (المجتمع المفتوح وأعداؤه) فهو يعتبر أقذع نقد في تاريخ الفكر الفلسفي حيث وصفه مصطفى عادل « سباب وقدح لم نعتد رؤيته في الجدال الفلسفي »[1]، ويبدوا الأمر وكأنه صراع شخصي بين بوبر وهيغل رغم أنهما لم يتعارفا ولم يعيشا في فترة واحدة وهذا ما دفع مصطفى عادل إلى القول: « لم يكن مقصد بوبر في هذا الفصل أن يفهم هيغل بل أن يدمره »[2] ، وهنا يتبادر إلى أذهاننا السؤال التالي : إذا كان بوبر يتهم هيغل بالدفاع عن البروسية ، أليس هذا النقد يشمل بوبر نفسه ؟ فإذا تحققت الشهرة لهيغل بسبب دفاعه عن البروسية فإن بوبر تحققت له الشهرة لتبنيه الليبرالية والنظام الحر خاصة بعد سقوط الفاشية والنازية .

أما فيما يخص نقده لماركس فانه كما سبق وأن قلنا [في المبحث الأول من الفصل الثاني] فإن كارل بوبر كان موضوعيا إلى حد كبير في ذلك ، ولكن لا يجب أن نحمل ماركس كل أخطاء دولة الاتحاد السوفيتي سابقا وفي هذا يقول أنطوني كوينتون:« إن الطابع الشمولي الذي يتسم به مجتمع روسيا السوفيتية هو في الواقع وليد أفكار لينين ثم ستالين وليس كارل ماركس ، وعلى سبيل المثال فإن فكرة الحزب الطليعي هو اختراع لينيني خالص ، وأما الهيمنة الشاملة للدولة فهو تطبيق ستاليني »[3] ، ويردف قائلا أيضا :« إن واجب الدقة والأمانة يقتضي وصف العقيدة الرسمية للمجتمع السوفيتي بأنها ماركسية - لينينية أكثر من كونها ماركسية فحسب »[4] ، وعليه فان كارل ماركس لا يتحمل مسؤولية

[1] - مصطفى عادل ، كارل بوبر مائة عام من التنوير ونضرة العقل ، ص ، ص ، 218 ، 219 .

[2] - المرجع نفسه ، ص 219 .

[3] - أنطوني دي كريسبيني وكينيت مينوج ، أعلام الفلسفة السياسية ، مقالة لأنطوني كوينتون،ص 71 .

[4] - المرجع نفسه ، ص 71 .

تصرفات ستالين وغيره من حكام الاتحاد السوفيتي كما يعتقد كارل بوبر ، ولكن الشيء الايجابي هنا هو أن كارل بوبر استطاع أن يفند كل ادعاءات ماركس علميا وسياسيا واقتصاديا إلى الحد الذي قال عنه بريان ماجي Bryan Magee : « إنني لأعرف كيف يمكن لأي عاقل من البشر أن يتفرغ من قراءة نقد بوبر لماركس ويبقى بعد ذلك ماركسيا ؟ »[1]

اعتراضات أخرى على فلسفة ومواقف كارل بوبر السياسية :

هل كان كارل بوبر وفيا لأفكاره الابستمولوجية والسياسية التي ظل يبشر بها طوال حياته في مواقفه اتجاه القضايا الدولية التي عاصرها ؟

تتميز أفكار كارل بوبر إزاء السياسة العالمية وحروب أمريكا بالغرابة والتناقض مع المبادئ التي ظل يبشر بها طوال مساره الفكري والسياسي ، وفي هذا تساءلت يمنى طريف الخولي في مقدمتها الخاصة لترجمة كتاب بوبر (أسطورة الإطار: في دفاع عن العلم والعقلانية) « نجد كارل بوبر بحكم منزعه العلمي التجريبي يكثر في كتاباته الاجتماعية والسياسية من الاستشهاد بالوقائع الحية والحالات الدالة ، ولكن لا يتطرق إلى دولة إسرائيل ذاتها أبدا لا سلبا ولا إيجابا ، مما دعا إلى طرح السؤال : لماذا تمثل إسرائيل المسكوت عنه في الخطاب البوبري »[2] ، ولعل المقارنة بينه وبين بعض المفكرين الغربيين ومنهم - على سبيل المثال لا الحصر - المفكر الأمريكي المعاصر نعوم تشومسكي Noam Chomsky (الذي يشترك معه في الأصول اليهودية) تبين مدى تحيز كارل بوبر إلى الأطروحات السياسية الأمريكية حيث لا يشكك في نوايا أمريكا والتي لا ينبغي حسب رأيه أن ننظر إليها من جهة الدوافع الاقتصادية أو نختزل تحركاتها في البعد الاستراتيجي ، بينما يبدوا نعوم تشومسكي من أهم نقاد السياسة الأمريكية والاسرائلية ومن أشد المدافعين عن القضايا

[1] - مصطفى عادل ، كارل بوبر مائة عام من التنوير ونضرة العقل ،ص 152 .

[2] - بوبر كارل ، أسطورة الإطار : في دفاع عن العلم والعقلانية ، ص 18 .

العربية في الولايات المتحدة الأمريكية [وسنعود إلى موقف نعوم تشومسكي في المبحث الموالي لأنه وقع عليه اختيارنا كنموذج لتجاوز الفكر السياسي البوبري] .

كما اشتهر كارل بوبر بتمجيده المفرط للحضارة الغربية التي يعتبرها من أرقى الحضارات ، فكل شيء حسب رأيه نبع من الغرب ، فالعلم والفلسفة والديمقراطية والقيم الأخلاقية كلها مصدرها اليونان وانتقلت إلى أوربا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية ، فبوبر لديه قناعة كبيرة أن الحضارة الغربية هي الأكثر تحررا وعدلا وإنسانية وأن الغرب هو الجنة على الأرض ، وقد زادت هذه القناعة رسوخا في سنواته الأخيرة خصوصا بعدما رأى انتصار المعسكر الليبرالي على المعسكر الاشتراكي وبداية الهجمة على العالم الإسلامي ، وهنا يبدوا أن كارل بوبر تجاهل أو نسي أن الايديولوجيا النازية والماركسية كان مصدرها الغرب وأن الاستعمار جاء من الغرب أيضا .

ومن المواقف السياسية التي يبدوا فيها كارل بوبر متناقضا تماما مع مبادئه الابستمولوجية والسياسية أيضا هو ما صرح به في حوار له مع المجلة الألمانية الشهيرة دير شبيجل Der Spegel سنة 1992 ، والذي نقتطف منه مايلي :

« شبيجل : هل يجب على الأمريكيين أن يتخذوا خطوة أخرى ضد صدام حسين متى ظهر لهم أنه يصنع القنابل ؟

كارل بوبر : ليس صدام فقط ، في مثل هذه الحالات يجب أن يكون هناك شكل من العمل الجماعي للعالم المتحضر ، ولا معنى للوقوف في مثل هذه الظروف موقفا سلبيا ، يجب أن نشن الحرب من أجل تحقيق السلام »[1] .

وقال أيضا في معرض إجابته عن سؤال آخر :

« شبيجل : من هم الأعداء الجدد للعالم الليبرالي ؟

[1] - بوبر كارل ، الحياة بأسرها حلول لمشاكل ، ص 298 .

كارل بوبر : إن عالما يوجد فيه أشخاص مثل صدام حسين وأمثاله من الديكتاتوريين يكون السلم فيه هدف بعيد المنال ، والحل هو إشعال نار الحرب الدائمة ، ولا يجب علينا أن نتراجع عن القيام بالحرب من أجل السلم »[1] .

لقد صرح كارل بوبر بهذا التصريح سنة 1992 حين دمرت أمريكا العراق وأرجعته إلى ما قبل التاريخ، وهنا نلاحظ أن كارل بوبر لم يوظف مبادئه الابستمولوجيته التكذيبية ولم يترك أي مجال للتثبت والتحقق بل أجاب بطريقة صريحة وواضحة تبين مدى تطرف مواقفه السياسية وانحيازه الواضح لسياسة التدخل في شؤون الغير التي تنتهجها الولايات المتحدة الأمريكية بحجة حماية الأقليات وحقوق الإنسان وغيرها، وهنا يبدوا أن كارل بوبر سبق منظري اليمين الأمريكي من أمثال صامويل هانتغتون S. Huntington صاحب فكرة صدام الحضارات وتلميذه فرنسيس فوكو ياما F. Fukuama صاحب نظرية نهاية التاريخ، حيث أصبحت أفكار بوبر الحرب تصنع السلام والحرب الدائمة وضرورة نشر الديمقراطية بالقوة هي المنهج المطبق من طرف المحافظين الجدد بالولايات المتحدة.

وهناك آراء ومواقف سياسية وشخصية كثيرة لكارل بوبر المشهور بتعصبه للنظام الليبرالي أثارت الاستياء حتى في وسط المثقفين الليبراليين ومنها موقفه خاصة من وسائل الإعلام والتلفزيون أساسا وموقفه من الرأي العام ، حيث دعا بوبر في أكثر من مناسبة إلى ما يتناقض مع مبادئه الليبرالية المحافظة ، وفي هذا الإطار قال عن وسائل الإعلام : « الحقيقة نحن في الغرب نعيش أفضل العوالم التي لم توجد أبدا ولا نستطيع أن نسكت على حقيقة أن وسائل الإعلام هي محل اتهام كبير ، ويجب أن يقتنع أصحابها بأنهم يسببون خسائر خطيرة ويجب إقناعهم على التعاون ، ويجب حث هذه الوسائل على رؤية وقول الحقيقة وإدراك المخاطر التي هم سببها وأن يقوموا مثل كل المؤسسات بنقدهم الذاتي ... ، لأن الأضرار التي يسببونها في الوقت الراهن هي أضرار مهمة وإذا لم يتعاونوا سيكون

[1] - بوبر كارل ، الحياة بأسرها حلول لمشاكل ،ص 297.

مستحيلا أن نبقى متفائلين »[1] ، وهنا نلاحظ أن كارل بوبر يقف موقفا سلبيا من وسائل الإعلام ويدعوا صراحة إلى ممارسة نوع من الرقابة عليها ولا شك أن هذا يتناقض مع الأسس التي يقوم عليها النظام الليبرالي الذي ظل بوبر يدافع عنه ، ولعل الأمر الذي دفع بوبر إلى هذا الموقف هو ملاحظته للآثار السلبية التي تسبب فيها التلفزيون خاصة في الجانب الأخلاقي والتربوي حيث أصبحت برامج القنوات التلفزيونية تتنافس على عرض أفلام الرعب والعنف والجنس مما انعكس سلبا على سلوكات الأطفال والشباب الذين أصبحوا يرون في التلفزيون مصدرا للحقيقة والمعلومات وهو ليس كذلك في الواقع ، لذا رأى بوبر أن التلفزيون أصبح يشكل خطرا كبيرا على تربية الأجيال الصاعدة ، وأصبح منافسا شديدا للكتاب، وهو الأمر الذي أدى إلى تدهور المستوى اللغوي، وهي مشكلة أصبحت تعاني منها حتى الدول المتقدمة ، فماذا كان سيقول بوبر لو عاش عصر الهاتف المحمول والأنترنت ؟

كما رأى كارل بوبر أن التلفزيون أصبح يشكل خطرا كبيرا على الديمقراطية لأنه أصبح له دور كبير في تكوين الرأي العام وأصبحت له سلطة قوية لا بد من إعادة النظر فيها ، وذلك انطلاقا من أن بوبر لا يؤمن بما يسمى في المجتمع الليبرالي بالرأي العام ولا يعترف به وفي هذا يقول :« إن منح صوت الشعب [أي رجل الشارع انتخابه وصوته] نوعا من المرجعية والحكمة غير المحدودة هو أسطورة »[2] ، ولهذا نرى كارل بوبر يحذر من هذا الخطر وفي هذا الإطار يضيف قائلا :« إن الرأي العام له نفوذ كبير ويمكنه تغيير حتى الحكومات غير الديمقراطية وعلى الليبراليين أن ينظروا إلى مثل هذه القوة أو السلطة بعين من الريبة ، وبالإضافة إلى طبيعته المجهولة فان الرأي العام هو شكل غير مسؤول للسلطة وهو إذن أمر خطير خاصة من وجهة نظر ليبرالية »[3] ، وكأن الديمقراطية والانتخاب بهذا

[1] - بوبر كارل ، خلاصة القرن ،ص86 .

[2]-Popper Karl, conjectures et réfutations, Op.Cit, p 506.

[3]-Ibid, p 510.

المفهوم تخص فئة معينة وليس عامة الشعب ، ولا شك أن هذا يتناقض تماما مع مبادئ النظام الليبرالي الذي يدعي بوبر أنه يدافع عنه حتى لقب بشيخ الليبرالية .

هذه إذن أهم الانتقادات التي وجهت إلى فلسفة كارل بوبر بشقيها الابستمولوجي والسياسي ، فماهو الدرس المستفاد من هذه القراءة النقدية ؟

يمكننا القول أنه إذا كان كارل بوبر فيلسوفا ذا منهج نقدي ومارس النقد بقسوة ودون رحمة ضد كل خصومه من كل الاتجاهات الفلسفية والسياسية فانه من الطبيعي أن يتعرض هو كذلك إلى حملة نقد واسعة من طرف كل التيارات والاتجاهات الفلسفية المعاصرة ، وهذا يجعل شخصية كارل بوبر من أهم الشخصيات الفكرية إثارة للجدل في القرن العشرين .

ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أن معظم الانتقادات التي وجهت لبوبر من طرف معاصريه من الفلاسفة كانت تنظر إلى أفكاره على أنها تقع ضمن تيار الوضعية المنطقية ، حيث اشتكى بوبر كثيرا من سوء فهم أفكاره وحاول الدفاع عن نفسه في الكثير من المناسبات وهو يقول في هذا الإطار « لقد تعرضت للنقد بوصفي وضعيا »[1] ، وقد أشار إلى هذا الأمر كثير من الباحثين ومنهم المغربي سعيد بوخليط الذي كتب في مقدمة ترجمته لكتاب العقلانية النقدية لرونيه بوفريس قائلا : « كان باشلار ينظر إلى بوبر على أنه واحد من أقطاب الوضعية المنطقية لذلك كان مخطئا في تقديره »[2] ، كما كان هابرماس من مدرسة فرانكفورت ينظر إلى بوبر على أنه واحد من فلاسفة الوضعية المنطقية وهذا ما أشار إليه سالم يفوت في كتابه (المنحى الجديد للفكر المعاصر) حيث قال : « إن نقد هابرماس للوضعانية يخلط بين الوضعانية المنطقية والفلسفة التحليلية والعقلانية النقدية لكارل بوبر ، فهو يجمع هذه الاتجاهات في سلة واحدة مهملا الفروق بينها والتحولات التي عرفها كل اتجاه خصوصا تجديدات بوبر التي أعطت الوضعانية المحدثة نفسا جديدا وجعلها تتحول

[1] - بوبر كارل ، أسطورة الإطار : في دفاع عن العلم والعقلانية ، ص 93 .

[2] - بوفريس رونيه ، العقلانية النقدية عند كارل بوبر ، مقدمة المترجم ، ص 11 .

معه إلى عقلانية نقدية »[1] ، وبالفعل فان الاتجاه الفلسفي لكارل بوبر يختلف تماما عن الاتجاه الفلسفي للوضعية المنطقية ، ومن بين أوجه الاختلاف بينهما هو أن الوضعية المنطقية كان اهتمامها منصبا على فلسفة العلم فقط ، بينما كان اهتمام بوبر مزدوجا ، أي اهتم بالابستمولوجيا والعلم من جهة وبالقضايا السياسية و الاجتماعية والأخلاقية من جهة أخرى ، ويبدوا أن مقاربة بوبر بين العلم والسياسة هي المسؤولة عن خلق نوع من العداء لأفكاره خاصة من طرف جماعة فرانكفورت ممثلة في أدرنو وهابرماس التي رفضت هذه المقاربة السياسية العلمية والابستمولوجية ، حيث أن النقد الشديد من طرف بوبر لهيغل وماركس قوبل بالرفض والتحفظ من طرف هؤلاء ، وبالتالي يمكن القول أن رفض جماعة فرانكفورت لأفكار بوبر الاجتماعية والسياسة يعود بالدرجة الأولى لأسباب إيديولوجية وليس لأسباب منهجية وموضوعية ، لأن أفكار هيغل وماركس أصبحت بالنسبة إليهم عقيدة يصعب عليهم تجاوزها .

[1] - يفوت سالم، المنحى الجديد للفكر المعاصر، دار الطليعة للنشر، بيروت، ط1، 1999، ص 107.

3 ـ المبحث الثالث : ما بعد فلسفة كارل بوبر

أ ـ المطلب الأول : ما بعد فلسفة العلم البوبرية

النموذج : بول فيرابند Paul Feyerabend (1924 – 1994)[1]* .

شاع أن هذا العصر هو عصر العلم، وتماشيا مع هذه الوجهة من النظر، تكون فلسفة العصر الراهن أولا وقبل كل شيء هي الفلسفة التي تحاول فهم ظاهرة العلم وتبحث في أسسه وخصائصه ومنهجه ، وتحاول حل المشاكل العلمية التي تخرج عن دائرة اختصاص العلماء ، أي تندرج في إطار فلسفة العلم ، ولهذا تعددت المدارس الابستمولوجية ، وقد تناولنا في جانب من هذا البحث فلسفة العلم عند كارل بوبر والتي كانت بمثابة رد فعل على المدارس الابستمولوجية الأخرى كالمدرسة التحليلية ومدرسة الوضعية المنطقية ومدرسة العقلانية التطبيقية والتي تعرف أحيانا بالعقلانية المفتوحة لغاستون باشلار وروبير بلانشي Robert Blanché (1898 – 1975) وغيرها ، ورأينا من خلال ذلك الصراع الكبير الذي جرى بين فلاسفة هذه المدارس .

وقد وقع اختيارنا في هذا البحث على فلسفة العلم لدى بول فيرابند الذي يمثل مدرسة ابستمولوجية خاصة ومتميزة تختلف عن المدارس الأخرى كنموذج نحاول أن نتجاوز به المشروع الابستمولوجي لكارل بوبر ، فمن هو فيرابند ؟ وماهي أهم أوجه الاختلاف بينه

---

[1] *التعريف بشخصية بول فيرابند : ولد بول فيرابند سنة 1924 في فيينا وتوفي سنة 1994 في بريطانيا (وهنا نلاحظ تشابه في ظروف حياته إلى حد ما مع ظروف حياة كارل بوبر ، باعتبار أن كل منهما نمساوي هاجر إلى بريطانيا وعاش متنقلا بينها وبين الولايات المتحدة) ، وبعد أن أكمل دراسته الثانوية التحق بالجيش الألماني ، وقد أصيب سنة 1945 أثناء الحرب العالمية الثانية برصاصة في العمود الفقري أصيب بعدها بشلل في الجزء الأسفل من جسمه تسبب في عدم مقدرته على السير بقية حياته إلا بمساعدة عصا يتوكأ عليها ، وقد تحصل فيرابند على شهادة الدكتوراه سنة 1951 وبعد فترة قصيرة عاش متنقلا فيها بين كوبنهاغن واستكهولم وأوسلو هاجر إلى انجلتره سنة 1952 وأصبح زميلا لكارل بوبر في مدرسة لندن للاقتصاد والسياسة المعروفة (London School of Economics) ، وكانت خطته الأساسية قبل ذلك أن يدرّس مع فتجنشتين الذي رحل عن الحياة قبل ذلك بفترة وجيزة ، وقد عاش فيرابند متنقلا بين لندن والولايات المتحدة حتى توفي سنة 1994 ، ومن أشهر أعماله الفلسفية : (ضد المنهج : خطة لنظرية فوضوية في المعرفة ، والعلم في المجتمع الحر ، ووداعا ياعقل ، وثلاث محاورات في المعرفة ، وغيرها من المؤلفات والمقالات) . المرجع : فيرابند بول ، ثلاث محاورات في المعرفة ، ترجمة محمد أحمد سيد ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ص6 .

وبين بوبر في مجال فلسفة العلم ؟ وإلى أي حد يمكن أن نقول إن فيرابند استطاع تجاوز فلسفة العلم البوبرية ؟

علاقة فيرابند ببوبر :

التقى فيرابند ببوبر أول مرة سنة 1948 ، وقد انبهر فيرابند كثيرا ببوبر وفلسفته وخاصة فكرة مبدأ القابلية للتكذيب وهي الفكرة المحورية في هذه الفلسفة ، واعتبرها فكرة مسلم بها دون نقاش ، غير أن هذا الانبهار لم يستمر طويلا بل تعرض لتغير راديكالي ودرامي فيما بعد إلى درجة يمكننا القول عندها أن جانبا كبيرا من فلسفة فيرابند أصبح مركزا على دحض أفكار بوبر حتى وصل به الأمر إلى اعتبار هذه الفلسفة أكبر عائق أمام تقدم العلم[1] .

كما سبق وأن أشرنا [في القراءة النقدية لفلسفة بوبر العلمية في المطلب الأول من المبحث الثاني من الفصل الثالث] أنه إذا كان امري لاكاتوش وفيا في بعض أفكاره لأستاذه بوبر واعتقد بإمكانيـــة وجـــود منهجية عامة تكون بمثابة المعيـار الشامل الذي يسيـر وفقـه الكشف العلمي مع قيامه بنوع من التعديل البسيط على مبدأ القابلية للتكذيب بغرض استخدامه في مجال الرياضيات ، فإن فيرابند رسم منحى جديد يختلف تماما عن منحى زميله لاكاتوش وعن منحى أستاذه بوبر ، كيف ذلك ؟

نقد فيرابند للعقلانية وتأسيسه للنسبوية :

يبدأ فيرابند تأسيس مشروعه الابستمولوجي الجديد المعروف بالنسبوية اصطلاحا والمشهور بين نقاد فيرابند بالفوضى المنهجية – يبدأ - بتفنيد الإدعاء القائل بشمولية وكلية المنهج أو أي معايير أو قواعد أخرى خاصة بالعلم ، ويتحدث عن نوع من الفوضوية المعرفية ، لأن العلم ذاته في رأيه عمل فوضوي لا منهج له وفي هذا يقول : « العلم أساسا عمل فوضوي ، والفوضوية النظرية أكثر إنسانية من العلم ، ومن المرجح أن تشجع التقدم

[1] - فيرابند بول ، ثلاث محاورات في المعرفة ، ترجمة أحمد محمد السيد ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ص 7 .

أكثـر من البدائـل المنهجيـة المتمثلة في القانـون والنظام »[1] ، ويرى فيرابند أن الفوضى المنهجية هي أفضل علاج لمشكلة العلم المريض ولفلسفة العلم على حد سواء ، ويعتقد أن العلم ليس له منهج خاص يميزه عن أي نشاط فكري آخر ويقول في هذا الصدد : « تواجه فكرة وجود منهج علمي يتضمن مبادئ صارمة لا تتغير وملزمة إلزاما مطلقا صعوبات جمة عند مقارنتها بنتائج البحث التاريخي ، إذ لا توجد قاعدة واحدة مهما بدت ممكنة أو مستندة إلى أسس ابستمولوجية راسخة إلا وتم تجاوزها في وقت من الأوقات »[2] ، وهذا ما أشار له أيضا الأستاذ سواريت ابن عمر في مقالة خاصة بعنوان (نهاية المنهج والحقيقة عند بول فيرابند وإليا برغوجين Ilya Prigogine*) حيث قال في مقدمتها : « إن بول فيرابند وإليا برغوجين يخرجان عن نمطية وقواعد العلم الكلاسيكي ، الذي يؤكد على الوحدة والانسجام، ليضعا محلهما الفوضى والاحتمال ،باعتبارهما خاصيتين من خصائص الطبيعة ، فأصبح العلم المعاصر بدون حقيقة وبدون منهج ، إنها الفوضى في كل خطاباته وموضوعاته وعناصره »[3] ، ويواصل فيرابند نقده لكل الاتجاهات الأخرى في فلسفة العلم مؤكدا على أنه لا يمكن أن توجد قواعد منهجية عامة للبحث العلمي حيث يقول : « إذا تأملنا التاريخ الماضي فسوف نجد أنه في مقابل كل قاعدة نريد الدفاع عنها ، توجد ظروف يتحقق فيها التقدم بكسر هذه القاعدة ، وهذا يعني أن مناهج البحث تقدم لنا في أحسن الأحوال قائمة مشوشة من القواعد التقريبية »[4] .

---

[1] - فيرابند بول ، ثلاث محاورات في المعرفة ، ص 11

[2] - المرجع نفسه، ، ص، ص، 11، 12.

[3] - حمود جمال وآخرون ، الفلسفة بين تعدد المناهج ووحدة الحقيقة ، (مقالة للدكتور سواريت ابن عمر) ، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع ،ط1 ، 2010، ص ، 119 .

[4] - فيرابند بول ، ثلاث محاورات في المعرفة ، ص 21.

*إليا برغوجين ، ابستمولوجي فرنسي معاصر ، حاصل على جائزة نوبل (عن مقالة للدكتور سواريت بن عمر) .

أما عن نقد فيرابند لكارل بوبر بعدما انقلب عليه فإنه أخذ طابعا هجوميا وعدائيا شرسا ، إذ يرى فيرابند – على عكس ما يراه بوبر – أن الكثير من النظريات العلمية لا تقبل التكذيب بالطريقة التي يصفها بوبر ، ويعترض أيضا على أن يكون التفنيد يلعب دورا أساسيا أو حاسما في تاريخ العلم – كما اعتقد بوبر – فالعلماء في نظر فيرابند لا يتخلون عن نظرياتهم لمجرد تعارض بعض الوقائع معها ، فإذا كان بوبر يؤكد على رفض واستبعاد النظريات ، فإن فكرة فيرابند هي استبقاء النظريات والإكثار منها ، وينتهي فيرابند من نقده لبوبر إلى الاعتقاد بأن قواعد بوبر المنهجية لا تساهم في نمو المعرفة وإنما هي - على العكس من ذلك – تعوق هذا النمو ، والنتيجة أن هذه القواعد لا قيمة لها بالنسبة للعلم وفي هذا يقول : « لو تخيلنا أن كل من كوبرنيكوس وغاليلي طبقا بصورة أمينة قواعد بوبر المنهجية لكنا لا نزال نعيش في مرحلة الفيزياء الأرسطية حتى الآن »[1] ، وهذا ما أشار له الأستاذ سواريت ابن عمر في مقالته السابقة الذكر حين قال : « ويدلل فيرابند على ذلك بقوله إن العلماء الأكثر احترافية ومهارة لا يستعملون المنهج البوبري الذي يعتمد على المحاولات والأخطاء لوحده بل نجد في ترسانتهم تنوع كبير في الطرق والبراهين »[2] ، ولم يتوقف فيرابند عند نقد مناهج البحث البوبري بل واصل هجومه على العقلانية النقدية المعاصرة التي أسسها كارل بوبر وفي هذا يقول : « لا يوجد حدث هام واحد في تاريخ العلم يمكن تفسيره من خلال منهج بوبر، كما لا توجد محاولة واحدة لدى هؤلاء النقديين لرؤية العلم من منظور صحيح ، إن هذه الفلسفة ليست سوى خادم مخلص غير فاهم للعلم »[3] ، وهكذا يتضح لنا أن فيرابند كان راديكاليا جدا في نقده للعقلانية والمنهج العلمي ، ولكن هل هذا يعني أنه لا توجد أية قواعد منهجية للعلم عنده ؟

[1] - فيرابند بول ، ثلاث محاورات في المعرفة ،ص، ص، 19، 20.

[2] - حمود جمال وآخرون ، الفلسفة بين تعدد المناهج ووحدة الحقيقة ، (مقالة للدكتور سواريت ابن عمر) ، ص ، 121 .

[3] -فيرابند بول ، ثلاث محاورات في المعرفة ، ص 20.

صحيح أن فيرابند هاجم المنهج العلمي والعلماء والعقلانية هجوما عنيفا ، ولكن هذا لا يعني - في رأينا - أن فيرابند يريد الرجوع بالإنسان إلى عصر اللاّعقلانية واللاّتجريبية أي إلى عصر الأسطورة والتنجيم والسحر ، وإنما يبدوا لنا أن فيرابند من خلال نزعته النسبوية هذه يريد أن يؤكد على فكرة تعدد المناهج بتعدد العلوم والاختصاصات العلمية ، وذلك لأن طبيعة الموضوع هي التي تفرض وتحدد نوعية المنهج ، فمنهج العلم الرياضي ليس هو منهج العلم الفيزيائي ، ومنهج الفيزياء ليس هو منهج علم الاجتماع ...وهكذا ، ففيرابند يرى أن هناك مناهج مختلفة ومتنوعة لا حصر لها وكل واحد منها ذا قيمة ، وبهذا فإن موقفه يختلف اختلافا جذريا عن موقف كارل بوبر الذي ظل يدافع عن فكرة وحدة المنهج العلمي [كما أشرنا إلى ذلك خاصة في المبحث الثالث من الفصل الأول] ، وعليه يمكن القول أن فيرابند لم يرسم صورة لا عقلانية للعلم ينكر من خلالها أن يكون هناك منهج علمي موضوعي للعلم على الإطلاق بل هو منهجي متنكر ، وبالتالي تبطل التهمة التي ظل يرددها خصوم فيرابند بأنه (عدو للعلم) ، ولكن هل ينتهي الخلاف بين فيرابند وبوبر عند مسألة المنهج أم يتعداها ويتجاوزها إلى مسائل أخرى ؟ وماهي ؟

العلم والسياسة أو(تحرير المجتمع من سلطة العلم) عند فيرابند :

إذا كان (المجتمع المفتوح وأعداؤه) يعد من أهم الأعمال السياسية التي قدمها بوبر ، ومن أهم منجزات القرن العشرين في مجال الفلسفة السياسية والاجتماعية حسب الكثير من النقاد ، وقد حاول بوبر من خلال هذا العمل الربط بين السياسة والعلم ،لأن المجتمع المفتوح هو مجتمع يتأسس على العلم والعلم لا يمكنه أن يتطور - حسب بوبر - إلاّ في إطار المجتمع المفتوح ، فإن العمل الذي قدمه فيرابند والمتمثل في كتابه (العلم في المجتمع الحر) سار من خلاله في الاتجاه المعاكس لبوبر ، حيث يعتبر هذا العمل محاولة للفصل بين السياسة والعلم ومحاولة ودعوة لتحرير المجتمع من سلطة العلم ، فكيف ذلك ؟

يرى فيرابند أن العلم لا يتمتع بأية ميزة أو مكانة تجعله يتفوق على باقي الأنشطة والفعاليات الفكرية الإنسانية الأخرى ، حيث دافع فيرابند عن المجتمع ضد كل الإيديولوجيات وفي مقدمتها العلم ، وهنا يعترف فيرابند أن العلم ساهم مساهمة فعالة في الحرب على السلطوية والتخلف والخرافة وتحرير الإنسان فكريا حتى أصبح العلم والتنوير مترادفين أو اسمين لشيء واحد ، ولكن فيرابند نبه وأشار إلى مفارقة عجيبة محتواها أن الإنسان المعاصر في المجتمعات الغربية والديمقراطية يستطيع الآن أن ينتقد ما يشاء باستثناء العلم ، فالنقد أصبح موجودا ولكنه محدود حيث يمكنك أن تنتقد النظام السياسي والمؤسسات المختلفة في المجتمع بينما يظل العلم استثناءا .

ولهذا السبب شن فيرابند هجوما عنيفا على العلم والعلماء دفاعا عن المجتمع ، وفي هذا يقول : « إن افتراض التفوق الملازم للعلم قد تعدى العلم وأصبح موضوعا للإيمان عند كل شخص تقريبا »[1] ، وذهب فيرابند إلى حد تشبيه العلاقة بين الدولة والعلم بالعلاقة التي كانت سائدة بين الدولة والكنيسة حيث يقول : « ننفق مبالغ مالية لتحسين الأفكار العلمية ، ولا نكاد نحصل على أية فائدة من ازدهار العلم ، فلقد أصبحت العلاقات الإنسانية موضوعا للعلم »[2]، ويضيف قائلا : « أضحى العلماء يتدخلون في أدق دقائق حياتنا الشخصية من مأكل وملبس وطريقة نوم ... وأمسى العلم مؤسسة تفرض سيطرتها على المواطنين وتهدد الديمقراطية، بعد أن كان العلم في القرنين السابع عشر والثامن عشر قوة تحررية »[3] ، ومعنى هذا أن العلم - حسب فيرابند - أصبح إيديولوجيا وديانة أو عقيدة غبية وجاهلة ، ولهذا يدعوا فيرابند إلى إعادة النظر في المناهج العلمية التي يتم تعليمها اليوم على أنها "حقائق" ، وذلك لأن حقائق العلم أصبح يتم تدريسها وتلقينها للأطفال في مرحلة مبكرة بطريقة لا تختلف عن الطريقة

[1] - فيرابند بول ، العلم في المجتمع الحر ، ترجمة السيد نفادي ، المجلس الأعلى للثقافة ، سلسلة المشروع القومي للترجمة ، الإسكندرية ، 2000 ، ص 8 .

[2] . فيرابند بول ، العلم في المجتمع الحر ، ص8 .

[3] -.- المرجع نفسه ، ص8 .

التي كانت تلقن بها حقائق الدين في قرون مضت في أوروبا ، ولهذا يدعوا فيرابند إلى إتباع الطرق التي تحرر وتوقظ القدرات النقدية عند المتعلمين حتى يستطيعوا أن يروا الأمور من منظور خاص بهم ، ولا حظ فيرابند أن الأمر في الجامعات أكثر سوءا ، لأن التلقين فيها يأخذ طابعا أكثر تنظيما ونمطية ، وفي هذا الإطار - كما لاحظ فيرابند - أصبحت أقوال العلماء وتصريحاتهم في المجتمع تستقبل بنفس التوقير والاحترام الذي كانت تستقبل به أقوال رجال الدين سابقا ، أي أن العلم أصبح إيديولوجيا استبدادية و خطيرة جدا مماثلة للايدولوجيا التي جاء أصلا ليحاربها ويحررنا منها .

ومن نقاط الاختلاف بين كارل بوبر وبول فيرابند أيضا هو موقف كل واحد منهما من الحضارة الغربية ، فإذا كان بوبر يمجد ويقدس هذه الحضارة ، ويرى أن المجتمعات الغربية هي مجتمعات مفتوحة وفي الطرف الآخر المجتمعات المتخلفة هي مجتمعات مغلقة ، فإن فيرابند وجه نقدا لاذعا للحضارة الغربية ومفكريها على موقفهم من الثقافات الأخرى ، وفي هذا الإطار يمكن اعتبار فيرابند أول فيلسوف علم يوجه نقدا للحضارة الغربية وللأساس العلمي الذي تقوم عليه مستخدما في ذلك سلاحا طالما استخدمه الغربيون ومنهم كارل بوبر لإثبات تفوقهم الحضاري على شعوب العالم الأخرى ألا وهو سلاح العلم .

وخلاصة القول هو أن فيرابند يعارض كارل بوبر معارضة تامة في مسألة العلاقة بين العلم والمجتمع ، فإذا كان بوبر يعطي سلطة كبيرة للعلم في المجتمع والسياسة ، فإن فيرابند يدعوا إلى ضرورة تحقيق أكبر قدر من الحرية للإنسان وإلغاء كافة الالتزامات بما في ذلك سلطة العلماء ، ومن ثم تمنح لكافة المعارف والتقاليد حظوظ متساوية في التربية والتعليم والمجتمع ، وينبغي العمل على الحد من سيطرة العلم على المجتمع وذلك تماما كما حررنا أجدادنا من قوة الخنق التي تحملها الديانة - الصحيحة - الوحيدة [يقصد المسيحية وطابعها الدوغمائي] ، وبهذا لا يكون في المجتمع الحر كما يتصوره فيرابند امتيازا أو فضلا على الأشكال الأخرى للمعرفة أو التقاليد بما فيها الأساطير والسحر والتنجيم وغيرها، وقد تأثر

فيرابند في هذا التوجه بمنهج جون استيوارت ميل ومذهبه النفعي [1] ، ومن هنا يتضح أن مسألة الفصل بين السياسة والعلم كانت هي المسعى الأساسي لفيرابند في العديد من مؤلفاته وخاصة في كتابه " العلم في المجتمع الحر" (Science in a Free Society) .

وعلى ضوء ما سبق نستنتج أن فيرابند انتقد بوبر واختلف معه وتجاوزه في مسألتين أساسيتين ، أولهما تتعلق بالمنهج فإذا كان كارل بوبر ظل يردد ويكرر في مختلف أعماله فكرة **وحدة المنهج** ، فإن بول فيرابند بعد انقلابه على بوبر ظل يردد فكرة **ضد المنهج** أو الفوضى المنهجية **Contre la méthode** والتي لا تعني [حسب فهمنا المتواضع] أن العلم لا منهج له بل تعني التحرر من المنهج الواحد واستخدام مناهج متعددة بتعدد العلوم والاختصاصات والمواضيع ، وثانيتهما تتعلق بالعلاقة بين السياسة والعلم ، فإذا كان مجتمع بوبر المفتوح يتأسس على العلم فإن المجتمع الحر لفيرابند يتأسس على التحرر من أية سلطة بما فيها سلطة العلم ، وبذلك نصل إلى القول بأن فيرابند استطاع أن يتجاوز بوبر في فلسفة العلم .

ب ـ المطلب الثاني : ما بعد الفلسفة السياسية البوبرية

النموذج :نعوم تشومسكي Noam Chomsky (1928 – .)[2]*

[1] ـ جمال حمود وآخرون ، الفلسفة بين تعدد الناهج ووحدة الحقيقة (مقالة للدكتور سواريت ابن عمر) ، ص ، ص ، 120 ، 121 .

[2]* التعريف بنعوم تشومسكي : يعتبرنعوم تشومسكي حاليا من أهم الشخصيات الفكرية والفلسفية على مستوى العالم ، وهو أحد علمـــاء اللغة المعاصـرين، وهو أحد أهم المعارضيـن للسياسـة الأمريكيـة على الإطلاق من أشـهر مؤلفاته السياسية: " قراصنة وأباطرة، ماذا يريد العم سام، القوة والإرهاب، الحادي عشر من أيلول، الديمقراطية المعوقة، الدول المارقة، الغزو مستمر، وغيرها "، ومعظمها مترجم إلى اللغة العربية رغم جدتها وذلك نظرا لأهميتها . المرجع : تشومسكي نعوم ، القوة والإرهاب ، ترجمة إبراهيم يحي الشهابي ، دار الفكر ، ط1 ، دمشق 2003 . ص ، ص ، 176 ، 177 .

نود في هذا المطلب الأخير من هذا البحث أن نسلط الضوء على آخر تطورات الفكر الفلسفي السياسي الغربي المعاصر ، وذلك لإجراء مقاربة فلسفية وسياسية بين كارل بوبر ونعوم تشومسكي ، وهنا لاحظنا انقسام هذا الفكر إلى تيارين أساسيين .

التيار الأول هو تيار محافظ ومتشدد في أفكاره اتجاه الغير، لأن أصحابه انطلقوا في أبحاثهم من مواقف ذاتية بالمعنى الحضاري للذاتية ، ولا شك أن كارل بوبر هو رائد هــذاالتيار ، لأننا رأينا من خلال تحليل فكره السياسي ومن خلال قراءتنا النقدية له الموقف الذاتي المتشدد للحضارة الغربية وتأييده المطلق لسياسة الولايات المتحدة الأمريكية وسكوته المحير اتجاه إسرائيل ، وقد سار في فلكه الكثير من المفكرين السياسيين الغربيين ومنهم على الخصوص فرنسيس فوكوياما صاحب كتاب " نهاية التاريخ " وصامويل هانتغتون صاحب كتاب " صدام الحضارات " ، وفي هذا الإطار يرى فوكوياما أن الولايات المتحدة مدعوة إلى أن تظل على أهبة الاستعداد من موقع قيادتها للعالم لمواجهة الصراعات الحضارية المختلفة ، وحجة فوكوياما في ذلك أنه إذا كانت الليبرالية بزعامة أمريكا قد انتصرت على عدوها التقليدي ممثلا في الشيوعية فانه من الخطر أن تخلد للراحة التي تولد الفراغ ، ومن ثم فان الفراغ ينبغي ملؤه بالبحث عن بديل للعدو الشيوعي البائد إذا ما أريد للتاريخ أن يستمر وفي هذا يقول : « لنفرض أن العالم امتلأ بالديمقراطيات الليبرالية ولم يعد به طغيان أو استبداد ملموس يمكن الجهاد ضده ، تفيد التجربة بأنه متى لم يتمكن الناس من الجهاد في سبيل قضية عادلة ... فإنهم سيحاربون ضد القضية العادلة ، سيصارعون من أجل الصراع ، أي أنهم سيصارعون لشعورهم بالملل حيث أنهم لا يتخيلون الحياة في العالم دون صراع ، فان تميز الشطر الأعظم من العالم الذي يحيون فيه بالديمقراطية الليبرالية والسلام والرخاء ، فسيحاربون ضد هذا السلام وهذا الرخاء وهذه الديمقراطية »[1] ، والسؤال : ماهو البديل المرشح لاستخلاف العدو الشيوعي الزائل ؟

[1] - فوكوياما فرنسيس ، نهاية التاريخ وخاتم البشر ، ترجمة حسين أحمد أمين ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ، ط1 ، 1993 ، ص ، ص 286 ، 287 .

وهو نفس الأمر الذي ذهب إليه صامويل هانتغتون الذي رأى بأن زوال العدو الشيوعي لا يعني زوال التهديد بالنسبة للحضارة الغربية ،ويرى أنه على الولايات المتحدة الأمريكيـــة أن تبقى في حالة تأهب دائم كقوة ضاربة للدفاع عن حضارة الغرب ، ويرى أن الصدام آت لاريب فيه وسيكون صدام حضارات ، ويقول في هذا الشأن : « في العالم الناشئ لن تكون العلاقات بين الدول والجماعات التي تنتمي إلى حضارات مختلفة علاقات وثيقة ، بل غالبا ما ستكون عدائية »[1] ، والسؤال : لمن تقرع أجراس الصدام وطبول الحرب؟

وهكذا نلاحظ الروح العدوانية لهذه الكتابات الفلسفية والسياسية، والتي يمكن اعتبارها تمهيدا لتهيئة العقول وتعبئة للرأي العام من أجل فرضها في الواقع السياسي الراهن.

أما التيار الثاني وهو تيار معتدل ومنصف وموضوعي إلى حد ما ، ومن أبرز وجوهه برتراند راسل صاحب كتاب " السلام العالمي " وروجي غارودي صاحب كتاب " حوار الحضارات " ونعوم تشومسكي وغيرهم ، وقد وقع اختيارنا على نعوم تشومسكي كنموذج نحاول من خلاله تجاوز فلسفة بوبر ومواقفه السياسية ، وذلك من منطلق أن نعوم تشومسكي يعد من أبرز المحاربين في المعترك السياسي ضد النظام العالمي الذي تقوده أمريكا (بلده) وهو كذلك عالم كبير في مجال اللسانيات أي أنه هو أيضا مثل بوبر يجمع في تفكيره بين السياسة والعلم وان كان المجال العلمي الذي يختص فيه كل واحد منهما هو مجال مختلف عن الآخر ، حيث كان اختصاص بوبر هو فلسفة العلوم التجريبية والاجتماعية بينما كان اختصاص تشومسكي هو المجال الألسني ، فماهي أبرز نقاط الاختلاف والتباين بين الفكر السياسي لكليهما ؟ وإلى أي مدى يمكن القول أن تشومسكي تجاوز كارل بوبر ؟

فلسفة نعوم تشومسكي السياسية :

يتأسس الموقف السياسي لعالم اللسانيات والمفكر السياسي الأمريكي تشومسكي على نقده ومعارضته للسياسة الأمريكية ، حيث وجه لها انتقادا شديدا على المستوى الفكري وعارضها

[1]- هانتغتون صامويل ، صدام الحضارات : إعادة صنع النظام العالمي ، ترجمة طلعت الشايب ، ط2 ، 1999 ، ص ، 293 .

عمليا ، وذلك من خلال عدة أعمال فكرية [تم ذكرها سابقا] ، كما يعتبر من الناحية العملية من أشد المناهضين للسياسة الأمريكية ، حيث كان عضوا نشطا في حركة **"قاوم Resist"** المعارضة للتدخل الأمريكي في فيتنام ، وهو الآن من أشد المدافعين عن القضايا العربية في الولايات المتحدة ، وهذا معناه أن موقف تشومسكي يختلف تماما عن موقف كارل بوبر الذي كان مؤيدا لهذه السياسة ، وقد استند تشومسكي في نقده هذا على الوقائع والحقائق التاريخية والسياسية التي ظل يصرخ بها ويعلنها على رؤوس الأشهاد حيث يقول : « إن السجل الأمريكي مليء بالأمثلة التي أمكن أخذها كعينات في كل مكان ، ولا يقتصر الأمر على العدوان المباشر والتهديم والإرهاب فقط بل على دعم الممارسات المماثلة للدول التابعة والعميلة لها »[1] ، أما بشأن النموذج الحضاري والاجتماعي الأمريكي الذي كان يعتبره بوبر أفضل نموذج على الإطلاق عرفته البشرية ، فان تشومسكي يرى عكس ذلك تماما حيث يقول : « أنا أجلس هنا [أي موجود في أمريكا] لأن بعض المتعصبين الدينيين الأصوليين من انكلترا جاؤوا إلى هنا وبدؤوا بإبادة السكان المحليين ، ثم جاء من بعدهم من تولى إبادة من تبقى منهم ، لم يكن الأمر شأنا صغيرا ، لقد أبادوا الملايين »[2] ، وهنا يتضح لنـــا موقف تشومسكي من كل من السياسة والحضارة الغربية التي بنيت - حسب رأيه - على العنف وسفك الدماء وليس على الديمقراطية والحرية والتسامح - كما يعتقد بوبر- ويواصل تشومسكي حديثه بسخرية عن المجتمع الأمريكي : « عندما كنت صبيا ، كنت ورفاقي نلعب لعبة رعاة البقر ، كنا نحن (الكابوي) ، وكنا نقتل الهنود الحمر ،... لم تكن لدينا أية فكرة أخرى تستهجن هذا الأمر ،... لكن هذا لا ينطبق على أطفالي »[3] ، ويستأنف تشومسكي تهكمه على السياسة الأمريكية اتجاه الدول الأخرى خاصة تلك الدول التي ترفض الانصياع لسياستها حيث يقول : « يروي القديس أوغسطين قصة قرصان وقع في أسر الاسكندر

[1]- تشومسكي نعوم ، الدول المارقة ، ترجمة محمد عيسى ، نينوى للدراسات والنشر والتوزيع ودار الكتاب العربي ، دمشق ، ط1 ، 2003 ، ص 10 .

[2] - تشومسكي نعوم ، القوة والإرهاب ، ترجمة إبراهيم الشهابي ، دار الفكر ، دمشق ، ط1 ، 2003 ، ص ، ص ، 23 ، 24 .

[3] - المرجع نفسه ، ص 24.

الكبير الذي سأله : كيف تجرؤ على إزعاج البحر ؟ وكيف تجرؤ على إزعاج العالم بأسره ؟ فأجاب القرصان ، لأنني أفعل ذلك بسفينة صغيرة فحسب ، أدعى لصا ، وأنت الذي تفعل ذلك بأسطول ضخم تدعى امبرطورا »[1] .

كما انتقد تشومسكي الديمقراطية الأمريكية والغربية التي ظل يبشر بها بوبر ، وفي هذا يقول : « مصطلحات السياسة لها معنيان ، أحدهما معناها المعجمي المتعارف عليه ، والثاني معناها الذي يخدم إيديولوجية الأقوى ، فالديمقراطية معناها إشراك الشعب في إدارة شؤونه ، لكن عند إيديولوجية الأقوى ، تعني الديمقراطية نظاما تتخذ فيه صفوة رجال الأعمال القرارات ، ويشاهد عامة الناس ذلك بدلا من أن يشاركوا فيه »[2] ، وهذا معناه أن الديمقراطية لا وجود لها في الواقع وأن الطابع الغالب على المجتمعات الغربية وخصوصا المجتمع الأمريكي هو الطابع الليبرالي وليس الطابع الديمقراطي وشتان بين الأمرين ، وذلك لأن السوق ومنطق آلية الأسعار طغى على الحريات الفردية إلى حد أن المواطن الحر تحول إلى اسم على غير مسمى ، و أصبحت الأسواق هي التي تتحكم في السياسة .

وهكذا نستنتج الاختلاف والتباين الواضح بين الفكر السياسي لنعوم تشومسكي والفكر السياسي لكارل بوبر على مختلف المستويات ، فإذا كان بوبر منبهرا بالمجتمع الأمريكي ويعتبر النظام السياسي الأمريكي والحضارة الأمريكية أفضل نموذج عرفته البشرية ، فإن تشومسكي يسير في الاتجاه المعاكس ويرى أن النموذج الأمريكي هو أسوأ نموذج عرفته البشرية وأنه لا أمل على الإطلاق في مستقبل أفضل للبشرية مع ازدياد اكتساح النموذج الأمريكي المادي الاستهلاكي على مستوى العالم .

وعلى ضوء ما سبق يمكننا القول أن فلسفة نعوم تشومسكي السياسية ومواقفه السياسية اتجاه أهم القضايا الدولية المعاصرة وموقفه من الحضارة الغربية والنموذج الأمريكي هي تجاوز

[1] - تشومسكي نعوم ، قراصنة وأباطرة ، ترجمة : قسم الترجمة في دار حوران ، دمشق ، ط1 ، 1996 ، ص 5 .

[2] - تشومسكي نعوم ، ماذا يريد العم سام ، ترجمة عادل المعلم ، دار الشروق ، ط1 ، 1998 . ص 55 .

فلسفي وسياسي يأتم معنى الكلمة لفلسفة كارل بوبر السياسية ومواقفه بشأن أبرز المسائل الدولية وموقفه من الحضارة الغربية والنموذج الأمريكي ، وذلك لأن المقارنة بين فكري الفيلسوفين السياسي يبين أن أفكار نعوم تشومسكي كانت أكثر نقدا وأكثر واقعية وأكثر اعتدالا وأكثر جرأة وشجاعة ، وبعبارة أخرى كانت أكثر موضوعية من أفكار كارل بوبر .

ونستخلص في ختام هذا الفصل أن كارل بوبر استعمل كل قدراته وإبداعاته الفكرية لبناء مشروع فلسفي متكامل يربط فيه بين الابستمولوجيا والسياسة ، ويندرج مشروعه الابستمولوجي في إطار البحث عن مخرج للأزمة التي عرفها العلم المعاصر ، بينما يندرج مشروعه السياسي في إطار البحث عن مخرج للأزمات المتتالية التي أصابت النظام والمجتمع الليبرالي ، وإذا كان الفلاسفة الآخرون دأبوا على دراسة هاتين المشكلتين على انفصال ، فإن كارل بوبر طرح هذا الموضوع بطريقة مغايرة حيث دمج المشكلتين في إشكالية واحدة ، وبالتالي أصبح هذا الموضوع أكثر تعقيدا ، وهنا يمكننا القول أنه إذا كان المشروع الابستمولوجي هو أساس المشروع السياسي والاجتماعي والأخلاقي في فلسفة كارل بوبر، وأمكن هدم المشروع الابستمولوجي والأسس التي يقوم عليها خاصة مبدأ القابلية للتكذيب، فإن ذلك يؤدي إلى هدم عمارة الفلسفة البوبرية بشقيها الابستمولوجي والسياسي.

خاتمة

ما هو الدرس المستفاد من صحبة كارل بوبر في هذا البحث ؟

وما هي آثار وآفاق الفكر البوبري في العالم العربي ؟

بعد هذه الجولة الفلسفية من الابستمولوجيا إلى السياسة مع كارل بوبر تم استخلاص عدة دروس ونتائج يمكن تلخيصها في عدة نقاط من أجل إيضاحها أكثر وهي :

1 – نلاحظ وجود تناقض واضح بين بوبر الذي أحدث ثورة ابستمولوجية ، وبوبر الفيلسوف السياسي ، حيث يمكن اعتبار بوبر صاحب ثورة ابستمولوجية معترف بها ، ولكنه في المجال السياسي والاجتماعي لم يكن ثوريا كما يجب أن يكون، حيث كان ممثلا للفكر الليبرالي ومصلحا سياسيا واجتماعيا عن طريق التخطيط الاجتماعي التدريجي**"الهندسة الاجتماعية الجزئية"** ومخالفا ومعاديا للمذهب التاريخي والمجتمع المغلق والفاشية والشيوعية، حيث قام بوبر بدراسة جينالوجية لأفلاطون وهيغل وماركس واعتبرهم الفلاسفة الأساسيين الممثلين للفلسفة التاريخية التي تأسست عليها الأنظمة الشمولية القديمة والمعاصرة ، كما كان يركز ويثير في فكره السياسي مشاكل الألم والشقاء والمعاناة الإنسانية، وهذا ما دفع بعض النقاد ومنهم **جان بودان Jean Baudouin** في كتابه**" Karl Popper"**إلى القول:« إن العقلانية النقدية تقوم على أساس عاطفي خاصة في المجال السياسي والأخلاقي والاجتماعي» .

2 – ينكر بعض الباحثين أن يكون هناك اتساق وترابط بين أفكار بوبر وحجتهم في ذلك أن فلسفته ما هي إلا نقل وتركيب لبعض الفلسفات السابقة وإعادة طرحها بصيغة مختلفة نوعا ما، وهو الأمر الذي أوقعه في تناقضات لا حصر لها، فهو يرفض أن تكون النظرية الداروينية للتطور نظرية علمية ولكنه يستند عليها في تفسيره لتطور ونمو المعرفة الإنسانية، كما أنه يرفض أن تكون نظرية التحليل النفسي نظرية علمية ولكنه يستخدم بعض المصطلحات الفرويدية مثل مصطلح "صدمة ميلاد الحضارة" ليفسر به كيفية الانتقال والمرور من المجتمع المغلق إلى المجتمع المفتوح، كما أخذ عن **هنري برغسون** Henri Bergson (1859- 1941) مصطلحي المغلق والمتفتح ووظفهما في فكره السياسي، كما لاحظنا من خلال مساره الفكري والسياسي أنه بدأ اشتراكيا وتعاطف مع الاشتراكية

واعتبرها فلسفة إنسانية ولكنه انقلب ضدها إلى ليبرالي متطرف وأصبح ينظر إليها على أنها نظرية غير علمية، ولكن **محمد محمد قاسم** ردّ على ذلك معلقا في كتابه " **في الفكر الفلسفي المعاصر**" قائلا : « إننا نعترف أن مزج هذه الآراء والأفكار المتناثرة وصياغتها في فلسفة واحدة يدل على براعة وعبقرية من جانب بوبر » ، وبدورها نفت **د. يمنى طريف الخولي** هذه التهمة عن بوبر ، ورأت أن من أهم مميزات فلسفة بوبر الاستقلالية والنسقية وقالت في هذا الإطار : « سار بوبر على نهج كانط ليحقق بنجاح الجمع بين المثالية والتجريبية ... ، وهذا يؤكد أن بوبر عبقرية جبارة ذات أصالة ... إذا استثنينا من هذا التجائه إلى تارسكي فيما يتعلق بالمفاهيم المنطقية ونظرية الصدق ... إن فلسفة بوبر اتجاه عظيم أصيل مجدد ومتسق مترابط، يمثل إضافة حقيقية في الفلسفة... أخذ على عاتقه هدم الأوثان التي لا قبل لأحد بمعارضتها، وعلى رأس هذه الأوثان الاستقراء، وقصر الفلسفة على التحليل اللغوي...» ، ولذلك ظل بوبر يغرد وحده خارج سرب الفلسفة الانجليزية التي غلب عليها الطابع التحليلي خلال القرن العشرين .

3 – استطاع بوبر أن يبتكر منهجا جديدا تتأسس عليه المعرفة الإنسانية، وأساس هذا المنهج هو **النقد** الذي يكشف عن أخطاء الحلول باستمرار لدحضها، وبذلك تتقدم وتتطور المعرفة بما في ذلك الفلسفة وفي هذا الإطار يقول **د.عمار طالبي** في كتابه "**مدخل إلى عالم الفلسفة**": « يمكن القول أن بوبر قلب وضع الابستمولوجيا ومبادئها الكلاسيكية واقترح منهجا جديدا ونظرية للمعرفة جديدة وأتى بمبادئ جديدة » ، وفي نفس الإطار ترى **د. يمنى طريف الخولي** أيضا أن فلسفة بوبر هي دعوة لتنصيب النقد سلطانا أو بالأحرى جعله السلطان الوحيد باعتباره أوكسجين العلم ودماء الحياة وفي هذا تقول في خاتمة كتابها "**فلسفة كارل بوبر**" : « أكد بوبر على أن التناول النقدي للمشاكل المطروحة ولحلولها ولمسارها ونتائجها هو السبيل الأوحد إلى أي تقدم ، النقد هو شرط التقدم ، لأن التقدم لا يمكن أن يحدث بغير حذف الأخطاء » ، ولا شك أن فلسفة كارل بوبر تعرضت لانتقادات شديدة ، ونحن نعتقد أن هذا أمر طبيعي في الفلسفة التي تتأسس في طبيعتها على صراع الأفكار ، وتاريخ الفلسفة يثبت أنه لا يوجد رأي فلسفي لم يتعرض إلى النقد ، وهذه الانتقادات لا تعكس لنا الجانب السلبي فقط ، بل تشير أيضا إلى التأثير القوي لهذا الفكر أو ذاك ، وهذا

ينطبق على بوبر الذي أحب ومارس النقد حتى سمي به مذهبه ومنهجه **"العقلانية النقدية"** واحتل بواسطته مكانة في التراث الفلسفي العالمي ، وفي هذا الإطار يمكن اعتبار فلسفة بوبر علامة بارزة في تاريخ الفكر الإنساني ، لأنها جاءت لتعلن أن النشاط العلمي والمعرفي والحياتي قد يتوقف إذا سيطرت على حياتنا النزعة التقليدية ، فليس أخطر على الشعوب والأمم والحضارات من السكون والتوقف والنظر غير النقدي والإعجاب الدوغمائي للماضي والحاضر ، فهل من شك في أننا أحوج الشعوب والأمم لهذا الدرس ؟

4– استطاع بوبر أن ينحت بأحرف من ذهب مصطلحا جديدا كان له أثر كبير في عالم الفكر الفلسفي عموما والفكر السياسي خصوصا ألا وهو مصطلح **" المجتمع المفتوح"** الذي أصبح من أهم المصطلحات المتداولة في الفلسفة والسياسة ، وذلك باعتراف أشد المفكرين نقدا لبوبر ومنهم - على سبيل المثال لا الحصر - السيد **علي حرب** ، والذي رغم نقده الشديد لفلسفة كارل بوبر بشقيها الابستمولوجي والسياسي في كتابه **"الماهية والعلاقة"** إلا أنه اعترف قائلا : « لا أنكر أن لبوبر الفضل في ترويج مصطلح "المجتمع المفتوح" ، واستثماره أو إعادة ابتكاره في مواجهة الإيديولوجيات الطوباوية والأنظمة الشمولية والمجتمعات المغلقة ، وربما لا ينجو أحد من تأثير بوبر ، وان بصورة غير مباشرة ، عندما يستخدم مصطلح "المجتمع المفتوح" ، أو مفردة "الانفتاح" بصورة عامة » ، ولعل كلام الأستاذ علي حرب يغنينا عن التعليق على أهمية مصطلح المجتمع المفتوح والانفتاح والتفتح في الفلسفة والسياسة والحياة بصفة عامة .

5 – ونستنتج في الأخير أن هناك ارتباطا نسقيا بين السياسة والعلم في فلسفة كارل بوبر لأن المشروع الفلسفي السياسي لبوبر يتأسس على مشروعه الابستمولوجي ، لذلك سعينا جاهدين في هذا العمل المتواضع إلى إبراز هذا الترابط من خلال التعريف بفلسفة كارل بوبر السياسية وبالأسس الابستمولوجية التي تتأسس عليها .

هذا عن الدروس التي استخلصناها من رفقة كارل بوبر في هذا البحث ، فماذا عن آثار وآفاق فلسفة كارل بوبر في العالم العربي ؟

وفي الأخير نود أن نتحدث عن تأثير فلسفة كارل بوبر في الفكر العربي وعن آفاق هذه الفلسفة في العالم العربي ، وهنا يمكننا أن نقول أن فلسفة كارل بوبر كسائر الفلسفات الأخرى كان لها صدى كبير في مختلف أنحاء العالم ، حيث ترجمت أعمال بوبر إلى لغات عديدة ومنها اللغة العربية [وقد تمت الإشارة إلى أعماله المترجمة إلى العربية والفرنسية في مقدمة هذا البحث] ، وقد تراوح هذا الصدى بين التأييد والمعارضة ،وقد سبق وأن أشرنا [في المطلب الثاني من المبحث الثاني من الفصل الثالث] إلى الصدى الايجابي الكبير لهذه الفلسفة خاصة في أوروبا الشرقية بعد تحررها من النظام الشيوعي ، وفي الصين واليابان وغيرها ، وإجمالا يمكن القول أن شهرة فلسفة بوبر تخطت الحدود الجغرافية والفكرية للنمسا والمانيا والبلدان الانجلوساكسونية ، فماذا عن حضور الفكر السياسي لكارل بوبر في العالم العربي ؟

اشتهر بوبر في العالم العربي كفيلسوف في العلم ، وأجريت حول فلسفته العلمية دراسات أكاديمية عديدة [تمت الإشارة إليها أيضا في مقدمة هذا البحث] ، أما تأثيره في الفكر السياسي العربي فيكاد يكون منعدما ، وذلك نظرا لأسباب عديدة ، حيث لم تحظ ترجمة كتابه **"بؤس الايديولوجيا"** وترجمة الجزء الأول من كتابه **"المجتمع المفتوح وأعداؤه"** بالاهتمام اللازم نظرا للحالة السياسية والثقافية التي كانت تهيمن على العالم العربي ، فالمثقف العربي - في النصف الثاني من القرن الماضي - كان يعيش تحت تأثير الدعوة إلى القومية والاشتراكية التي كانت تهدف إلى إقامة أنظمة شمولية تمجد الأفكار والشعارات التي كان ينادي بها الماركسيون والقوميون العرب ، لذلك لم تجد أفكار بوبر السياسية صدى واسعا ، لأن أفكاره تتناقض مع متطلبات الحالة السياسية والثقافية لتلك المرحلة التاريخية ، وهنا يطرح السؤال : لماذا لم يترجم الجزء الثاني من كتاب"المجتمع المفتوح وأعداؤه" ؟

والجواب عن هذا السؤال سهل وبسيط وهو : لأن الجزء الثاني من كتاب "المجتمع المفتوح وأعداؤه" يتناول بالنقد أحد أهم منظري المجتمع المغلق " ماركس" ، وكذلك لأنه يدعوا إلى الديمقراطية والحرية والتفتح ، بينما كان المثقف العربي رهينة الأفكار القومية والاشتراكية التي كانت تعتبر بمثابة مقدسات غير قابلة للمناقشة أو النقد ، ولعل التغيرات

الحاصلة في العالم العربي مؤخرا (على الرغم عن كل ما يقال عن أسبابها الحقيقية وأهدافها الخفية) قد تعجل بترجمة الجزء المتبقي من هذا الكتاب .

ولكن رغم كل هذه العوائق، فإن هذا لم يمنع بعض المفكرين الليبراليين العرب من تبني أفكار بوبر السياسية في سياق صراعهم الأيديولوجي مع المفكرين الماركسيين العرب والرد عليهم، وفي هذا الإطار يعتبر المفكر التونسي **فتحي التريكي** من أوائل المفكرين العرب الذين حاولوا إدخال العقلانية النقدية إلى الفكر العربي وعمل على توظيفها في دعوته إلى تأسيس فلسفة عربية متفتحة ، وفي هذا يقول في كتابه **" فلسفة التنوع"** : « إن الفلسفة بالنسبة لبوبر هي الضامنة لانفتاح الفكر ... فالفلسفة المفتوحة «فلسفة التنوع" هي التي تضمن للإنسان حرية النقد والدحض والتفكير الخلاق والحر » ، أي أن الفلسفة المفتوحة هي التي تحرر العقل وتقوده نحو فضاء التغيير ، وهنا نلاحظ مدى تأثر التريكي ببوبر من خلال استعماله لمفاهيم الانفتاح والفلسفة المفتوحة والدحض والنقد والحرية وهي المفاهيم التي يتأسس عليها الفكر البوبري .

ولهذا فإننا نرى - من خلال هذا العمل المتواضع - أنه من الضروري على الباحثين والمثقفين والمفكرين العرب الاهتمام بالجانب السياسي في فلسفة بوبر وعدم التركيز على الجانب الابستمولوجي منها فقط ، وذلك لأن دعوة بوبر إلى المجتمع المفتوح هي دعوة إلى تأسيس مجتمع ديمقراطي يقوم على الحرية والتسامح والسلام والانفتاح، وهي دعوة أيضا إلى رفض الجمود والانغلاق والتعصب والعنف ، ودعوة كذلك إلى تفادي العنف والبؤس ، وأخيرا وهذا هو المهم ، هي دعوة إلى ضرورة استثمار نتائج العلم في تسطير السياسات الاجتماعية والابتعاد عن الشعارات الدوغمائية الزائفة التي لم يجن منها العرب إلا الكوارث والمآسي والتخلف، وهنا نعيد التذكير بالقول أن دعوتنا إلى الاقتباس من أفكار بعض مفكري الغرب - مثل بوبر - لا يعني أننا نقبل كل أفكاره ، ولكننا نؤمن أن الحكمة ضالة المؤمن وأن هؤلاء المفكرين كما زاغوا في أمور فأنهم أضافوا في أمور أخرى .

ملحق خاص بالمفاهيم الأساسية التي يتأسس عليها هذا البحث

(العلم – الابستمولوجيا – السياسة)

يتأسس هذا البحث على مجموعتين من المفاهيم الأساسية ، المجموعة الأولى وتمثل المفاهيم الخاصة التي تتأسس عليها فلسفة كارل بوبر مثل : مبدأ القابلية للتكذيب (Falsifiabilité) ، والمجتمع المفتوح (Société ouverte) ، والمجتمع المغلق (Société close) ، والتوليتارية (Totalitarisme)،والتاريخية (Historicisme)، والهندسة الاجتماعية الجزئية (Sociotechnique opportuniste) ، وغيرها ، ويضاف إليها المفاهيم المشتركة بين فلسفة كارل بوبر وغيرها من الفلسفات مثل : الاستقراء (L'induction)، والديمقراطية (Démocratie) ، والحرية (Liberté) ،والمســـــؤولية (Responsabilité) ،والتسامح (Tolérance) ، واليوتوبيا (Utopie) ، وغيرها ، وقد ورد تحليل لهذه المفاهيم في سياق التحليل العام لهذا البحث ، أمّا المجموعة الثانية من هذه المفاهيم ، فإنها تمثل المفاهيم العامة والتي يتشكل منها عنوان هذا البحث وهي : العلم ، والابستمولوجيا ، والسياسة ، والتي لم يرد أي تحليل لها في سياق التحليل العام في هذا البحث ، لذلك فإنه رأينا أنه من المستحسن أن نخصص لها ملحقا خاصا من أجل توضيحها .

العلم (Science):

في اللغة: علمت الشيء، أعلمه علما: عرفته، قال ابن بري: وتقول علم وفقه، أي تعلم وتفقه، وهو نقيض الجهل[1].

العلم هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع ، وقال الحكماء : هو حصول صورة الشيء في العقل ، وقيل العلم هو إدراك الشيء على ماهو به ، وقيل زوال الخفاء من المعلوم ، والجهل نقيضه[2].

في الاصطلاح: العلم Science مرادف للمعرفة Connaissance، ويقال إن مفهوم العلم أخص من مفهوم المعرفة، لأن المعرفة قسمان، معرفة عامية Connaissance Vulgaire

[1] - ابن منظور، لسان العرب (المحيط)، المجلد الثاني، مادة علم، ص 870.

[2] - الجرجاني ، التعريفات ، ضبط وتعليق محمد علي أبو العباس ، دار الطلائع ، القاهرة ، ص155 .

ومعرفة علمية Connaissance Scientifique [1] .

العلم هو مجموعة من المعارف والأبحاث على درجة عالية من الوحدة والعمومية[2].

المفهوم الإجرائي للعلم: انطلاقا من المفاهيم السابقة يمكن القول أن العلم في مفهومه الحالي هو مجموعة من المعارف العالية الدقة، أو هو كمية هائلة من المعارف المترابطة في أنساق، تم التوصل إليها بطريقة موضوعية، وقد صنفه أوغست كونت سابقا إلى ستة أقسام هي : الرياضيات ، والفلك ، والفيزياء ، والكيمياء والبيولوجيا ، والسوسيولوجيا ، أمّا في العصر الحالي فانه يمكن تصنيف المعرفة العلمية إلى علوم رياضية Mathématique وعلوم طبيعية Sciences Naturel وعلوم إنسانية واجتماعية Sciences Humaines et Sociales .

الابستمولوجيا (Epistémologie):

في اللغة : الابستمولوجيا لفظ مركب من لفظين أحدهما ابستيما Epistemé وهو العلم والآخر هو لوغوس Logos وهو النظرية أو الدراسة ، فمعنى الابستمولوجيا إذن هو نظرية العلوم أو فلسفة العلوم[3].

في الاصطلاح : هي دراسة مبادئ العلوم ، وفرضياتها ونتائجها دراسة انتقاديه ، توصل إلى إبراز أصلها المنطقي ، وقيمتها الموضوعية ، ولكن هناك اختلاف بين مفهوم اصطلاح الابستمولوجيا في الفلسفة الفرنسية ، والذي هو مرادف لفلسفة العلم ، ومفهومه في الفلسفة الانجلوساكسونية حيث هو مرادف لاصطلاح نظرية المعرفة (La théorie de la connaissance)[4] .

---

[1] - صليبا جميل، المعجم الفلسفي، الجزء الثاني، ص 100.

[2] - لالند أندري ، موسوعة لالند الفلسفية ، الجزء الثالث ، ص 1249.

[3] - صليبا جميل، المعجم الفلسفي، الجزء الأول، ص 33.

[4]- المرجع نفسه ، ص33 .

تدل هذه الكلمة على فلسفة العلوم، فهي ليست دراسة لمناهج العلوم لأن هذه الأخيرة تندرج في إطار أبحاث المنطق، وهي تختلف أيضا عن نظرية المعرفة، هي الدراسة النقدية لمبادئ مختلف العلوم وفرضياتها ونتائجها، بغرض تحديد أصلها المنطقي لا السيكولوجي[1].

المفهوم الإجرائي للابستمولوجيا: الابستمولوجيا هي تحليل نقدي للمعرفة العلمية ، وهي فلسفة جديدة تحاول أن تواكب التطورات العلمية ، وبالتالي فان الابستمولوجي هو فيلسوف من طراز جديد ، وينبغي الإشارة هنا إلى الفرق الموجود بين معناها في الثقافة الانجلوساكسونية باعتبارها مرادفة لنظرية المعرفة ومعناها في الثقافة الفرنسية باعتبارها مرادفة لفلسفة العلوم ، وبذلك يكون معناها الانجلوساكسوني أوسع من معناها الفرنسي ، وقد سبق وأن أشرنا أن كارل بوبر ومن منطلق أنه فيلسوف انجلوساكسوني ، فإن الابستمولوجيا ونظرية المعرفة والميتودولوجيا بالنسبة إليه كلها مترادفات بينما يميز أندري لالند في موسوعته الفلسفية بين هذه المفاهيم ، وقد أشرنا إلى ذلك في مقدمة هذا البحث عند حديثنا على الصعوبات .

السياسة (Politique):

في اللغة: السياسة مصدر ساس، وهي تنظيم أمور الدولة، وتدبير شؤونها[2] .

في الاصطلاح: يرى جميل صليبا أن السياسة نوعان، السياسة النظرية وتعنى بدراسة الظواهر السياسية المتعلقة بأحوال الدول والحكومات، والسياسة العملية وتعنى بأساليب ممارسة الحكم في الدولة لرعاية مصالح الناس وتدبير شؤونهم وأحوالهم[3].

بينما يعرفها أندري لالند بأنها هي السياسية.لحياة العامة في جماعة بشرية منظمة[4] ، ويعرفها كذلك بأنها ما يختص بالدولة والحكومة في مقابل الوقائع الاقتصادية والاجتماعية

---

[1]- لالند أندري ، موسوعة لالند الفلسفية ، الجزء الأول ، ص ، ص ، 356، 357 .

[2] - صليبا جميل، المعجم الفلسفي، الجزء الأول، ص 679.

[3] - المرجع نفسه ، ص 670 .

[4]- لالند أندري ، موسوعة لالند الفلسفية ، الجزء الثاني ، ص 993 .

وفي مقابل الإدارة والعدالة ... ، وهي كذلك دراسة أو معرفة الوقائع السياسية[1].

المفهوم الإجرائي للسياسة: من خلال ما سبق نستنتج أن للسياسة معاني اصطلاحية عديدة، تختلف باختلاف المجال الذي يستخدم فيه هذا المصطلح، فهي أحيانا تعني فن تدبير شؤون المدينة أو تدبير شؤون الجماعة، وأحيانا أخرى علم السلطة، و في الفكر المعاصر أصبح مفهوم السياسة يحمل معنى مزدوجا فهو من جهة يندرج في الفلسفة ، وهذا ما يعرف بالفلسفة السياسية (**Philosophie Politique**) ، و من جهة أخرى يندرج في العلم ، وهذا ما يعرف بالعلوم السياسية (**Sciences Politique**) ، ولكل مجال منهما موضوعه ومنهجه وأهدافه، إلا أن هذا الاختلاف لا ينف وجود تقاطع وتداخل كبير بين الفلسفة السياسية والعلم السياسي .

[1] - لالند أندري ، موسوعة لالند الفلسفية ، الجزء الثاني ، ص 994 .

فهرس المصادر والمراجع

أولا : المصادر باللغة العربية :

1) بوبر كارل ، منطق الكشف العلمي ، ترجمة ماهر عبد القادر محمد ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت 1986.

2) بوبر كارل ، المجتمع المفتوح وأعداؤه ، الجزء الأول ، ترجمة السيد نفادي ، دار التنوير للطباعة والنشر ، لبنان ، ط1 ، 1998 .

3) بوبر كارل ، بؤس الايديولوجيا ، ترجمة عبد الحميد صبره ، دار الساقي ، بيروت ،ط1، 1992 .

4) بوبر كارل ، الحياة بأسرها حلول لمشاكل ، ترجمة بهاء درويش ، منشأة المعارف ، الإسكندرية .

5) بوبر كارل ، نحو عالم أفضل ، ترجمة أحمد مستجير ، مطابع الهيئة المصرية العمة للكتاب ، 1999 .

6) بوبر كارل ، أسطورة الإطار : في دفاع عن العلم والعقلانية ، ترجمة يمنى طريف الخولي ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت 2001 .

7) بوبر كارل ، خلاصة القرن ، ترجمة الزاوي بغورة ولخضر مذبوح ، القاهرة ، ط1 ، 2002 .

ثانيا : المراجع باللغة العربية :

8) إسلام عزمي، اتجاهات في الفلسفة المعاصرة، وكالة المطبوعات، الكويت، 1985.

9) برنيري ماريا لويزا ، المدينة الفاضلة عبر التاريخ ، ترجمة عطيات أبو السعود ، مراجعة عبد الغفار مكاوي ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت 1979 .

10) بغورة الزواوي ، الفلسفة واللغة : نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة ، دار الطليعة ، بيروت ، ط1 ، 2005 .

11) بوشينسكي .أ.م ، الفلسفة المعاصرة في أوروبا ، ترجمة عزت قرني ، عالم المعرفة ، الكويت ، 1992 .

12) بوفريس رونيه ، العقلانية النقدية عند كارل بوبر ، ترجمة سعيد بوخليط ، إفريقيا الشرق ، المغرب 2009 .

13) التريكي فتحي ، فلسفة التنوع ، عيون ، الدار البيضاء ،ط2 ، 1992 .

14) تشومسكي نعوم ، قراصنة وأباطرة ، ترجمة قسم الترجمة في دار حوران ، دار حوران للتوزيع ، دمشق ، ط1 ، 1996 .

15) تشومسكي نعوم ، ماذا يريد العم سام ، ترجمة عادل المعلم ، دار الشروق ، القاهرة ، ط1 ، 1998 .

16) تشومسكي نعوم ، الدول المارقة ، ترجمة محمود علي عيسى ، نينوى للدراسات والنشر والتوزيع ودار الكتاب العربي ، دمشق ، ط1 ، 2003 .

17) تشومسكي نعوم ، القوة والإرهاب ، ترجمة إبراهيم يحي الشهابي ، دار الفكر ، دمشق ، ط1 .

18) حرب علي، الماهية والعلاقة: نحو منطق تحويلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1998.

19) الخولي يمنى طريف ، فلسفة العلم في القرن العشرين ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، 2000 .

20) الخولي يمنى طريف ، فلسفة كارل بوبر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1989 .

21) ديورانت وول ، قصة الفلسفة ، ترجمة فتح الله المشعشع ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ط5 ، 1985 .

22) دي كرستيني وكينيت مينوج ، أعلام الفكر السياسي المعاصر ، ترجمة عبد الله نصار ، الهيئة المصرية لطباعة الكتاب ، 1988 .

23) راسل برتراند ، حكمة الغرب ، الجزء الثاني ، ترجمة فؤاد زكريا ، عالم المعرفة ، الكويت ، 1983 .

24) رودولف ميتس ، الفلسفة الانجليزية في مائة عام ، ترجمة فؤاد زكريا ، القاهرة ، ط1 ، 2009 .

25) ريشنباخ هانز ، نشأة الفلسفة العلمية ، ترجمة فؤاد زكريا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط2 ، 1979 .

26) طالبي عمار، مدخل إلى عالم الفلسفة، دار الحكمة، قطر، 1999.

27) فوكو ياما فرنسيس ، نهاية التاريخ ، ترجمة حسين أحمد أمين ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ، ط1 ، 1993 .

28) فيرابند بول ، العلم في المجتمع الحر ، ترجمة السيد نفادي ، المجلس الأعلى للثقافة ، سلسلة المشروع القومي للترجمة ، الإسكندرية ، 2000 .

29) فيرابند بول ، ثلاث محاورات في المعرفة ، ترجمة محمد أحمد السيد ، منشأة المعارف، الإسكندرية .

30) كارناب رودولف ، الأسس الفلسفية للفيزياء ، ترجمة السيد نفادي ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، 2003 .

31) كون توماس ، بنية الثورات العلمية ، ترجمة شوقي جلال ، عالم المعرفة ، الكويت ، 1992 .

32) لوك جون ، رسالة في التسامح ، ترجمة منى أبوسنة ، المجلس الأعلى للثقافة ، ط1 ، 1997 .

33) محمد علي ماهر عبد القادر ، فلسفة العلوم ، المشكلات المعرفية ، دار النهضة العربية، بيروت 1984 .

34) محمد علي ماهر عبد القادر ، مشكلات الفلسفة ، دار النهضة العربية ، بيروت 1985 .

35) محمد محمد قاسم ، كارل بوبر : نظرية المعرفة في ضوء المنهج العلمي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1986 .

36) محمد محمد قاسم، في الفكر الفلسفي المعاصر« رؤية علمية » (غوتلوب فريج - برتراند راسل - كارل بوبر) ، دار النهضة العربية، ط1، بيروت، 2001.

37) مصطفى عادل ، كارل بوبر : مائة عام من التنوير ونضرة العقل ، دار النهضة العربية، بيروت ، 2002 .

38) مكاوي عبد الغفار ، لم الفلسفة ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، 1981 .

39) موساوي أحمد ، مكانة المنطق في الفلسفة التحليلية ،سلسلة دراسات منطقية ، الجزء الأول ، معهد المناهج ، الجزائر .

40) هاتنغتون صامويل ، صدام الحضارات ، ترجمة طلعت الشايب ، ط2 ، 1999 .

41) يفوت سالم، المنحى الجديد للفكر المعاصر، دار الطليعة للنشر، بيروت، ط1، 1999.

42) تأليف مشترك، فلسفة النقد ونقد الفلسفة في الفكر العربي والغربي (مقالة للدكتور الجالي زكريا المنشاوي)، أعمال الندوة الفلسفية 15 التي نظمتها الجمعية الفلسفية المصرية بالقاهرة، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت 2005.

43) تأليف مشترك ، تنسيق الزواوي بغورة ، مدخل جديد إلى فلسفة العلوم (مقالة للدكتور لخضر مذبوح) ، دراسة تاريخية نقدية مع نصوص مترجمة ، دار الهدى ، الجزائر .

44) تأليف مشترك ، حمود جمال وآخرون ، الفلسفة بين تعدد المناهج ووحدة الحقيقة ، (مقالة : الدكتور سواريت ابن عمر) ، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع ، ط1 ، 2010 .

ثالثا : المصادر باللغة الأجنبية :

45) Popper Karl, La société ouverte et ses ennemis, volume 1, Platon, traduit de l'anglais par Jacqueline Bernard et Philippe Monod, seuil**,** Paris 1979.

46) Popper Karl, La société ouverte et ses ennemis, volume 2, Hegel et Marx, traduit de l'anglais par Jacqueline Bernard et Philippe Monod seuil, Paris 1979.

47) Popper Karl, Conjectures et Réfutation, traduit de l'anglais par Michelle Irène et Marc de Launay, édition Payot, Paris 1985.

48) Popper Karl, La connaissance objective, traduit de l'anglais par Jean Jaques Rosat, Paris 1998.

49) Popper Karl, La quête inachevée, traduit de l'anglais par Renée Bouveresse, outobiographie intellectuelle, Calmann-Lévy, Paris 1981.

50) Popper Karl et Konrad lorenz, L'avenir est ouverte, traduit de l'allmand par jean Ettore, Flammarion 1990.

رابعا : المراجع باللغة الأجنبية :

51) Baudouin Jean, Karl Popper, que sais-je ? 2éd, 1991, p.u.f, Paris.

52) Hobbes thomas, Le Citoyen, traduit sammuel sorbiére, Flammarion 1982.

53) Hume David, Enquête sur l'entendement humain, traduit français de Philippe falliot, 2002.

54) Hutin Serg. , La philosophie Anglaise et Américaine, p.u.f, Paris 1963.

55) Raulet Gérard, de l'épistémologie à la politique ; la philosophie de l'histoire de Karl Popper, p.u.f, Paris 1991.

خامسا: الموسوعات والمعاجم:

56) ابن منظور، لسان العرب (المحيط)، المجلد الأول + المجلد الثاني، تقديم عبد الله العلا يلي وإعداد وتصنيف يوسف خياط، دار لبنان العرب، بيروت.

57) الجرجاني ، التعريفات ، ضبط وتعليق محمد علي أبو العباس ، دار الطلائع ، القاهرة .

58) بدوي عبد الرحمان ، الموسوعة الفلسفية (ج1 + ج2) ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط1 ، 1984 .

59) صليبا جميل، المعجم الفلسفي (ج1+ج2)، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1982.

60) كوزمان بيتر وفيدمان فرانز وبوركارد فرانز ، أطلس الفلسفة ، ترجمة جورج كتورة ، المكتبة الشرقية ، ط1 ، بيروت 2001 .

61) لالند أندري ، موسوعة لالند الفلسفية (ج1+ج2+ج3) ، ترجمة خليل أحمد خليل ، مؤسسة عويدات ، بيروت ، ط1 ، 2001 .

فهرس الموضوعات

المقدمة..... أ- ي

الفصل الأول : المشروع الابستمولوجي لكارل بوبر **11**

المبحث الأول : كارل بوبر والاتجاهات الفلسفية المواكبة له **13**

المبحث الثاني : الابستمولوجيا العامة عند كارل بوبر **33**

المبحث الثالث : ابستمولوجيا العلوم الاجتماعية عند كارل بوبر **51**

الفصل الثاني : المشروع السياسي لكارل بوبر **60**

المبحث الأول: المذهب التاريخي والمجتمع المغلق..... **62**

المبحث الثاني: الفكر النقدي والمجتمع المفتوح..... **73**

المبحث الثالث : مفهوم الديمقراطية والحرية والمسؤولية والتسامح عند كارل بوبر **83**

الفصل الثالث : العلاقة النسقية بين المشروع السياسي والمشروع الابستمولوجي في فلسفة كارل بوبر **100**

المبحث الأول : كارل بوبر من الابستمولوجيا إلى السياسة **102**

المبحث الثاني : قراءة نقدية في فلسفة كارل بوبر **111**

المبحث الثالث : ما بعد فلسفة كارل بوبر **126**

الخاتمة..... **139**

ملحق خاص بالمفاهيم **145**

فهرس المصادر والمراجع **150**

فهرس الموضوعات **156**